من إصدارات المؤلفة

- الفقه الميسر (٦ أجزاء) فقه مقارن - مكتبة مكة - القاهرة - طنطا (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- أمراض القلوب - خمسة وثلاثون مرضًا من أمراض القلوب وطرق علاجها - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- التعليقات الجلية على العقيدة السفارينية - للإمام السفاريني (٢ جزء)- دار الآثار - القاهرة (ت: ٠٢٢٥١٢٥١٨٤).
- مجموعة بداية الهداية (أصول الإيمان - تفسير القرآن - فقه الحلال والحرام - الحديث) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٩).
- الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنىٰ (٢ جزء) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٩).
- عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٩).
- الدرر البهية - بيان التوحيد الصحيح من الكتاب والسنة - مكتبة/ دار ابن الجوزي بالقاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١– ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).
- المحجة البيضاء في بيان أهمية التمسك بالسنة وبيان البدع وأنواعها - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١– ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).
- محمد رسول الله ﷺ كأنك تراه - دار ابن الجوزي القاهرة (ت: ٠٢٢٥٠٦١٦٢١– ٠٢٢٥٠٦١٦٢٠).
- بيان قدر الصحابة عند الله العظيم وضلال الشيعة الخاسرين - مكتبة آل ياسر- القاهرة (ت: ٠١١١٢٤٥٨٤٤٤).

الموقع الرسمي لأم تميم

omtameem.com

الصفحة الرسمية لأم تميم على الفيسبوك

https://www.facebook.com/Om.Tameem.Dr.Azza.Mohamed

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله مـن شـرور أنفسـنا وسـيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أن محمـدًا عبـده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد، فهذا شرحي لـنظم العقيـدة السـفارينية الموسـومة بـ «الـدرة المضـية في عقد أهل الفرقة المرضية» للإمام محمد بن أحمـد بـن سـالم السـفاريني، المتوفى عام ١١٨٨ هـ، وقد قمت بشرح هذا الـنظم في أكثر مـن معهـد مـن معاهـد العلـوم الشرعية للنساء فوجد - بفضل الله تعالى - قَبولًا عند الأخوات، فبدا لـي تصـنيف كتاب يشرح هذا المتن، ووسمته بـ «التعليقـات الجلية على العقيـدة السـفارينية» ليعم النفع على الجميع - رجالًا ونساءً- مع العلم أن هـذا العمـل قـد سـبقني إليـه طائفة من العلماء، منهم من اختصر الشرح، ومنهم من أسهب، ومنهم دون ذلك.

وقد قمت بعمل أبحاث عن بعض المسائل – التي لم يتعرض إليها من سبقني من العلماء في شروحهم لهذه العقيدة – على سبيل المثال لا الحصر: مبحث في إثبات أن الأسماء والصفات ليس فيها مجاز، ومبحث عن الدار الآخرة، وعلامات الساعة، وكذا عالم الملائكة، وعالم الجن، وغيرها من المسائل التي ذكرها من اعتنى بشرح هذه العقيدة على وجه الإجمال.

وأنا أعلم أن أمثالي عالة – بلا شك – على هؤلاء الأكابر، غير أني أطمع -كعادتي- في فضل الله وكرمه وإحسانه أن يتقبل مني جهد المقل بقبول حسن.

هذا، ولا يخفى أن الإمام السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ قد جمع في هذا النظم اعتقاد أهل السنة والجماعة، وكان للعلماء بعض المآخذ على بعض ما ذكره في نظمه هذا، فقمت ببيان ذلك في ثنايا الشرح مع ذكر الراجح من أقوالهم.

وقد قسم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ نظمه إلى مقدمة وستة أبواب ثم خاتمة، فاتبعته على هذا التقسيم للتيسير.

وختامًا: أسأل الله العلي العظيم الكريم المنان، الرحمن الرحيم، أسأله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل مني هذا العمل ويجعل كل ما كتبت وسطرت خالصًا له وحده، وأن يضع له القبول عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إنه شكور ودود، رؤوف بعباده قريب مجيب دعوة مَن دعاه.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن شاهين

٩ جمادى الآخرة ١٤٣٨هـ

٧ مارس ٢٠١٧م

ترجمة العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ترجمة العلامة

محمد بن أحمد بن سالم السفاريني

اسمه ومولده:

هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني[(١)] النابلسي الحنبلي، أبو العون، شمس الدين، محدث وفقيه أصولي، ومؤرخ، ولد بسفارين من قرى نابلس، ونشأ بها، ثم رحل إلى دمشق، ولد بمدينة نابلس ودفن بالتربة الشمالية فيها.

مولده: ولد الإمام العلامة فريد عصره وأوانه، بقرية سفارين من قرى نابلس سنة أربع عشرة ومائة وألف، ونشأ بها، وقرأ القرآن في سنة ألف ومائة وإحدى وثلاثين هجرية في نابلس.

نشأته وطلبه للعلم وشيوخه:

قرأ القرآن في سنة ألف ومائة وإحدى وثلاثين في نابلس، واشتغل بالعلم قليلًا وارتحل إلى دمشق سنة ألف ومائة وثلاث وثلاثين، ومكث بها قدر خمس سنوات، فقرأ بها على الشيخ عبد القادر التغلبي «دليل الطالب»

---

(١) نسبة إلى سفارين: بفتح أوله وثانيه مع تشديده وألف وراء وياء ونون، أرجع أنها تحريف «سفرين»، بمعنى «أسفار وكتب»، ذكرتها المصادر الإفرنجية (saffir) وقرية سفارين تقع في الجنوب الشرقي من طولكرم وعلى بعد ٢٠كم عنها. (انظر بلادنا فلسطين، الديار النابلسية ج٣/ ص١٢١-ط٢/ ١٩٨٨م).
وسفارين كجبارين: قرية من أعمال نابلس. (انظر: تاج العروس للزبيدي ج١٢/ ص٤٧، تحقيق مصطفى حجازي. طبع في الكويت-١٩٧٣م).

للشيخ مرعي الحنبلي من أوله إلى آخره قراءة تحقيق، و«الإقناع» للشيخ موسى الحجاوي، وحضره في الجامع الصغير السيوطي بين العشائين، وغيره مما كان يقرأ عليه في سائر أنواع العلوم، وذاكره في عدة مباحث من شرحه على «الدليل»، فمنها ما رجع عنها ومنها ما لم يرجع لوجود الأصول التي نقلها منها، وكان يكرمه ويقدمه على غيره وأجازه بما في ضمن ثبته الذي خرجه له الشيخ محمد بن عبد الرحمن الغزي في سنة (خمس وثلاثين)، وعلى الشيخ عبد الغني النابلسي «الأربعين النووية» و«ثلاثيات البخاري»، و«ثلاثيات أحمد»، وحضر دروسًا في «تفسير القاضي»، وأجازه عمومًا بسائر ما يجوز له وبمصنفاته كلها، وكتب له إجازة مطولة وذكر فيها مصنفاته، وعلى الشيخ عبد الرحمن المجلد «ثلاثيات البخاري»، وحضر دروسه العامة وأجازه، وعلى الشيخ عبد السلام بن محمد الكاملي بعض كتب الحديث وشيئًا من رسائل إخوان الصفا، وعلى ملا إلياس الكوراني كتب المعقول، وعلى الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني «الصحيح» بطرقه مع مراجعة شروحه الموجودة في كل رجب وشعبان ورمضان من كل سنة مدة إقامته بدمشق، و«ثلاثيات البخاري» وبعض «ثلاثيات أحمد» وشيئًا من «الجامع الكبير» وبعضًا من كتاب «الإحياء» مع مراجعة تخريج أحاديثه للزين العراقي، و«الأندلسية» في العروض مع مطالعة بعض شروحها، وبعضًا من «شرح شذور الذهب» و«شرح رسالة الوضع» مع حاشيته التي ألفها و«حاشية ملا إلياس»،

وأجازه بكل ذلك وبما يجوز له روايته، وعلى الشيخ أحمد بن علي المنيني شرح «جمع الجوامع» للمحلي، وشرح «الكافية» لملا جامي، وشرح «القطر» للفاكهي، وحضر دروسه للصحيح، وشرحه على منظومة «الخصائص الصغرى» للسيوطي، وقد أجازه بكل ذلك إجازة مطولة كتبها بخطه، وعلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الغزي بعضًا من شرح ألفية العراقي لزكريا، وأول سنن أبي داود، وعلى قريبه الشيخ أحمد الغزي غالب الصحيح بالجامع الأموي بحضرة جملة من كبار شيوخ المذاهب الأربعة، وعلى الشيخ مصطفى بن سوار أول صحيح البخاري وبعض ثلاثيات أحمد، وحج سنة ثمان وأربعين بعد الألف ومائة الهجرية، فسمع بالمدينة على الشيخ محمد حياة المسلسل بالأولية وأوائل الكتب الستة، وتفقه على شيخ المذهب مصطفى بن عبد الحق اللبدي، وطه بن أحمد اللبدي، ومصطفى بن يوسف الكرمي، وعبد الرحيم الكرمي، والشيخ المعمر السيد هاشم الحنبلي، والشيخ محمد السلقيني وغيرهم، ومن شيوخه الشيخ محمد الخليلي، سمع عليه أشياء، والشيخ عبد الله البصروي سمع عليه «ثلاثيات أحمد» مع المقابلة بالأصل المصحح، والشيخ محمد الدقاق أدركه بالمدينة وقرأ عليه أشياء، واجتمع بالسيد مصطفى البكري فلازمه وقرأ عليه مصنفاته، وأجازه بماله وكتب له بذلك، وله شيوخ أخر غير ما ذكرت، وله مؤلفات منها «شرح عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني في مجلدين، و«شرح ثلاثيات أحمد» في مجلد ضخم، و«شرحه نونية

الصرصري الحنبلي» وسماه «معارج الأنوار في سيرة النبي المختار»[(١)].

صفاته وثناء العلماء عليه:

لقد أثنى على العلامة السفاريني كثير من العلماء الذين عاصروه بالذات، وأثنى عليه من لم يعاصره والسبب في ذلك هو تتلمذهم على كتبه ومؤلفاته، وممن أثنى عليه من معاصريه المرادي فقال عنه: الشيخ الإمام الحبر البحر النحرير الكامل الهمام الأوحد العلامة والعالم العامل الفهامة صاحب التآليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة، فقد كان غرة عصره وشامة مصره لم يظهر في بلاده مثله، وكان يدعى للملمات ويقصد في تفريج المهمات، ذا رأي صائب وفهم ثاقب جسورًا على ردع الظالمين وزجر المفترين، إذا رأى منكرًا أخذته رعدة وعلا صوته من شدة الحدة، وإذا سكن غيظه وبرد قيظه يقطر رقة ولطافة وحلاوة وظرافة، وله الباع الطويل في علم التاريخ وحفظ وقائع الملوك والأمراء والعلماء والأدباء وما وقع في الأزمان السالفة وكان يحفظ من أشعار العرب العرباء والمولدين شيئًا كثيرًا[(٢)].

ووصفه الجبرتي وصفًا جميلًا فقال: «كان شيخًا ذا شيبة منورة مهيبًا جميل الشكل ناصرًا للسنة قامعًا للبدعة قوالًا بالحق مقبلًا على شأنه

(١) انظر عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي (١/ ٤٦٨-٤٧٠).
(٢) انظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (ج٤).

مداومًا على قيام الليل في المسجد ملازمًا على نشر علوم الحديث مجدًّا في أهله، ولا زال يملي ويفيد ويجيز من سنة ثمان وأربعين إلى أن توفي»(١).

وقد أجاد في وصفه أيضًا صاحب «السحب الوابلة» حتى نستطيع أن نقول بأنه انفرد من بين من وصفه ممن ترجم له من العلماء فقال عنه: «كان إمامًا متقنًا جليل القدر وظهرت له كرامات عظيمة وكان حسن التقرير والتحرير لطيف الإشارة بليغ العبارة حسن الجمع والتآليف لطيف الترتيب والترصيف زينة أهل عصره ونقاوة أهل مصره صوامًا قوامًا، وِرْده كل ليلة ستون ركعة وكان متين الديانة لا تأخذه في الله لومة لائم محبًا للسلف وآثارهم بحيث أنه إذا ذكروا عنده لم يملك عينيه من البكاء، وتخرج له وانتفع به خلق كثير من النجديين والشاميين وغيرهم»(٢).

وقال عنه في موضع ذكره لاجتهاده وشغفه بالعلم: «... برع في فنون العلم وجمع الأمانة والفقه والديانة والصيانة وفنون العلم والصدق وحسن السمت والخلق والتعبد وطول الصمت عما لا يعني، وكان محمود السيرة، نافذ الكلمة رفيع المنزلة عند الخاص والعام سخي النفس كريمًا بما يملك مهابًا معظمًا عليه أنوار العلم بأدبه وصنف تصانيف جليلة في كل

(١) انظر: عجائب الآثار للجبرتي (ص٣١)- طبعة بولاق.
(٢) انظر: السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للإمام العلامة الشيخ محمد بن عبد الله النجدي (٢٩٥م)-ط١- (ص٣٤٢).

فن»[١].

ووصفه أيضًا بـ«الإمام المحدث البارع الزاهد».

ووصفه الشَّطي بـ: «الشيخ الإمام الحبر البحر الهمام العالم العامل والنحرير الكامل العلامة المحقق والفهامة المدقق صاحب التآليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة بهجة الفقهاء والمحدثين شمس الدنيا والدين خاتمة الحنابلة في الديار النابلسية صاحب الفيوضات الإلهية والعلوم اللدنية عمدة المتأخرين حجة الناظرين في الفروع على الأصول الجامع بين المعقول والمنقول، مطرز أردية الفتاوى بتحرير التحرير، مرجل هامات المباحث والتقرير، سيد أهل التحقيق على التحقيق، وسعد أرباب التدقيق بنظرة التدقيق»[٢].

ووصفه المحدث الكتاني بقوله: «هو الإمام محدث الشام وأثريه مسند عصره وشامته» ... ونقل عن صاحب «النفس اليماني» قوله عن الشيخ بأنه «مسند الشام الحافظ الكبير»، وحلاه مفتي الحنابلة بمكة الشمس محمد بن حميد الشركسي المكي في طبقات الحنابلة المسماة «بالسحب الوابلة» بـ«المسند الحافظ المتقن»، وحلاه أبو الفيض الزبيدي في معجمه

---

(١) نفس المصدر السابق (ص٣٤١).

(٢) انظر: مختصر طبقات الحنابلة، جمع واختصار الشيخ: جميل أفندي الشطي ص١٢٧-١٢٨، طبع في دمشق مطبعة الترقي ١٣٣٩هـ.

المختص بـ «شيخنا الإمام المحدث البارع الزاهد»، وقال فيه: «كان ناصرًا للسنة قامعًا للبدعة قوالًا بالحق مقبلًا على شأنه ملازمًا لنشر علوم الحديث محبًّا في أهله»، وقال فيه في «ألفية السند» له : مسند عصره الإمام المعتلي.

الأثـري الزاهـد السـجادا بعلمـه قـد رفـع العمـادا

وقال الحافظ الزبيدي عنه أيضًا في إجازته لحفيد المترجم عبد الرحمن بن يوسف بن محمد السفاريني:

وجـده محمـد بـن أحمـدا شيخ الحديث قد هدى وسدَّدا

قـد كـان عمـر الله في نـابلس بقيـة الأخيـار عـالي النفس

أوحـد مـن كانـت لـه العناية في حفظ هـذا الفن فوق الغاية

وقال عنه الحافظ أبو الفيض الزبيدي وهو ممن تتلمذوا عليه: «ولم يخلف بعده مثله».

وقد علق على ثبته الكتاني فقال: «وله ثبت ألفه لما استجازه من دمشق العلامة شاكر العقاد، قال في «عقود اللآلئ»: فأجازه وأرسل إليه كراسة جعلها كالثبت له، وذكر فيها بعض مشايخه وأسانيده ومروياته وبعض المسلسلات وسنده في الصحيحين والمسانيد وغير ذلك؛ إجازة مطولة جامعة شافية مشتملة على الأسانيد العالية والمرويات الغالية» اهـ.

وقال الحافظ الزبيدي في ترجمته من «المعجم المختص»: «كتبت إليه أستخيره فكتب إليّ إجازة حافلة في عدة كراريس حشاها بالفوائد

والغرائب، وكان وصول هذه الإجازة في عام ١١٧٩هـ، ثم كاتبته ثانيًا عام ٨٢هـ، وأرسلت إليه الاستدعاء باسم جماعة من الأصحاب منهم المرحوم عبد الخالق بن خليل والسيد محمد البخاري وجماعة من أهل زبيد، فاجتهد وحرر إجازة حسنة حشاها بفوائد غريبة في كراريس»[(١)].

مؤلفاته:

ألف العلامة الشيخ السفاريني العديد من المؤلفات والشروح وذكر أنها نحو ثلاثين مؤلفًا منها:

- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، وهي منظومة في عقيدة أهل السنة بتكليف من علماء نجد.
- شرح ثلاثيات أحمد في مجلد ضخم.
- شرح نونية الصرصري سماها (معارج الأنوار السنية ونتائج الآثار السنية في شرح القصيدة النونية في السيرة النبوية) في مجلدين.
- تحبير الوفا في سيرة المصطفى.
- البحور الزاخرة في علوم الآخرة.
- كشف اللثام في شرح عمدة الأحكام.
- نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار.

---

(١) انظر فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، (ج٢/ ص١٠٢٢-١٠٠٥) للشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني باعتناء د.إحسان عباس- بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- الجواب المحرر في الكشف عن حال الخضر والاسكندر.

- عرف الزرنب في بيان شأن السيدة زينب.

- القول العلي في شرح أثر أمير المؤمنين علي رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ.

- نظم الخصائص الواقعة فيه أيضًا.

- الدر المنظم في فضل شهر الله المحرم.

- قرع السياط في قمع أهل اللواط.

- الملح الغرامية في شرح منظومة ابن فرح اللامية.

- التحقيق في بطلان التلفيق.

- لوائح الأنوار السَّنية ولواقح الأفكار السُّنية في شرح منظومة الإمام أبي بكر بن أبي داود الحائية (مجلد).

- تحفة النساك في فضل السواك.

- الدرر المضية في عقد أهل الفرق المرضية وشرحها المسمى «سواطع الأسرار الأثرية».

- تناضل العمال لشرح فضائل الأعمال.

- الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات.

- رسالة في بيان الثلاث والسبعين فرقة والكلام عنها.

- اللمعة في فضائل الجمعة.

- الأجوبة النجدية عن الأسئلة النجدية.

- الأجوبة الوهبية عن الأسئلة الزعبية.

- شرح على دليل الطالب (لم يكمل).

- تعزية اللبيب بأحب حبيب.

- نظم الدر المنثور في الحكم والأمثال والمأثور في العقيدة.

- فرق الإسلام.

- فتاوى، وأما الفتاوى التي كتب عليها الكراس والأقل والأكثر فكثيرة لو جمعت لبلغت مجلدات، وله من الأشعار وفي المراسلات والغزليات والوعظيات والمرثيات شيء كثير. وذكر كثيرًا من هذه المؤلفات وأماكن وجودها الزركلي في الأعلام[1].

---

(١) انظر: الأعلام للزركلي (٦ / ١٤).

متن العقيدة السفارينية

الموسومة

بـ «الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية»

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - الْحَمْدُ للهِ الْقَدِيمِ الْبَاقِي ... مُقَدِّرِ الآجَالِ وَالأَرْزَاقِ[١]

٢ - حَيٌّ عَلِيمٌ قَادِرٌ مَوْجُودُ ... قَامَتْ بِهِ الأَشْيَاءُ وَالْوُجُودُ

٣ - دَلَّتْ عَلَى وُجُودِهِ الْحَوَادِثُ ... سُبْحَانَهُ فَهْوَ الحَكِيمُ الْوَارِثُ

٤ - ثمَّ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ سَرْمَدَا ... عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى كَنْزِ الْهُدَى

٥ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الأَبْرار ... مَعَادِنِ التقْوَى مَعَ الأَسْرارِ

٦ - وَبَعْدُ فاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ الْعِلْمِ ... كَالْفَرْعِ لِلتَّوْحِيدِ فاسْمَعْ نَظْمِي

٧ - لأَنَّهُ العِلْمُ الَّذِي لا يَنْبَغِي ... لِعَاقِلٍ لِفَهْمِهِ لَمْ يَبْتَغِ

٨ - فَيعْلَمُ الْوَاجِبَ وَالْمُحَالَا ... كَجَائِزٍ فِي حَقِّهِ تَعَالى

٩ - وَصَارَ مِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ ... أَنْ يَعْتَنُوا فِي سَبْرِ ذَا بِالنَّظْمِ

١٠ - لأَنَّهُ يَسْهُلُ لِلْحِفْظِ كَمَا ... يَرُوقُ لِلسَّمْعِ وَيشفي مِنْ ظَما

١١ - فَمِنْ هُنَا نَظَمْتُ لِي عَقِيدَةَ ... أُرْجُوزَةً وَجِيزَةً مُفِيدَةَ

١٢ - نَظَمْتُهَا فِي سِلْكِهَا مُقَدِّمَة ... وَسِتُّ أَبْوَابٍ كَذَاكَ خَاتِمَة

١٣ - وَسَمْتُهَا بِالدُّرَّةِ الْمُضِيَّة ... فِي عَقْدِ أَهْلِ الْفِرْقَةِ الْمَرْضِيَّة

---

(١) في بعض النسخ «مسبب الأسباب والأرزاق»، وبعض الكلمات التي وردت في النظم تختلف من نسخة إلى أخرى.

١٤ - عَلَى اعْتِقَادِ ذِي السَّدَادِ الحَنْبَلِيّ   إِمَامِ أَهْلِ الْحَقِّ ذِي الْقَدْرِ الْعَلِيّ
١٥ - حَبْرِ المَلَا فَرْدِ العُلَا الرَّبَّانِي   رَبِّ الْحِجَى ماحِي الدُّجَى الشَّيْبَانِي
١٦ - فَإِنَّهُ إِمَامُ أَهْلِ الأَثَرِ   فَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ فَهْوَ الأَثَرِي
١٧ - سَقَى ضَرِيحًا حَلَّهُ صوبُ   والعَفْوِ والغُفْرانِ ما نَجْمٌ أَضَا
١٨ - وَحَلَّهُ وَسائرَ الأئِمةْ   مَنَازِلَ الرِّضْوانِ أعْلَى الْجَنَّةْ

مقدمة

في ترجيح مذهب السلف على مذهب الخلف [(١)]

والفرقة الناجية على سائر الفرق

١٩ - اعْلَـمْ هُـدِيتَ أَنَّـهُ جَـاءَ الْخَبَـرْ   عَـنِ النَّبِـيِّ المُقْتَفَـى خَيْـرِ الْبَشَـرْ

٢٠ - بِـأَنَّ ذِي الأُمَّـةِ سَـوْفَ تَفْتَـرِقْ   بِضْـعًا وَسَـبْعِينَ اعْتِقَـادًا وَالمُحِـقْ

٢١ - مَـا كَـانَ فِي نَهْـجِ النَّبِـيِّ الْمُصْـطَفَى   وَصَـحْبِهِ مِـنْ غَيْـرِ زَيْـغٍ وجَفَـا

٢٢ - ولَـيسَ هـذا النَّصُّ جَزْمًـا يُعْتَبَـر   فِي فِرْقَـةٍ إلّا عَلَـى أَهْـلِ الأَثَـر

٢٣ - فَـأَثْبَتُوا النُّصُـوصَ بِالتَّنْزِيـهِ   مِـنْ غَيْـرِ تَعْطِيـلٍ وَلَا تَشْـبِيهِ

٢٤ - فَكُـلُّ مَـا جَـاءَ مِـنَ الآيَـاتِ   أَوْ صَـحّ فِـي الأَخْبَـارِ عَـنْ ثِقَـاتِ

٢٥ - مِـنَ الأَحَادِيـثِ نُمِـرُّهُ كَمَـا   قَـد جَـاءَ فاسْمَعْ مِنْ نِظَامِي وَاعْلَمَا

٢٦ - وَلَا نَـرُدُّ ذَاكَ بِـالعُقُولِ   لِقَـوْلِ مُفْتَـرٍ بِـهِ جَهُـولِ

٢٧ - فَعَقْـدُنَا الإِثْبَـاتُ يَـا خَلِيلِـي   مِـنْ غَيْـرِ تَعطِيـلٍ وَلَا تمثِيـلِ

٢٨ - وَكُـلُّ مَـنْ أَوَّلَ فِـي الصِّـفَاتِ   كَذَاتِـهِ مِـنْ غَيـرِ مَـا إِثْبَـاتِ

٢٩ - فَقَـدْ تَعَدَّى وَاسْتَطَالَ واجْتَرَى   وَخَـاضَ فِـي بَحْـرِ الهَـلَاكِ وَافْتَـرى

---

(١) في بعض النسخ مقدمة في ترجيح مذهب السلف على سائر المذاهب.

٣٠ - أَلَمْ تَرَ اخْتِلَافَ أَصْحَابِ النَّظَرِ فِيهِ وَحُسْنَ مَا نَحَاهُ ذُو الأَثَرِ

٣١ - فَإِنَّهُمْ قَدِ اقْتَدَوْا بِالمُصْطَفَى وَصَحْبِهِ فَاقْنَعْ بِهَذَا وَكَفَى

الباب الأول
في معرفة الله تعالى

٣٢ – أَوَّلُ وَاجِـــبٍ عَلَـــى العَبِيــدِ ‏ مَعْرِفَـــةُ الإلَـــهِ بالتَّسْــــدِيدِ

٣٣ – بأَنَّـــهُ وَاحِـــدٌ لا نَظِيـــرَ ‏ لَـــهُ وَلَا شِـــبْهٌ وَلَا وَزِيـــرَ

٣٤ – صِـــفَاتُهُ كذَاتِـــهِ قَديمَـــة ‏ أَسْــــمَاؤُه ثَابتَـــةٌ عَظِيمَـــة

٣٥ – لَكِنَّهَـا فِـي الْحـقِّ تَوْقِيفِيَّـة ‏ لَنَــا بِـــذا أَدِلَّـــةٌ وَفِيَّـــة

٣٦ – لَـهُ الْحَيـاةُ وَالكَـلامُ والْبَصَـرْ ‏ سَـــمْعٌ إِرَادَةٌ وَعِلْـــمٌ وَاقْتَـــدَرْ

٣٧ – بِقُـــدْرَةٍ تَعَلَّقَـــتْ بِمُمْكِـــنِ ‏ كَـــذَا إِرَادَةٌ فَـــعِ واسْـــتَبِنِ

٣٨ – وَالعِلْـــمُ والْكَـــلَامُ قَـــدْ تَعَلَّقَـــا ‏ بِكُـلِّ شَـيْءٍ يَـا خَلِيلِـي مُطْلَقَـا

٣٩ – وَسَـــمْعُهُ سُـــبْحَانَهُ كَالْبَصَـــرِ ‏ بِكُـــلِّ مَسْـــمُوعٍ وَكُـــلِّ مُبْصَـــرِ

٤٠ – وَأَنَّ مَـــا جَـــاءَ مـــع جِبْرِيـــلِ ‏ مِـــنْ مُحْكَـــمِ القُـــرْآنِ والتَّنْزِيـــلِ

٤١ – كَلاَمُـــــهُ سُـــــبْحَانَهُ قَـــــدِيمُ ‏ أَعْيَـــا الـــوَرَى بِـــالنَّصِّ يَـــا عَلَـــيمُ

٤٢ – وليسَ في طوْقِ الورَى من أصلِهِ ‏ أنْ يســـتطيعوا سُـــورةً مـــنْ مِثلِـــهِ

٤٣ – وَلَـــيْسَ ربُّنَـــا بِجَـــوْهَرٍ وَلَا ‏ عَـرَضٍ ولا جِسْـمٍ تَعَـالى ذُو الْعُلَـى

٤٤ – سُـبْحَانَهُ قَـدِ اسْـتَوَى كَمَـا وَرَدْ ‏ مِـنْ غَيْـرِ كَيْـفٍ قَـدْ تَعَـالَى أَنْ يُحَـدْ

٤٥ - فَــلَا يُحِــيطُ عِلْمُنَــا بِذَاتِــهِ ... كَــذَاكَ لا يَنْفَــكُّ عَــنْ صِــفَاتِهِ

٤٦ - فَكُـلُّ مَـا قَـدْ جَـاءَ فِـي الـدَّلِيلِ ... فَثَابِــتٌ مِــنْ غَيْــرِ مَــا تَمْثِيــلِ

٤٧ - مِـنْ رَحْمَـةٍ وَنَحْوِهـا كَوَجْهِـهِ ... وَيَــدِهِ وَكُــلِّ مَــا مِــنْ نَهْجِــهِ

٤٨ - وَعَيْنِــهِ وَصِــفَةِ النُّــزُولِ ... وَخَلْقِــهِ فَاحْــذَرْ مِــنَ النُّــزولِ

٤٩ - فسَــائِرُ الصِّــفاتِ والأَفْعَــالِ ... قَدِيمَــــــةٌ للهِ ذِي الجَــــــلَالِ

٥٠ - لَكِــنْ بِــلَا كَيْــفٍ وَلَا تَمثِيــلِ ... رغمًــا لأَهــلِ الزَّيــغِ وَالتَّعطِيــلِ

٥١ - فَمُرهَــا كَمَــا أَتَــتْ فِي الــذِّكرِ ... مِــنْ غيــرِ تَأوِيــلٍ وَغيــرِ فِكْــرِ

٥٢ - وَيَسْتَحِيلُ الْجَهلُ وَالعَجْزُ كَمَا ... قَـد اسْـتَحَالَ الْمَـوتُ حَقًّـا وَالْعَمَى

٥٣ - فَكُــلُّ نَقْــصٍ قَــد تَعَــالَى اللهُ ... عَنْــهُ فَيَــا بُشْــرَى لِمَــنْ وَالَاهُ

٥٤ - وكـلُّ مـا يُطلـبُ فِيـهِ الجـزم ... فَمنــعُ تقليــدٍ بِــذاكَ حــتمٍ

٥٥ - لأنــهُ لا يُكْتفـــى بـــالظَّنِّ ... لِـذِي الْحِجَـا فِي قَـوْلِ أهـلِ الفـنِّ

٥٦ - وقِيلَ يَكفي الجزمُ إِجمَاعًا بما ... يُطلــبُ فِيــهِ عنــدِ بَعــضِ العُلمَــا

٥٧ - فالجـازِمُون مـنْ عـوامِّ البشَـرْ ... فمُســلمونَ عنــدَ أهــلِ الأثــرْ

الباب الثاني

في الأفعال المخلوقة

٥٨ - وَسَـائِرُ الأشْـياء غيـرَ الـذاتِ   وَغيــرَ مــا الأســمَاء والصِّــفَاتِ

٥٩ - مَخْلوقـة لربِّنَـا مـن العَـدَمْ   وَضـلَّ مـنْ أثْنـى عَليهَـا بالقِـدَمْ

٦٠ - وربّنَـا يخلُـقُ باخْتِيَـارْ   مِـنْ غيـرِ حاجـة ولا اضْـطِرَارْ

٦١ - لكنَّـهُ لا يخلُـقُ الخلْـقَ سُـدَى   كمـا أتـى في الـنصِّ فـاتبع الـهُدَى

٦٢ - أفعالُنـا مخلوقـةٌ للهِ   لكنَّهـا كسـبٌ لنـا يَـا لَاهِـي

٦٣ - وكـلُّ مـا يفعَلُـه العِبـادُ   مـنْ طاعـةٍ أو ضـدِّها مُـرادُ

٦٤ - لرَبِّنـا مـن غيـرِ مـا اضـطِرَارِ   منـهُ لنَـا، فـافْهَمْ ولا تمـارِ

٦٥ - وَجَـازَ للمَـولَى يُعـذبُ الْـوَرَى   مِـنْ غَيـرِ مَـا ذَنْـبٍ وَلَا جُـرم جَـرَى

٦٦ - فَكُـلُّ مَـا مِنْـهُ تَعَـالَى يَجمُـلُ   لأَنَّـهُ عَـنْ فِعلِـهِ لَا يُسـأَلُ

٦٧ - فَـإِن يُثِـب فَإِنَّـهُ مِـنْ فَضْـلِه   وَإِن يُعـذِّب فَـبمَحضِ عَدلِـهِ

٦٨ - فَلَـمْ يَجِـبْ عَلَيهِ فِعلُ الأصلَحِ   وَلا الصَّـلَاحِ وَيـحَ مَـنْ لَـم يُفْلِـحِ

٦٩ - فَكُـلُّ مَـن شَـاءَ هـدَاهُ يَهتَـدِي   وَإِن يُـرد ضَـلَالَ عَبـدٍ يَعتـدِي

٧٠- والـرزقُ مـا ينفـعُ مـن حـلالِ   أو ضـدِّه فحُـلْ عـن المُحـالِ

٧١- لأنــــهُ رازقُ كُـــلِّ الخَلْـــقِ   ولـــيسَ مخلـــوقٌ بغيـــر رزقِ

٧٢- ومـن يَمُـتْ بقتلـهِ مـن البشـرِ   أو غيـــره فبالقضـــاءِ والقَـــدَرِ

٧٣- ولم يَفُتْ منْ رزقهِ ولا الأجَلِ   شـيءٌ فـدَعْ أهـلَ الضَّـلالِ والخَطَـلِ

الباب الثالث

في الأحكام

٧٤- وواجــبٌ علــى العبــادِ طُــرًّا أن يَعْبُــــدوهُ طَاعَــــةً وبِــــرًّا

٧٥- ويفْعَلُوا الفِعْلَ الـذي بـه أَمَـر حَتمًـا ويترُكُـوا الـذي عَنْـهُ زَجَـر

فصل

في الكلام عن القضاء والقدر

٧٦- وكــلُّ مــا قــدّرَ أو قضــاهُ فواقــعٌ حَتمًــا كمــا قَضــاهُ

٧٧- وليس واجبًا على العبد الرِّضا بكُــلِّ مَقْضــيٍّ ولكــن بالقضــا

٧٨- لأنَّــه مــن فعْلــه تعــالى وذاك مــن فِعْــل الــذي تقَــالى

فصل

في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها

٧٩- ويفسُــقُ المــذنبُ بــالكبيرة كــــذا إذا أَصَــــرَّ بالصــــغيرة

٨٠- لا يخـرجُ المـرءُ مـن الإيمـان بموبقــات الــذنب والعصــيان

٨١- وواجــبٌ عليــه أن يتُوبــا مــن كُــل مــا جَــرّ عليــه حُوبَــا

٨٢- ويقبلُ المولَى بمحض الفضلِ مــن غيــر عبــدٍ كــافرٍ منفصــلِ

٨٣- مـا لـم يتُـب مـن كُفـرِه بضـدِّهِ فيرتجــعْ عــن شِــرْكهِ وصــدِّه

٨٤- ومَن يَمُتْ ولم يَتُب من الخَطَا فـأمره مُفَـوّضٌ لـذِي العَطَا

٨٥- فَإِن يَشَأ يَعفُ وَإِن شَاءَ انْتقَم وَإِن يَشَأ أَعطَى وَأَجزَل النِّعَمْ

فصل

في ذكر مَن قيل بعدم قبول إسلامه من طوائف الملحدين

٨٦- وقيلَ فِي (الدُّروزِ) وَ(الزَّنادِقَهْ) وسائِرِ (الطَّوائِفِ الْمُنافِقَهْ)

٨٧- وَكُلُّ (داعٍ لابتِداعٍ) يُقتَلُ كَمَن تَكَرَّر نَكثُهُ لا يُقبَلُ

٨٨- لأَنَّهُ لَم يُبْدِ مِن إِيْمانِهِ إِلَّا الَّذي أَذاعَ مِن لِسانِهِ

٨٩- كمُلحِدٍ وساحر وساحرة وهم على نياتهم في الآخرة

٩٠- قلتُ وإن دلت دلائلُ الهدى كما جرى للعَيْلَبوني اهتدى

٩١- فإنه أَذاع من أسرارهم ما كان فيه الهتكُ عن أستارهم

٩٢- وكان للدين القويم ناصرًا فصار منا باطنًا وظاهرًا

٩٣- فكل زنديق وكُل مارق وجاحد ومُلحد مُنافق

٩٤- إذا استبانَ نُصحُه للدين فإنه يُقبَل عن يقين

فصل

في الكلام عن الإيمان

٩٥- إيمانُنا قولٌ وقصدٌ وعمل تزيدُه التقوى وينقص بالزَّلَل

٩٦- ونحــــنُ في إيمانِنَــا نَســتْثني مــن غيــر شــكٍّ فَاسْــتَمعْ واسْــتَبنِ
٩٧- نُتـابع الأخيـارَ مِـن أهـلِ الأثـرْ ونَقْتَفــي الآثــارَ لا أَهْــل الأَشَــرْ
٩٨- ولا تَقُــل إيمانُنــا مخلــوق ولا قــديمٌ هكــذا مطلــوق
٩٩- فإنــه يشــملُ للصــلاةِ ونحوِهــا مــن ســائرِ الطاعــات
١٠٠- ففعلُنا نحوَ الركوع مُحدَث وكــلُّ قــرآنٍ قــديمٌ فــابحثوا
١٠١- ووكَّــلَ الله مــن الكــرامِ اثْنــين حــافظينِ للأنــامِ
١٠٢- فيكتبـانِ كـلَّ أفعـالِ الـورى كمـا أتـى في الـنصِ مـن غيـرِ امْتـرا

الباب الرابع
ذكر البرزخ والقبور، وأشراط الساعة، والحشر والنشور

١٠٣- وكُـلُّ مـا صـحَّ مـنَ الأخبـارِ أو جـــاءَ في التَّنْزيـــلِ والآثـــارِ
١٠٤- مِـن فِتنَـةِ البَـرزَخِ والقُبـورِ ومَـــا أَتَـــى في ذَا مِـــنَ الأمـــورِ
١٠٥- وأنَّ أرواحَ الـورَى لَـم تُعْـدَمِ مَــعْ كَوْنِهــا مَخلوقَــةً فاسْــتَفهِمِ
١٠٦- فكُلُّ ما عَنْ سَيِّدِ الْخَلقِ وَرَد مِـنْ أمـرِ هٰـذا البـابِ حـقٌّ لا يُـرد

فصل
في أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

١٠٧- وَمَا أَتَى في النَّصِّ مِنْ أَشرَاطِ فكلُّـــهُ حَــــقٌّ بـــلَا شَـــطاطِ
١٠٨- مِنهَـا الإمَـامُ الخَـاتَمُ الفَصِـيحُ مُحمَّـــدُ الْمَهـــدِيُّ وَالمَسِـــيحُ
١٠٩- وَأنَّـــه يَقتُــــلُ الـــدَّجَّال بِبَـــابِ لُـــدٍّ خَـــلِّ عَـــن جِـــدالِ
١١٠- وَأَمْرُ يَـأجُوجَ وَمَـأجُوجَ أَثْبِتِ فإِنَّـــهُ حَـــقٌّ كَهَـــدْمِ الكَعْبَـــةِ
١١١- وَأن مِنْهَـــا آيَـــةُ الــــدُّخانِ وَأَنَّـــهُ يُـــــذهَبُ بِالْقُــــرْآنِ
١١٢- طُلُوعُ شَمسِ الْأُفقِ مِن دَبورِ كَــذَاتِ أَجيَــادٍ عَلَــى الْمَشْــهُورِ
١١٣- وَآخِـرُ الْآيَـاتِ حَشْـرُ النَّـارِ كَمَــا أَتَــى فِــي مُحكَــمِ الْأَخْبَـارِ
١١٤- فَكُلُّهَـا صَـحَّت بِهَـا الْأَخْبَـارُ وَسطَّــــرَتْ آثارَهَـــا الأخيـــارُ

فصل
في أمر المعاد

١١٥- واجـزمْ بـأمرِ البَعـثِ والنُّشـورِ والحشـرِ جَزمـًا بعـدَ نفـخِ الصُّـورِ
١١٦- كـذا وُقـوفُ الخلـقِ للحِسـابِ والصُّـحفِ والْميـزانِ للثَّـوابِ
١١٧-كَذا الصِّراطُ ثم حَوضُ المُصطفى فَيـا هَنَـا لمـن بـهِ نَـالَ الشِّـفا
١١٨- عنـه يُـذادُ المُفتـري كمـا وَرَدْ ومـن نَحَـا سُـبُلَ السَّـلامةِ لـم يُـرَدْ
١١٩- فَكُنْ مُطيعًا واقْفُ أهْلَ الطاعة في الحَـوْضِ والكـوثرِ والشَّـفَاعَة
١٢٠- فإنهـا ثابتـةٌ للمُصـطفى كغيـره مـن كُـلِّ أربـاب الوَفـا
١٢١- مـن عـالمٍ كالرُّسـلِ والأبـرارِ سِـوى التـي خُصَّـت بـذي الأنـوَار
١٢٢- وكـلُّ إنسـان وكـل جِنَّـةِ في دار نـار أو نعـيمِ جَنَّـةِ
١٢٣- هُما مصيرُ الخلق من كلِّ الورى فالنـارُ دارُ مـن تَعـدى وافتـرى
١٢٤- ومَـن عَصـى بِذَنبِـهِ لَـم يَخلُـدِ وإنْ دَخَلْهـا يـا بَـوارَ الْمُعتَـدِي
١٢٥- وجَنَّـةُ النَّعـيمِ لِلأبـرارِ مَصـونَةٌ عَـن سـائِرِ الكُفَّـارِ
١٢٦- واجـزِمْ بِـأَنَّ النَّـارَ كالْجَنَّـةِ فِـي وُجُودِهـا وأنَّهـا لَـم تَتْلَـفِ
١٢٧- فنَسـأَلُ اللهَ النَّعـيمَ والنَّظَـر لِرَبِّنـا مِـن غَيْـرِ مـا شَـيْنٍ غَبَـر

١٢٨- فإنَّــــهُ يُنظَـــــرُ بِالأبصــــــارِ كَمــا أتــى فِــي الــنَّصِّ والأخبــارِ

١٢٩- لأنَّــهُ سُــبحانَهُ لَــم يُحجَــبِ إلَّا عَــــن الكــــافِرِ والْمُكَــــذِّبِ

الباب الخامس
في ذكر النبوة ومتعلقاتها

١٣٠- ومـن عَظِـيمِ منَّـةِ السـلامِ ولطفـــــهِ بســــائر الأنــــامِ

١٣١- أن أرشَد الخلق إلى الوصولِ مبينًــــا للحـــــقِّ بالرســــولِ

١٣٢- وشــرطُ مــن أُكــرمَ بـالنبوةِ حريــــــةٌ ذكـــــورةٌ كقـــــوة

١٣٣- ولا تُنــال رتبـــةُ النبـــوةِ بالكســـبِ والتهـــذيبِ والفتـــوة

١٣٤- لكنها فضلٌ من المولى الأجَلّ لمــن يَشــا مــن خلقــهِ إلــى الأجَـل

١٣٥- ولـم تـزل فيمـا مضـى الأنبـاءُ مــن فضــلهِ تــأتي لمــن يشــاء

١٣٦- حتى أتى بالخـاتم الـذي ختم بــه وأَعْلَانــا علــى كــلّ الأمــم

فصل
في التنبيه على بعض خصائصه ﷺ وهي كثيرة جدًّا

١٣٧- وخصَّــه بــذاكَ كالمقــامِ وبعثـــهِ لســـائرِ الأنـــام

١٣٨- ومَعجـزِ القـرآنِ كـالمعراجِ حقًّــا بــلا مــينِ ولا اعوجــاجِ

١٣٩- فكـم حبـاه ربُّــهُ وفضَّـلَه وخصَّـــهُ ســـبحانهُ وخوَّلَـــه

فصل
في التنبيه على بعض معجزاته ﷺ

١٤٠- ومعجــزات خــاتم الأنبيــاء كثيـــرة تجـــلُّ عـــن إحصـــاءِ

١٤١- منها كـلامُ الله معجـزُ الـورى   كـذا انشـقاقُ البـدر مـن غيـر امتـرا

فصل
في ذكر فضيلة نبينا وأُولي العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين

١٤٢- وأفضـلُ العـالَمِ مِـن غَيـرِ امتِـرا   نَبيُّنَـا الْمَبعـوثُ فِـي أمِّ القُـرى

١٤٣- وبَعـدَهُ الأفضَـلُ أهـلُ العَـزمِ   فالرُّسْـلُ ثُـمَّ الأنْبيـا بـالْجَزمِ

فصل
فيما يجب للأنبياء وما يجوز عليهم وما يستحيل في حقهم

١٤٤- وإنَّ كُـلَّ واحِـدٍ مِـنهُمْ سَـلِمْ   مِن كُـلِّ ما نَقْـصٍ ومِن كُفرٍ عُصِمْ

١٤٥- كـذاكَ مِـن إفـكٍ ومِـن خِيانَـةِ   لِوَصـفِهِم بِالصِّـدقِ والأمانَـةِ

١٤٦- وجـائزٌ في حـقِّ كُـل الرُّسْـلِ   النَّـومُ والنِّكـاحُ مثـل الأكْـلِ

فصل
في ذكر الصحابة الكرام

١٤٧- ولـيسَ في الأُمَّـةِ بـالتَّحقيقِ   في الفَضـلِ والمعـروفِ كـالصِّدِّيقِ

١٤٨- وبعـدَهُ الفـاروقُ مِن غيرِ افتِـرا   وبعـدَهُ عُثمـانُ فـاترُكِ الْمِـرا

١٤٩- وبعـدُ فالفَضـلُ حَقيقـًا فاسْـمَعِ   نِظـامِي هـذا للبَطِـينِ الأنـزَعِ

١٥٠- مُجَـدِّلِ الأبطالِ ماضـي العَـزمِ   مُفَـرِّجِ الأوجـالِ وافِـي الْحَـزمِ

١٥١- وَافِي النَّدَى مُبْدِي الهُدَى مُردِي العِدَا   مُجلِـي الصَّـدَى يـا وَيـلَ مَـنْ فِيـهِ اعْتَـدَى

١٥٢- فحُبُّهُ كَحُبِّهِم حَتماً وَجَب ومَنْ تَعَدَّى أو قَلَى فَقَد كَذَب
١٥٣- وبعدُ فالأفضَلُ باقي العَشَرَةْ فأهلُ بَدرٍ ثُمَّ أهلُ الشَّجَرَةْ
١٥٤- وقيلَ أهلُ أُحُدٍ الْمُقَدَّمَةْ والأوَّلَ أَوْلَى للنُّصوصِ الْمُحكَمَةْ
١٥٥- وَعائِشَة فِي العِلمِ مَعَ خَديجَةْ فِي السَّبْقِ فافهَم نُكْتَةَ النَّتيجَةْ

فصل
في ذكر الصحابة الكرام وبيان مزاياهم على غيرهم والتعريف بما يجب لهم من المحبة والتبجيل وتقبيح مَن آذاهم

١٥٦- وَلَيْسَ فِي الأُمَّةِ كَالصَّحَابَةِ فِي الفَضْلِ وَالمَعْرُوفِ وَالإِصَابَةِ
١٥٧- فَإِنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا الْمُخْتَارَ وَعَايَنُوا الأَسْرَارَ وَالأَنْوَارَ
١٥٨- وَجَاهَدُوا فِي اللهِ حَتَّى بَانَا دِينُ الهُدَى وَقَدْ سَمَا الأَدْيَانَا
١٥٩- وَقَدْ أَتَى فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ مِنْ فَضْلِهِمْ مَا يَشْفِي لِلغَلِيلِ
١٦٠- وَفِي الأَحَادِيثِ وَفِي الآثَارِ وَفِي كَلامِ القَوْمِ وَالأَشْعَارِ
١٦١- مَا قَدْ رَبَا مِنْ أَنْ يُحِيطَ نَظْمِي عَنْ بَعْضِهِ فَاقْنَعْ وَخُذْ عَنْ عِلْمِي
١٦٢- وَاحْذَرْ مِنَ الخَوْضِ الَّذِي قَدْ يُزْرِي بِفَضْلِهِمْ مِمَّا جَرَى لَوْ تَدْرِي
١٦٣- فَإِنَّهُ عَنِ اجْتِهَادٍ قَدْ صَدَرْ فَاسْلَمْ أَذَلَّ اللهُ مَنْ لَهُم هَجَرْ
١٦٤- وَبَعْدَهُمْ فَالتَّابِعُونَ أَحْرَى بِالفَضْلِ ثُمَّ تَابِعُوهُمْ طُرّا

فصل
في ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

١٦٥- وَكُلُّ خَارِقٍ أَتَى عَنْ صَالِحِ   مِنْ تَابِعٍ لِشَرْعِنَا وَنَاصِحِ

١٦٦- فَإِنَّهَا مِنَ الكَرَامَاتِ الَّتِي   بِهَا نَقُولُ فَاقْفُ لِلأَدِلَّةِ

١٦٧- وَمَنْ نَفَاهَا مِنْ ذَوِي الضَّلالِ   فَقَدْ أَتَى فِي ذَاكَ بِالمُحَالِ

١٦٨- فَإِنَّهَا شَهِيرَةٌ وَلَمْ تَزَلْ   فِي كُلِّ عَصْرٍ يَا شَقَا أَهْلِ الزَّلَلِ

فصل
في المفاضلة بين البشر والملائكة

١٦٩- وَعِنْدَنَا تَفْضِيلُ أَعْيَانِ البَشَرْ   عَلَى مَلاكِ رَبِّنَا كَمَا اشْتُهِرْ

١٧٠- قَالَ وَمَنْ قَالَ سِوَى هَذَا افترى   وَقَدْ تَعَدَّى فِي المَقَالِ وَاجْتَرَا

الباب السادس

في ذكر الإمامة ومتعلقاتها

١٧١- وَلا غِنَـى لأُمَّـةِ الإِسْـلامِ ... فِـي كُـلِّ عَصْـرٍ كَـانَ عَـنْ إِمَـامِ
١٧٢- يَـذُبُّ عَنْهَـا كُـلَّ ذِي جُحُـودِ ... وَيَعْتَنِـي بِـالغَزْوِ وَالحُـدُودِ
١٧٣- وَفِعْـلُ مَعْـرُوفٍ وَتَـرْكُ نُكْـرِ ... وَنَصْـرُ مَظْلُـومٍ وَقَمْـعُ كُفْـرِ
١٧٤- وَأَخْـذُ مَـالِ الفَـيْءِ وَالخَـرَاجِ ... وَنَحْـوُهُ وَالصَّـرْفُ فِـي مِنْهَـاجِ
١٧٥- وَنَصْـبُهُ بِـالنَّصِّ وَالإِجْمَـاعِ ... وَقَهْـرُهُ فَحُـلَّ عَـنِ الخِـدَاعِ
١٧٦- وَشَـرْطُهُ الإِسْـلامُ وَالحُرِّيَّـةْ ... عَدَالَـةٌ سَـمْعٌ مَـعَ الدِّرِيَّـةْ
١٧٧- وَأَنْ يَكُـونَ مِـنْ قُـرَيْشٍ عَالِمًـا ... مُكَلَّفًـا ذَا خِبْـرَةٍ وَحَاكِمًـا
١٧٨- فَكُـنْ مُطِيعًـا أَمْـرَهُ فِيمَـا أَمَـرْ ... مَـا لَـمْ يَكُـنْ بِمُنْكَـرٍ فَيُحْتَـذَرْ

فصل

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٧٩- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ مَعَا ... فَرْضَـا كِفَايَـةٍ عَلَـى مَـنْ قَـدْ وَعَـى
١٨٠- وَإِنْ يَكُـنْ ذَا وَاحِـدًا تَعَيَّنَـا ... عَلَيْـهِ لَكِـنْ شَـرْطُهُ أَنْ يَأْمَنَـا
١٨١- فَاصْـبِرْ وَزِلْ بِاليَـدِ وَاللِّسَـانِ ... لِمُنْكَـرٍ وَاحْـذَرْ مِـنَ النُّقْصَـانِ
١٨٢- وَمَنْ نَهَى عَمَّا لَهُ قَدِ ارْتَكَبْ ... فَقَـدْ أَتَـى مِمَّـا بِـهِ يَقْضِـي العَجَـبْ
١٨٣- فَلَـوْ بَـدَا بِنَفْسِـهِ فَـذَادَهَا ... عَـنْ غَيِّهَـا لَكَـانَ قَـدْ أَفَادَهَـا

الخاتمة

١٨٤- مَــدَارِكُ العُلُــومِ فِــي العِيَــانِ مَحْصُــورَةٌ فِــي الحَــدِّ وَالبُرْهَــانِ
١٨٥- وَقَالَ قَوْمٌ عِنْدَ أَصْحَابِ النَّظَرِ حِــسٌّ وَإِخْبَــارٌ صَــحِيحٌ وَالنَّظَــرِ
١٨٦- فَالحَــدُّ وَهُــوَ أَصْــلُ كُــلِّ عِلْــمٍ وَصْــفٌ مُحِــيطٌ كَاشِــفٌ فَــافْتَهِمِ
١٨٧- وَشَــرْطُهُ طَــرْدٌ وَعَكْــسٌ وَهُــوَ إِنْ أَنْبَــا عَــنِ الــذَّوَاتِ فَالتَّــامُّ اسْــتَبَنْ
١٨٨- وَإِنْ يَكُــنْ بِــالجِنْسِ ثُــمَّ الخَاصَّــةْ فَــذَاكَ رَسْــمٌ فَــافْهَمِ المُحَاصَّــةْ
١٨٩- وَكُــلُّ مَعْلُــومٍ بِحِــسٍّ وَحِجَــا فَنُكْــرُهُ جَهْــلٌ قَبِــيحٌ فِــي الهِجَــا
١٩٠- فَــإِنْ يَقُــمْ بِنَفْسِــهِ فَجَــوْهَرٌ أَوْ لَا فَــذَاكَ عَــرَضٌ مُفْتَقِــرُ
١٩١- وَالجِسْــمُ مَــا أُلِّــفَ مِــنْ جُــزْأَيْنِ فَصَــاعِدًا فَــاتْرُكْ حَــدِيثَ المَــيْنِ
١٩٢- وَمُسْــتَحِيلُ الــذَّاتِ غَيْــرُ مُمْكِــنِ وَضِــدُّهُ مَــا جَــازَ فَاسْــمَعْ زُكُنِــي
١٩٣- وَالضِّــدُّ وَالخِــلَافُ وَالنَّقِــيضُ وَالمِثْــلُ وَالغَيْــرَانِ مُسْــتَفِيضُ
١٩٤- وَكُــلُّ هَــذَا عِلْمُــهُ مُحَقَّــقْ فَلَــمْ نُطِــلْ بِــهِ وَلَــمْ نُنَمِّــقْ
١٩٥- وَالحَمْــدُ للهِ عَلَــى التَّوْفِيــقِ لِمَــنْهَجِ الحَــقِّ عَلَــى التَّحْقِيــقِ
١٩٦- مُسَــلِّمًا لِمُقْتَضَــى الحَــدِيثِ وَالــنَّصِّ فِــي القَــدِيمِ وَالحَــدِيثِ
١٩٧- لَا أَعْتَنِــي بِغَيْــرِ قَــوْلِ السَّــلَفِ مُوَافِقًــا أَئِمَّتِــي وَسَــلَفِي
١٩٨- وَلَسْــتُ فِــي قَــوْلِي بِــذَا مُقَلِّــدًا إِلَّا النَّبِــيَّ المُصْــطَفَى مُبْــدِي الهُــدَى

١٩٩- صَـلَّى عَلَيْـهِ اللهُ مَـا قَطْـرٌ نَـزَلْ وَمَــا تَعَــانَى ذِكْــرُهُ مِــنَ الأَزَلْ
٢٠٠- وَمَـا انْجَلَـى بِهَدْيِـهِ الـدَّيْجُورْ وَرَاقَـــتِ الأَوْقَـــاتُ وَالــــدُّهُورْ
٢٠١- وَآلِـهِ وَصَـحْبِهِ أَهْـلِ الوَفَـا مَعَـادِنِ التَّقْـوَى وَيَنْبُـوعِ الصَّـفَا
٢٠٢- وَتَـــابعٍ وَتَـــابِعٍ لِلتَّـــابِعِ خَيْـرِ الـوَرَى حَقًّـا بِـنَصِّ الشَّـارِعِ
٢٠٣- وَرَحْمَــةُ اللهِ مَــعَ الرِّضْـوَانِ وَالبِــرِّ وَالتَّكْـــرِيمِ وَالإِحْسَـــانِ
٢٠٤- تُهْدَى مَعَ التَّبْجِيلِ وَالإِنْعَامِ مِنِّــي لِمَثْـوَى عِصْـمَةِ الإِسْـلامِ
٢٠٥- أئِمَّـةِ الـدِّينِ هُـداةِ الأُمَّـةِ أهـلِ التُّقَـى مِـنْ سـائِرِ الأَئِمَّـةِ
٢٠٦- لا سِـيَّما أَحْمَـدَ والنُّعمـانِ ومالِــكٍ مُحَمَّــدِ الصِّــنوانِ
٢٠٧-مـن لازم لكـل أَرْبَـاب الْعَمَـل تَقْلِيـد حَبْـر مِـنْهُم فاسْـمَعْ تُخَـل
٢٠٨- وَمَـنْ نَحَـا لِسُبْلِهِمْ مِـنَ الـوَرَى مَــا دَارَتِ الأَفْــلاكُ أَوْ نَجْـمٌ سَـرَى
٢٠٩- هَدِيَّـةٌ مِنِّـي لأَرْبَـابِ السَّـلَفِ مُجَانِبًـا لِلخَـوْضِ مِـنْ أَهْـلِ الخَلَـفْ
٢١٠- خُـذْهَا هُـدِيتَ وَاقْتَـفِ نِظَـامِي تَفُــزْ بِمَــا أَمَّلْــتَ وَالسَّـــلامِ

الشرح

ثناء صاحب النظم على الله تعالى ورسوله، وثناؤه على الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١ - الْحَمْـــدُ للهِ الْقَـــدِيم الْبَـــاقي مُقَـــــــدِّر الآجَـــــــالِ وَالأَرْزاقِ

الشرح

معنى الحمد في كلام العَرب: الثناءُ الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سُبحانه يستحق الحمد بأجمعه؛ إذْ له الأسماء الحسنى والصفات العلا...[(١)].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الحمدُ يتضمن مدحَ المحمود بصفات كماله ونُعوت جلاله مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكونُ حامدًا مَن جَحَد صفات المحمود، ولا مَن أعرض عن محبته والخضوع له، ولهذا كان الحمدُ كله لله[(٢)].

الفرق بين الحمد والشكر:

الحمدُ: أعم من الشكر من جهة المتعلق؛ لأنَّ مُتعلقه الفواضل، والفضائل، فيكون على المحاسن والإحسان، أما الشكر فيكون على الإحسان فقط، فهو أخص من الشكر من جهة المتعلق.

قال الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ: الفضائلُ: هي المزايا غير المتعدية، والفواضل: هي المزايا المتعدية... والمرادُ بالمتعدية التعلق؛ كالإنعام؛ أي إعطاء النعمة وإيصالها إلى الغير، لا الانتقال[(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٤٨).

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٤٢).

(٣) الكليات للكفوي (ص: ٥٧٦).

فالفواضل: الصفاتُ المتعدية؛ كالكرم.

والفضائل: الصفاتُ اللازمة؛ كالجمال وجودة الذهن ونحو ذلك، فالحمد أخص من جهة المورد؛ لأنَّ مورده اللسان والجنان فقط، والشكر[1] أعم من جهة المورد؛ لأنَّ مورده اللسان والجنان والأركان...

والشكر أخص من جهة المتعلق؛ لأنَّ مُتعلقه الصفات الفواضل فقط، قاله ابن مانع.

ويرى بعض العلماء أن الحمد والشكر شيء واحد، ومن هؤلاء العلماء ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ، وقد اعترض على هذا القول ابن كثير وغيره.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المُحَجَّبا[2]

وقوله «لله»:

واللام تكون للإضافة، وتكون للاستحقاق، يقال: أكْل للدابة، والدار لزيد، فاللام هنا بمعنى الاستحقاق، كأنه يقول: المستحق للحمد هو الله تعالى.

وإن شئنا قلنا: إنها للاستحقاق؛ لأنَّ الله تعالى مُستحِقٌّ للحَمد،

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ١٣٣-١٣٤).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٢).

وللاختصاص؛ لأنّ المحامد كلها لا تكونُ إلا لله وحده فقط[١].

وقوله: «القديم»:

القديم في اللغة: يُطلق على الموجود الذي لا يكونُ وجوده من غيره، وهو القديم بالذات[٢]، ويطلق القديم على الموجود الذي ليس وجودُهُ مسبوقًا بالعدم[٣].

فالقديم: هو المتقدِّم على غيره مُطلقًا، فقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد].

ومن أدعية رَسُول الله ﷺ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[٤].

و«شيء»: نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء، فهو قبل كُل شيء مُطلقًا بلا تقييد، فتشمل كل ما هو غير الله سبحانه وتعالى، يعني من جميع المخلوقات، فهو سبحانه أول بلا مبتدأ وآخر بلا مُنتهى.

هل القديمُ من أسماء الله تعالى؟

القديمُ ليس من أسماء الله جل في علاه، وذلك لأمور نذكرها:

---

(١) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (١/ ٣٥-٣٦).

(٢) القديم بالذات والصفات، لأنّ المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة وأشباه هؤلاء حينما يُطلقون القدم يُريدون به قدم الذات، وأما قدم الصفات فهذا فيه تفصيل عندهم. انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٧٥).

(٣) التعريفات للجرجاني (٢٢٢). وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٢٦٩).

(٤) أخرجه مُسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأول: أنَّ أسماءَ الله تعالى توقيفية، لا مجالَ للعقل فيها، أي لا مجالَ للاجتهاد، فعقولُ البشر قاصرة وعاجزة عن معرفة أسمائه سُبحانه وتعالى، فلا نُثبتُ اسمًا لله إلا بنص من الكتاب أو السنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وهذا اعتقادُ أهل السنة والجماعة قاطبة.

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولما كانت معرفة أسمائه توقيفية لا تُعْلم إلا من طريق الوحي والسنة، ولم يكن لنا التصرف فيها بما لم يهتد إليه مبلغ علمنا ومنتهى عقولنا؛ نُهينا عن إطلاق ما لم يرد به توقيف[(١)].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما يُطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي... فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.. فله من صفات الإدراكات: العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر... وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والعفو دون الصفوح الساتر، وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ٤٧٩).

منها أكملها وأحسنها، ولا يقوم غيره مقامه(١).

الثاني: أسماءُ الله تعالى كلها حُسْنى، كما وصَفها الله تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والقديمُ ليس بحَسَن من كُل وجه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سَمَّى الله سُبحانه أسماءه بالحسْنى؛ لأنها في الأسماع والقلوب، فإنها تدُل على توحيده وكرمه وجُوده ورحمته وإفضاله(٢).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح، فلو كانت ألفاظًا مجردة لا مَعاني لها تدُلّ على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حُسنى كلها.. وذكر الآية، ثم قال: فهي لم تكن حُسنى لمجرد اللفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال(٣).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في نونيته**:

أسماؤه أوصافُ مدحٍ كلُّها مشتقة قد حُمِّلت لمعانِ(٤)

أما القديم: فليس بحسَن من كل وجه، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والعرجون القديم هو عذق النخلة الذي يلتوي

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٤٧-١٥٢) باختصار.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣١٠).
(٣) بدائع التفسير (٢/ ٣١٧).
(٤) شرح النونية لجمع من العلماء (٢/ ٢٥١).

إذا تقدم به العهد، ولا شك أنه حادث وليس أزليًّا، والحدوث نقص، وأسماء الله تعالى كلها حسنى، لا تحتمل النقص بأي وجه. فتبين بذلك أن تسمية الله بالقديم لا تجوز بدليل عقلي وبدليل سمعي، وساق الأدلة كما ذكرنا.. إلى أن قال: إذًا تسمية الله بالقديم مما يؤخذ على المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

تنبيه:

١- يجوز أنْ يُطلق على الله تعالى: «القديم» من باب الإخبار عنه سبحانه، إذا احتيج لذلك.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعامة النظار يُطلقون ما لا نصَّ في إطلاقه ولا إجماع، كلفظ القديم والذات[٢] ونحو ذلك، ومن الناس من يَفصل بين الأسماء التي يُدعى بها، وبين ما يُخبر به عنه للحاجة، فهو سبحانه إنما يُدعى بالأسماء الحسنى، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وأما إذا احتيج إلى الإخبار عنه، مثل أنْ يُقال: ليس هو قديم ولا موجود ولا ذات قائمة بنفسها ونحو ذلك، فقيل في تحقيق الإثبات بل هو سبحانه قديم موجود، وهو ذات قائمة بنفسها، وقيل: ليس بشيء، فقيل: بل هو شيء، فهذا سائغ، وإن كان لا يُدعى بمثل هذه الأسماء التي ليس فيها ما يدل على المدح، كقول القائل: يا شيء، إذا كان هذا لفظًا يعم كل موجود،

---

(١) شرح السفارينية (ص: ٦٩-٧٠).

(٢) لفظ «الذات» جاء في حديث أبي هُريرة الذي أخرجه البخاري (٣٣٥٧)، ومُسلم (٢٣٧١) وفيه: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل».

وكذلك لفظ «ذات وموجود» ونحو ذلك[١].

٢- إذا جاز إطلاقُ اسم القديم على الله تعالى من باب تحقيق الإثبات فلا بد من توضيح، فنقول كما قال صاحبُ الطحاوية: «قديمٌ بلا ابتداء».

أي: أنَّ صفات الله تعالى قائمة بذاته، وهي قديمة، احترازًا من قول المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة ومَن وافقهم أنَّ القدمَ قدمُ الذات، أما الصفات فلهم فيها تفصيل، وهذا مخالفٌ لإجماع أهل السنة.

وقوله: «الباقي»:

ذكر الناظمُ «الباقي» على أنه من أسماء الله تعالى، وحُجة من عَدّ «الباقي» من أسماء الله الحسنى: قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

قال الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل معنى الباقي: الدائمُ الموصوفُ بالبقاء الذي لا يستولي عليه الفناء، وليست صفة بقائه ودوامه كبقاء الجنة والنار، وذلك أنّ بقاءه أبدي أزلي، وبقاءُ الجنة والنار أبدي غير أزلي، فالأزلي ما لم يزل، والأبدي ما لا يزالُ، والجنة والنار كائنتان بعد أنْ لم تكونا[٢].

هل «الباقي» من أسماء الله تعالى؟

للعُلماء مناهج ساروا عليها في جمع أسماء الله الحسنى، وهذا بابٌ يحتاج إلى شرح طويل، وقد بسطتُ المسألة في موضع آخر[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٩/ ٣٠١).

(٢) الحجة في بيان المحجة (ص: ٤٤).

(٣) راجع إن شئت: كتابي «الدرر البهية» باب: توحيد أسماء الله تعالى.

وقد ذهب فريقٌ من العُلماء الذين اعتنوا بجمع أسماء الله الحسنى إلى أنَّ «الباقي» من أسماء الله تعالى، منهم: جعفر الصادق، الخطَّابي، ابن مَنده، الحليمي، البيهقي، الأصبهاني، ابن العربي، القرطبي، وغيرهم[(١)]، فأخذوا اسم «الباقي» بالاشتقاق من قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن].

ومن العُلماء من قال: إنه ليس اسمًا لله تعالى، وإنما هو صفةٌ من صفاته، ومنهم ابن الوزير، وابن حجر العسقلاني، وابن عُثيمين، وغيرهم[(٢)].

وقوله: «مُقدرِ الآجالِ والأرزاقِ»:

مُقدِّر: أي جَاعلٌ لها قدرًا معلومًا.

الآجال: جمع أجَل، والأجلُ: المدةُ المضرُوبةُ للشيءِ، قال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: ٦٧]، ويُقال: دَينه مُؤجلٌ، وقد أجلتُهُ: جَعَلتُ له أجَلًا، ويُقال للمُدة المضروبة لحياة الإنسان: أجَل، فيُقال: دنا أجلُهُ،

---

(١) راجع على الترتيب جمع هؤلاء العلماء لأسماء الله تعالى- جمع جعفر الصادق ذكره الحافظ في الفتح (١١/ ٢١٧)، شأن الدعاء للخطابي (٨٤-١٨٠)، التوحيد لابن منده (١٣٣-٢٤٠)، المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (١/ ١٨٨-٢٠٩)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٢٣ - ١١٨)، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني (ص: ٣٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٣٧٠-٣٨٢)، وشرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١/ ٦١) وما بعدها.

(٢) راجع على الترتيب جمع هؤلاء العلماء لأسماء الله الحسنى: جمع ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق (ص: ١٧١-١٧٢)، وجمع ابن حجر العسقلاني كما في فتح الباري (١١/ ٢١٩)، وجمع ابن عثيمين في القواعد المثلى (ص: ٢١).

عبارة عن دُنُوِّ الموت، وأصله: استيفاء الأجَل، أي مُدة الحياة[(١)].

فكُل إنسان أجَله مُقدَّرٌ. قال سُبْحانه: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾ [يونس].

الأرزاق: جمعُ رزق، وهو: ما ينتفع به الإنسان في حياته، فهو عَطاءٌ من الله سبحانه، فالمالُ رزقٌ، والطعامُ والشرابُ رزقٌ، والسكنُ والزوجة رزقٌ، فالرزقُ من الله سبحانه، قال جَلّ في عُلاه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات]

وهذا لا يُنافي الأخْذَ بالأسباب لجلب الرزق، فالاعتمادُ على الأسباب شركٌ، وتركُ الأسباب قَدْحٌ في الشَّرع، كما قال العُلماءُ، فلا بُد من الاثنين معًا. والله سُبحانه يرزقُ العبادَ بمقتضى حِكْمته، فمن العبادِ مَن يُصلحه المالُ، ومنهم مَن يُصلحه الفقرُ، فهو سُبحانه العليمُ الخبير الحكيم.

---

(١) المفردات للأصفهاني (ص: ١٣).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢ - حَــيٌّ عَلِــيمٌ قَــادِرٌ مَوْجُــودُ   قَامَــتْ بِــهِ الأَشْــيَاءُ وَالْوُجُــودُ

الشرح

قوله «حيّ»:

الحيّ: من أسماء الله الحسنى التي اتفق جميعُ العُلماء الذين اعتنوا بجمع الأسماء على أنه من أسماء الله تعالى، وقد جاء في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال رسول الله ﷺ: «**أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(١).

قال الخطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض شرحه اسم الله «الحي»:

هو الذي لم يزل موجودًا، وبالحياةِ موصوفًا، لم تحدُث له الحياةُ بعد موتٍ، ولا يعترضه الموتُ بعد الحياة، وسائرُ الأحياء يَعتَورُهم الموتُ أو العَدَمُ في أحد طرفي الحياة أو فيهما معًا، و﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨](٢).

قوله «عليم»:

العليمُ: من أسماء الله الحسنى، وقد اتفق العُلماءُ على أنه اسْمٌ لله جَلّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) شأن الدعاء (ص: ١٥٤).

في عُلاه، فهو سُبحانه يعلم السرَّ وأخفَى، ويعلمُ ما كان وما هو كائنٌ وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكونُ، والعلم صفة من صفاته سبحانه[(١)].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم]، وقال سُبحانه: ﴿ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣﴾ [لقمان]، وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾ [النساء]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾ [المائدة]، وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١].

وفي الصحيحين عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ الخضر قال لموسى عليهما السلام: «**إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ**»[(٢)].

قال الخطّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو العالمُ بالسرائرِ والخفياتِ التي لا يُدركُها عِلمُ الخلق.. والآدميون- وإنْ كانوا يوصفون بالعلم- فإنَّ ذلك ينصرفُ منهم إلى نوعٍ من المعلومات دون نوع، وقد يُوجَدُ ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضُهمُ الآفاتُ، فيخلُفُ علمهم الجهل، ويعقب ذكرهمُ النسيان، وقد تجدُ الواحدَ منهم عالمًا بالفقه غير عالم بالنحو، وعالمًا بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلمُ الله - سبحانه- علمُ حقيقةٍ

(١) وسيأتي بيان ذلك في معرض الكلام عن صفات الله تعالى.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

وكمالٍ، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن][١].

وقوله «قادرٌ»:

القدرة: صفةٌ من صفات الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٨٤﴾ [البقرة].

والقادر: من أسماء الله تعالى عند جماهير العُلماء، وقد وَرَدَ مُقيدًا في قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وسيأتي شرح معنى الاسم قريبًا بإذن الله.

الفرق بين القدرة والقوة:

والقدرة: إظهارُ الشيء من غير سَبب ظاهر، ذكره الحرالي.

وقال ابنُ الكمال: الصفة التي يتمكن بها الحي من الفعل وتركه بالإرادة[٢].

والقوة: القوة تُستعمَل في معنى القدْرَة، نحو قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] ويُستعمَل ذلك في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المعاونة من خارج تارة، وفي القدْرَة الإلهية تارة.

ففي البدن، نحو قوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥] فالقوة ههنا قوة البدن، بدلالة أنه رغب عن القوة الخارجة، فقال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥].

---

(١) شأن الدعاء (ص: ١٢٣).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٦٨).

وفي القلب، نحو قوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢] أي بقوة القلب.

وفي المعاونة من خارج، نحو قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] قيل معناه: أتقوَّى به من الجند، وما أتقوّى به من المال، ونحو قوله: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النمل: ٣٣].

وفي القدرة الإلهية، نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد][1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات].

قوله «موجود»:

الموجود: ليس من أسماء الله ولا صفاته، ولكن يجوز أن يُستعمل اللفظ من باب الإخبار عن الله[2]، كما سبق بيان ذلك عند الكلام عن لفظ «القديم». فلا شك أن الله سبحانه موجود، فوجوده لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء.

وقوله: «قامت به الأشياءُ والوجودُ»:

اعلم أنَّ كُلَّ شيءٍ في الكون قائمٌ بقُدْرته سبحانه وتعالى، ومشيئته، فهو سبحانه وتعالى القائمُ بنفسه المقيمُ لغيره، فكُلُّ ما في الكون محتاجٌ إليه،

---

(١) المفردات للأصفهاني (٤٦٢-٤٦٣) باختصار.

(٢) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وسائر صفاته كمال، وهذا الموجود الواجب بنفسه، وهذه الصفات لازمة لذاته، وذاته مستلزمة لها - منهاج السنة (٢/ ١٧٠)، وانظر: التدمرية (ص: ٦٢٥)، ومجموع الفتاوى (٦/ ١٤٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه - بدائع الفوائد (١/ ١٤٦).

وقال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ: لا بد أن نعتقد أنه موجود، وحق قائم بنفسه - شرح الطحاوية (ص: ٥١).

وهو الغني عن الخلق، وهذا معنى القيوم، فجميعُ الأشياء قامت بإيجاده وإعداده وإمداده.

قال ابنُ أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ: فاعلم أنَّ أسبابَ الخير ثلاثة:

الإيجاد، والإعداد، والإمداد.

فإيجادُ هذا الخير، وهو إلى الله، وكذلك إعدادُهُ وإمدادُه، فإذا لم يحدث فيه إعدادٌ ولا إمدادٌ حَصل فيه الشرُّ بسبب هذا العَدَم الذي ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضدَّه... فإيجاده خيرٌ، والشرُّ وقع من عدم إمداده.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: فكما أنه لا موجودَ إلا بإيجاده؛ فلا هدايةَ إلا بتعليمه، وذلك كُله من الأدلةِ على كَمال قُدْرته، وثبوت وحدانيته، وتحقيق ربوبيته، سبحانه وتعالى(١).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٣٢، ٤٢٤) باختصار.

قال صاحب النظم رحمه الله:

٣ – دَلَّـتْ عَلَـى وُجُـودِهِ الْحَـوَادِثُ   سُـبْحَانَهُ فَهْـوَ الحَكِـيمُ الْـوَارِثُ

الشرح

الحوادث: جمعُ حادث. والحدوثُ: كونُ الشيء بعد أن لم يكن – عَرَضًا[1] كان ذلك أو جوهرًا – وإحداثه إيجاده[2].

فأراد المؤلفُ رحمه الله أنْ يستدل على وجُود الله عز وجل بإيجاد الحوادث، ولكنَّ الأدلة على وجود الله تعالى ليست قاصرة على إيجاد الحوادث، وإنما هي كثيرة، منها:-

أولًا: الأدلة السمعية:

مَن تأمل في مخلوقات الله تعالى علم أنّ لها خالقًا ولا بُد، فكل ما في الكون يدلُ على الواحد الأحد، فالآيات الكونية من أعظم الدلائل على وجود الله عز وجل، وقد دعا اللهُ سبحانه في كتابه العزيز إلى عبادةِ النظر والتأمل والتفكر في مخلوقاته، حتى يتبين لهم عظمة الخالق، فيزداد الذين آمنوا إيمانًا، وتقام الحجة على الجاحدِ والمعاند.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ

---

(١) العَرضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلمون العَرضَ لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والطعم – المفردات (٣٦٤).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (١٢١) مادة (حدث).

بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس].

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم].

قال الله سبحانه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق] قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن

نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية].

ثانيًا: الأدلة العقلية:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور].

العقلُ الصريح لا يشك أنَّ كُلّ حادث لا بُد له من مُحْدثٍ، وكُلُّ الحوادث الذي أحدثها هو الله جَل في علاه.

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا
خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب

بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه. فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره مِن أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه(١).

قال أبو نواس:

تأمل في نبَاتِ الأرضِ وانظر ... إلى آثار مَا صَنعَ المليكُ

عيونٌ من لجين شَاخصات ... بأحداقٍ هي الذهبُ السبيكُ

عَلى قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وسئل أعرابي: ما الدليل على وجود الرب تبارك وتعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!

وسئل الشافعي عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٣٦).

تأكله الدود فيخرج منه الإبرسيم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك وهو شيء واحد.

وقال ابن المعتز رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيَـا عَجَبًـا كيـفَ يُعْصـى الإلـــهُ أمْ كَيـفَ يجحَـدهُ الجَاحِـد؟

وفي كُــلِّ شــيءٍ لَــه آيــةٌ تَــدُل علــى أنَّــهُ الوَاحِــد[1]

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: سَل المعطِّل الجاحد: ما تقولُ في دُولاب[2] دائر على نهرٍ قد أُحكمت آلاته، وأُحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظرُ فيه خللًا في مادتهِ ولا في صورتهِ، وقد جُعل على حَديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزرع يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة مَن يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء، ولا تتلف ثمارها، ثم يُقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج.. أترى هذا اتفاقًا بلا صانع، ولا مختار، ولا مدبر؟؟...

ثم تأمّل الممْسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيها، أفترى من الممْسك لذلك؟.... [3].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣١١-٣١٢) بتقديم وتأخير.

(٢) الدُّولاب: هو ما يُديره الحيوان- الكليات للكفوي (ص: ٣٧٦).

الدولاب: بالضم ويُفتح: شكلٌ كالناعورة يُسقَى به الماء- القاموس المحيط (ص: ٧٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥) وما بعدها باختصار.

ثالثًا: دلالة الفطرة:

الفطرةُ السليمة التي لم تنحرف، تُقر بوجُود رب العالمين الواحد الأحد. قال جَلّ ثناؤه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد أخْرَجَ البخاري ومُسلم في صحيحيهما من حَديث أبي هُرَيْرَة أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**».

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

إذًا: الدليلُ على وجُود الله تعالى ليس الحوادث فقط، ولكن الأدلة السمعية والعقلية، وأدلة الفطرة، فكُلُّ ما في الكون يدلُّ على وجُود الله جل في علاه.

وقوله: «سبحانهُ فهو الحكيمُ الوارثُ»:

سُبحان: اسمُ عَلَم لمعنى البراءة، والتنزيه، بمنزلة عُثمان وعُمران، قاله ابن جني[(٢)].

والتسبيحُ: التنزيه، وسُبحان الله: معناه: تنزيهًا لله من الصاحبة والولد.

وقيل: تنزيه الله تعالى عن كُل ما لا ينبغي له أنْ يُوصَف به[(٣)]. انتهى.

فالواجبُ على العبد أنْ يُنزه الله تعالى تنزيهًا مُطلقًا عن كل ما لا يليق

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) لسان العرب (٤/ ٤٦٦).

(٣) المصدر السابق.

به، فيُنزهه عن اتخاذ الولد والصاحبة والشريك، وعن جميع خَلقه، فهو سُبحانه الخالق قبل الخلق، وكان ولم يكُن شَيءٌ، فكيف يحتاجُ إلى مَن كان عدمًا؟!

فنزِّهْه عن مُماثلةِ أحَدٍ من خَلقه، فليس كمثله شيءٌ، لا في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله، وسيأتي تفصيل ذلك في مَوضعه بإذن الله تعالى.

وقوله: «الحكيم»:

الحاء، والكاف، والميم، أصل واحدٌ: وهو المنع، وأوله المنع من الظلم[1].

والحكمة في اللغة: ما أحاط بحنكي الفرس، سُمِّيت بذلك لأنها تمنعه من الجري الشديد، وتُذلل الدابة لراكبها حتى تمنعها الجِمَاح، ومنه اشتقاقُ الحكمة؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل.

وأحكم الأمرَ: أي أتقنه، فاستحكم، ومنعه من الفساد، أو منعه من الخروج عما يريد[2].

ومعنى الحكمة اصطلاحًا: إصابةُ الحق بالعلم والعَقل.

فالحكمةُ من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات.

والحُكمُ أعمُّ من الحكمة، فكُلُّ حِكمة حُكم، وليسَ كُلُّ حُكْمٍ حكمة[3].

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٩١) مادة (حكم).

(٢) انظر: لسان العرب (٢/ ٥٤٠-٥٤٣).

(٣) المفردات للأصفهاني (١٤١).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الحكمةُ: فِعلُ ما ينبغي، على الوجْه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[1].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: الحكمةُ عبارة عن العلم المتصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق، والعمل به، والصدّ عن اتباع الهَوى والباطل. والحكيمُ: مَن له ذلك[2].

والحكيمُ: اسمٌ من أسماء الله تعالى الحسنى، قال جَلّ ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر].

«**وقيل الحكمة نوعان**: غائية، وصورية.

أما الغائية: فهي بمعنى أنَّ الشيء إنما كان لغاية حميدة.

والصورية: بمعنى أنَّ كونَ الشيء على هذه الصورة المعينة لحكمة، فإذا تدبرت الصلاة وكَونها على هذا الوجْه؛ قيام، ثم ركوع، ثم قيام.. وكذلك الغاية منها أيضًا حكمة، فالغايةُ منها الثواب والأجر عند الله.

وهكذا أيضًا المخلوقات، فكونُ الشمس بهذا الحجم، وبهذه الحرارة، وبهذا الارتفاع هذه صورية، وهذا مُناسبٌ للحكمة تمامًا، ثم الثمرات الناتجة عن الشمس غايته.

ولكن هل الحكمة معلومة للخلق؟

والجواب: أنَّ الحكمة قد تكون معلومة، وقد تكون غير معلومة، لكن كونها غير معلومة لا يعني أنها معدومة، بل إنها موجودة، لكن لقصورنا أو

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٩).
(٢) شرح مسلم للنووي (٢/ ٣٣).

تقصيرنا لم نصل إليها.

الأحكام التعبدية:

الأحكامُ الشرعية إذا لم يعلم العلماء حكمتها سمّوها بالأحكام التعبدية، ولهذا لو قال قائل: ما الحكمة في أن تكون صلاة الظهر أربعًا دون ثمان؟ قلنا: الحكمة تعبدية ليس للعقل فيها مجال.

الأحكامُ المعقولة المعنى:

فهم يقولون: إنْ علمت حكمة الحُكم فهو حُكمٌ معقولُ المعنى، مع ما فيه من التعبد لله، وإن لم تُعلم فهو حكم تعبدي ليس لنا أمامه إلا التعبد.

وأيهما أقوى في التعبد: الامتثال للحكم التعبدي، أو للحكم المعقول المعنى؟

الأولُ أبلغ في التذلل، فكونك تقبل الحُكم وإن لم تعرف حكمته، هذا أبلغ؛ لأنَّ كونَ الإنسان لا يقبلُ إلا إذا علم حكمته فيه نوعٌ من الشرك، وهو عبادة الهوى، وأنه إذا وافق الشيء هواه وأدرَك حكمته قَبِله، واطمأن إليه، ورضي به، وإنْ لم يكن صار عنده فيه تردد[(١)].

ومن العلماء الذين عدوه من أسماء الله الحسنى: جعفر الصادق، سفيان بن عيينة، الخطابي، الحليمي، البيهقي، الأصفهاني، ابن العربي، ابن الوزير، ابن حجر العسقلاني، ابن عثيمين، وغيرهم[(٢)].

---

(١) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين (٤٨، ٤٩).

(٢) راجع حاشية (ص: ٥٢-٥٣) من الكتاب.

قال المصنفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٤ - ثــمَّ الصَّــلَاةُ والسَّــلَامُ سَــرْمَدَا   عَلَـى النَّبِـيِّ المُصْـطَفَى كَنْـزِ الْهُـدَى

الشرح

بعد أنْ فرغ صاحبُ النظم من حمد الله والثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، صلّى وسلّم على نبينا ﷺ امتثالًا لأمر الله.

فالله سُبحانه وتعالى وملائكته يُصلون على النبي، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة عليه، قال جَلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

معنى الصلاة من الله: للعُلماء قولان في معنى الصلاة من الله تعالى:-

الأول: أنّ الصلاةَ من الله: ثناؤُهُ عليه عند الملائكة.

الثاني: أنّ الصلاةَ من الله تعالى: الرحمة.

والقولُ الأول هو الراجح؛ لقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ١٥٧] و«واو» العطف تقتضي المغايرَة، كما هو معلومٌ عند أهل اللغة.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبو العالية: صلاةُ الله تعالى: ثناؤُهُ عليه عند الملائكة، وصلاةُ الملائكة: الدعاء.

قال ابنُ عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (يُصَلُّونَ: يُبرِّكُونَ)، هكذا علّقه البخاري(١).

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال غيرُ واحدٍ من أهْل العلم: صلاةُ الرب:

---

(١) والأثران أخرجهما البخاري تعليقًا، كتاب التفسير، قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قبل حديث (٤٧٩٧).

الرحمةُ، وصلاة الملائكة: الاستغفار[(١)].

والمقصودُ من هذه الآية: أنَّ الله سُبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه ﷺ عنده في الملأ الأعلى، بأنه يُثني عليه عند الملائكة المقربين، وأنَّ الملائكة تُصلي عليه، ثم أمرَ تعالى أهلَ العالم السفليَّ بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناءُ عليه من أهل العالمين، العلويَّ والسفليَّ معًا.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والصلاة من الله بمعنى الرحمة باطلٌ من ثلاثة أوجه:-

أحدها: أنَّ الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧].

الثاني: أنَّ سُؤالَ الرحمة شُرع لكل مُسلم، والصلاةُ تختص بالنبي ﷺ وهي حَق له ولآله؛ ولهذا مَنع كثيرٌ من العلماء الصلاة على مُعين غيره، ولم يُمنَع أحدٌ من الترحم على معين.

الثالث: أنَّ الرحمة عامة، وَسِعَت كُلَّ شيءٍ، وصلاته خاصة بخواص عباده[(٢)].

قال ابنُ جَرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: الصلاةُ في كلام العرب من غير الله إنما هو دعاء[(٣)]. انتهى.

ودَليلُ ذلك: قولُ الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٠).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٥).
(٣) جامع البيان (١٢/ ٥٣).

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادع لهم، كما قال أهل التفسير.

إذًا الصلاة على النبي ﷺ من العباد دعاءٌ له، فإذا قلت: اللهم صل على محمد؛ يعني: اللهم أثن عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة.

كيفية الصلاة والسلام على النبي ﷺ:

جاءت عدة أحاديث تحث على الصلاة على النبي ﷺ وكيفية الصلاة عليه، نذكر منها:

عن كَعْبِ بْنُ عُجْرَةَ قال: قيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فقَدْ عَرفناهُ فَكَيْفَ الصَّلاةُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[1].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله ﷺ: «**وَالسَّلَامُ كَمَا عَلِمْتُمْ**» معناه: قد أمركم الله تعالى بالصلاة والسلام عليّ، فأما الصلاة فهذه صفتُها، وأما السلام فكما علمتم في التشهد، وهو قولهم: (**السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النبيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه**)[2].

وجاءت صيغ أُخَر للصلاةِ على النبي ﷺ غير هذه الصيغة.

مسألة: كيف طلب النبي ﷺ له من الصلاة مثل ما لإبراهيم عليه السلام، وهو أفضل منه؟

قوله ﷺ: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**» إشكالية، وقد جاء في الرد عليها

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦).
(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٦٢).

تأويلات عشرة، ذكرها ابن العربي[(١)].

وأجـوَد منها ما ذكـر ابـن أبـي العـز، قـال: وقـد أجاب العلماء بأجوبـة عديدة، يضيق هذا المكان عن بسطها.

وأحسنُها: أنَّ آلَ إبراهيم فيهم الأنبياء الـذين لـيس في آل محمـد مثلُهم، فإذا طلبَ للنبي ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآلـه وفـيهم الأنبياء، حصـل لآلِ محمـدٍ مـا يليـق بهـم، فـإنهم لا يبلغـون مراتـب الأنبيـاء، وتبقـى الزيـادةُ التـي للأنبيـاء وفـيهم إبـراهيم لمحمـد صـلى الله عليهمـا وسـلم، فيحصل له من المزيَّةِ ما لم يحصل لغيره.

وأحسـنُ مـن هـذا: أنَّ النبـي محمـدًا ﷺ مـن آل إبـراهيم، فيكـونُ قولنـا: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**» مُتناولًا الصـلاة عليـه وعلـى سـائر النبيين مـن ذرية إبراهيم، بل هو مُتناول لإبراهيم أيضًا، كما في قولـه تعـالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمـران] فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران...[(٢)].

هل يجوز الصلاة على غير الأنبياء؟

أجمَع العُلماءُ على جـواز الصـلاة علـى غيـر الأنبيـاء علـى سـبيل التبعيـةِ، لحـديث أبـي حُمَيْـدٍ السَّـاعِدِيّ، وفيـه أنهـم قـالوا: يـا رَسُـولَ الله، كَيْـفَ نُصَـلِّي عَلَيْكَ؟ فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قُولُوا: اللَّهُـمَّ صَـلِّ عَلَـى مُحَمَّـدٍ وَأَزْوَاجِـهِ وَذُرِّيَّتِـهِ،**

(١) راجع: أحكام القرآن (٣/ ٦٧٩-٦٨٠).

(٢) شـرح الطحاويـة (ص: ٢٧٦)، وانظـر: جـلاء الأفهـام لابـن القـيم (ص:١٥٦-١٧٠) فإنه مهم.

كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(١).

وتنازع العُلماءُ في الصلاة على غير الأنبياء استقلالًا، فذهب الأكثرون إلى الكراهة، قالوا: هذا النوع مأخُوذ من التوقيف واستعمال السلف، ولم يُنقل استعمالهم ذلك، بل خصوا به الأنبياء. وهذا مذهبُ مالك والشافعي(٢) وأبي حنيفة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وغيرهم.

وقال آخرون: يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة عليهم استقلالًا، وحُجتهم قول الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ**»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ**(٣) **أَبِي أَوْفَى**(٤)». وهذا مذهب أحمد وجماعة(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٩) ومسلم (٤٠٧).

(٢) أصحابُ الشافعي لهم ثلاثة أوجه: أنه مَنعُ تحريم، أو كراهة تنزيه، أو من باب ترك الأوْلى، وليس بمكروه، حكاها النووي في الأذكار – غذاء الألباب للسفاريني (١/ ٢٤).

(٣) قوله: «**على آل أبي أوفى**»: يُريد أبا أوفى نفسه؛ لأنّ الآلَ يُطلق على ذاتِ الشيء، كقوله في قصة أبي مُوسى: «**لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود**».
وقيل: لا يُقال ذلك إلا في حَق الرجُل الجليل القدْر. فتح الباري (٣/ ٤٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨).

(٥) انظر: شرح مُسلم للنووي (٢/ ٣٦٣)، والفتح (٣/ ٤٢٣)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٤)، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني (١/ ٢٣-٢٤).

الترغيبُ في الصلاة على النبي ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بها عَشْرًا»(١).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»(٢).

وعن عَبدِ الله بن مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»(٣).

الأوقات التي يُستحَبُّ فيها الصلاة على النبي ﷺ:

١ - عند الدعاء:

لحديث فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمع رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمجد الله ولَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»(٤).

٢ - في التشهد:

من المواضع التي أمرنا أن نصلي فيها على نبينا ﷺ التشهد، مع اختلاف العُلماء في حُكم الصلاة عليه في التشهد الأخير، هل هي واجبة أم مُستحبة؟ وهذا النزاع محله كتب الفقه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٣٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٤١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٨)، وأبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٦، ٣٤٧٧) وغيرهم.

٣- بعد النداء للصلاة:

لحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ؛ أنه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»(١).

٤- الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة:

فإنَّ السُّنة أنْ يَقرأ في التكبيرةِ الأولى فاتحةَ الكتابِ، وفي الثانيةِ أنْ يُصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثةِ يَدعو للميت، وفي الرابعة يَقولُ: «**اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ**»(٢) قاله ابن كثير(٣).

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ السُّنَّةَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجِنَازَةِ أَنْ يُكَبِّرَ الإِمَامُ، ثُمَّ يَقْرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الأُولَى سِرًّا فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُخْلِصُ الدُّعَاءَ لِلْجِنَازَةِ فِي التَّكْبِيرَاتِ، لا يَقْرَأُ فِي شَيْءٍ مِنْهُنَّ، ثُمَّ يُسَلِّمُ سِرًّا فِي نَفْسِهِ(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٢٠١)، والترمذي (١٠٢٤)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٣).

(٤) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ٢٣٩-٢٤٠)، والحاكم (١/ ٣٦٠)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٩، ٤٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٨٦٨)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٠٠٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٧٣٤).

٥- الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة:

عن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثقفيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»(١).

وعَنْ أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»(٢).

٦- عند دخول المسجد والخروج منه:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(٣).

عَن فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨) وأبو داود (١٠٤٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٥١٦)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والدارمي (١/ ٣٦٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٢٧).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٥٩٩٤)، وفضائل الأوقات (٢٧٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٠٧)، وصحيح الجامع (١٢٠٩).

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٠)، وابن ماجه (٧٧٣)، وابن خزيمة (٤٥٢، ٢٧٠٦)، والحاكم (١/ ٢٠٧)، والبيهقي (٢/ ٤٤٢)، وابن حبان (٢٠٤٧، ٢٠٥٠)، وصحيح الجامع (٥١٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٨٢، ٢٨٣)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٣٨) =

الترهيب من ترك الصلاة على رسول الله ﷺ عند سماع اسمه:

عَنْ عَليّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «**الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[(١)].

وعَنْ أبي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[(٢)].

قوله: «والسَّلام»:

المعنى في اللغة: سلم: السَّلْمُ والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، قال: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء] متعرٍ من الدَّغل[(٣)]، فهذا في الباطن. وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١] فهذا في الظاهر. وقد سَلِمَ يَسْلَمُ سلامةً وسلامًا وسَلَّمهُ الله، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣]، قال: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر] أي: سلامة[(٤)].

=

و(١٠/ ٤٠٥)، والترمذي (٣١٤)، وابن ماجه (٧٧١)، وأبو يعلى (٦٨٢٢، ٦٨٢٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٨١) وغيرهم. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧١٤، ٤٧١٦).

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٦)، وأحمد (١/ ٢٠١)، وصححه الألباني في الإرواء (٥)، وصحيح الجامع (٥٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، وابن حبان (٩٠٨)، والحاكم (١/ ٥٤٩)، والبغوي في شرح السنة (٦٨٩)، وصححه الألباني في الإرواء (٦)، والمشكاة (٩٢٧)، وصحيح الجامع (٣٥١٠).

(٣) الدغل: الريبة والوشاية.

(٤) المفردات للراغب (ص: ٢٦٣) مادة (سلم).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حقيقةُ هذه اللفظة.. البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها [(١)].

وقد أحسن المؤلف إذ جمع بين الصلاة والسلام علي النبي ﷺ امتثالًا لقول الله تعالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقل: «صلى الله عليه» فقط، ولا «عليه السلام» فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب]، فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم تسليمًا[(٢)].

ما الحكمة في تأكيد السلام على النبي ﷺ دون الصلاة عليه؟

قال جَلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

ما الحكمةُ في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه في قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾؟

فجوابه: أنَّ التأكيدَ واقعٌ على الصلاة والسلام، وإنْ اختلفت جهة التأكيد، فإنه سُبحانه أخبر في أوَّل الآية بصلاته عليه وصلاة ملائكته عليه مُؤكدًا لهذا الإخبار بحرف «إن» مخبرًا عن الملائكة بصيغة الجمْع

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١١٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٥).

المضاف إليه، وهذا يُفيدُ العُمومَ والاستغراق.

فإذا استشعرت النفوسُ أنّ شأنه ﷺ عند الله وعند الملائكة هذا الشأن بادرت إلى الصلاة عليه، وإنْ لم تُؤمَر بها، بل يَكفي تنبيهُها والإشارةُ إليها بأدنى إشارة، فإذا أمرت بها لم تحتج إلى تأكيد الأمر، بل إذا جاء مُطلقُ الأمر بادَرَت وسارَعت إلى مُوافقة الله وملائكته في الصلاة عليه- صلوات الله وسلامه عليه- فلم يحتج إلى تأكيد الفعل بالمصدر.

ولما خلا السلام عن هذا المعنى، وجاء في حيز الأمر دون الخبر حَسُنَ تأكيده بالمصدر؛ ليدل على تحقيق المعنى وتثبيته.

ويقوم تأكيدُ الفعل مقام تكريره، كما حَصل في التكرير في الصلاة خبراً وطلبًا؛ فكذلك حصل التكرير في الصلاة فعلًا ومصدرًا، فتأمله؛ فإنه بديعٌ جدًّا... والله أعلم[١].

نُكتةٌ بديعةٌ:

ما الحكمةُ من إفراد السلام والرحمة، وجمع البركة؟

الجوابُ: أنَّ السلامَ إما مصدر محض، فهو شيء واحد، فلا معنى لجمعه، وإما اسم من أسماء الله تعالى فيستحيل أيضًا جمعه، فعلى التقديرين لا سبيلَ إلى جمعه.

وأما الرحمة: فمَصدرٌ أيضًا، بمعنى العطف والحنان، فلا تجمَعُ أيضًا، والتاء فيها بمنزلتها في الخلة والمحبة والرقة، ليست للتحديد، بمنزلتها في ضـرْبة وتمرة، فكما لا يُقالُ: رقات، ولا خلات، ولا رأفات، لا يُقالُ:

(١) البدائع (٢/ ١٦١-١٦٢).

رَحَمات، وهنا دخُول الجمْع يُشعر بالتحديد والتقييد بعَدَد، وإفراده يُشعر بالمسمّى مطلقًا من غير تحديد، فالإفرادُ أكمل معنى من الجمع، وهذا بديعٌ جدًّا أنْ يكون مَدلولُ المفرد أكثرَ من مدلول الجمع.

ولهذا كان قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أعم وأتم من أن يقال: فلله الحجَج البوالغ، وكان قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ...﴾ ونظائره كثيرة جدًّا.

وأما البركة: فإنها لما كان مُسمّاها كثرة الخير واستمراره شيئًا بعد شيء، كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر، فهو خيرٌ مُستمر يتعاقب الإفراد على الدوام شيئًا بعد شيء، كان لفظُ الجمع أولى بها؛ لدلالتها على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة.

وكذلك في السلام في التشهد: (**السَّلامُ عليك أيها النبي ورَحمة الله وبَركاته**)[1].

قوله: «سرْمَدًا»:

يعني: أبدًا، فالمعنى في الجملة: الصلاة والسلام على النبي ﷺ صلاة وسَلامًا دائمين مُستمرين، لا ينقطعان أبدًا.

وقوله «على النبي»:

معنى النبي لغة: قال الفرَّاءُ: النبيُّ: هو من أنبأ عن الله، فتُرِك همزه. قال: وإن أُخذَ من النَّبوةِ والنَّباوة، وهي الارتفاع عن الأرض، أي إنه أشرف على

---

(١) المصدر السابق.

سائر الخلق، فأصله غير الهمز [(١)].

قال الزجاجُ رَحِمَهُ اللَّهُ: القراءةُ المجمَع عليها في النبيين والأنبياء طرح الهمز، وقد همز جماعة من أهل المدينة جميع ما في القرآن من هذا، واشتقاقه من نَبأ وأَنْبَأ، أي: أخبر. قال: والأجود ترك الهمز[(٢)].

قال الراغبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فالنبيُّ بغير الهمزِ أبلغ من النبيءِ بالهمز، لأنه ليس كل مُنبَّأ رفيع القدر والمحل[(٣)].

وقوله «المصطفى»:

المصطفى: مأخُوذ من الصفوة.

وصفوةُ كلَّ شيءٍ: خالصُه... والاصطفاءُ: الاختيار، افتعالٌ من الصفوة، ومنه النبيُّ ﷺ صفوةُ اللهِ من خلقه ومُصطفاهُ[(٤)].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥] وغيرها من الآيات التي جاء فيها الاصطفاء من الله تعالى لبعض خلقه.

وفي صحيح مسلم، عن وَاثِلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[(٥)].

---

(١) لسان العرب (٨/ ٤٢١) مادة (نبأ).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المفردات (ص: ٥٣٤).

(٤) اللسان (٥/ ٣٦٠، ٣٦١) باختصار.

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

من أدلة اصطفاء الله تعالى للنبي ﷺ من الكتاب والسنة:

الأدلةُ على اصطفاء الله جل وعلا للنبي ﷺ كثيرة جدًّا، نذكر منها:

قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

قال السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ: قد علم أنَّ محمدًا ﷺ هو خاتمهم، فكُلُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجَب عليهم الإيمانُ به واتباعه ونُصرته، وكان هو إمامهم ومُقدمهم ومتبوعهم. فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على عُلو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ، لما قرَّرهم تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الرأس والعين[1]. انتهى.

اصطفاه تبارك وتعالى بأنْ أنزل عليه القرآن، وهو الكتابُ المهيمن على جميع الكتب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

إمامته ﷺ الأنبياء ليلة الإسراء والمعراج[2]:

لم يُقسِم الله تبارك وتعالى بحياة أحَد قط، إلا بحياة النبي ﷺ، قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٣٢).

(٢) انظر: صحيح مسلم (١٧٢).

خاطب الله تعالى جميع الأنبياء بأسمائهم، إلا نبينا ﷺ:

قال سُبحانه: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: ١٢]، أما نبينا ﷺ فقال الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر]، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧]. فخاطبه بأعظم الصفات، ولم يخاطبه باسمه مجردًا إلا ليعلم من جحد أمره أنه النبي ﷺ.

قال أبو نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن فضائله ﷺ: إخبارُ الله عز وجل عن إجلال قدر نبيه ﷺ وتبجيله وتعظيمه، وذلك أنه ما خاطبه في كتابه ولا أخبر عنه إلا بالكناية التي هي النبوة والرسالة، التي لا أجلَّ منها فخرًا ولا أعظمَ خَطرًا، وخاطب غيره من الأنبياء وقومهم وأخبر عنهم بأسمائهم... إلى أن قال: فكل موضوع ذكر محمدًا – عليه السلام- باسمه أضاف إليه ذكر الرسالة، فقال عز من قائل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [محمد: ٢].

فسمّاه ليعلم مَن جَحده أن أمره وكتابه هو الحق، ولأنهم لم يعرفوه إلا بمحَمد، ولو لم يُسمه لم يُعلم اسمه من الكتاب، وكذلك سائر الأنبياء لو لم يُسموا في الكتاب ما عُرفت أساميهم، كتسمية الله له محمدًا، وذلك كله زيادة في جلالته ونبالته ونباهته وشرفه(١).

هل المصطفى من أسماء النبي ﷺ؟ وما هي أسماء النبي ﷺ؟

المصطفى: صفة لرسول الله ﷺ كما تقدم، أما أسمائه فهي كما جاءت في حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي**(٢)**، وَأَنَا العَاقِبُ**»(٣).

وفي رواية: «**وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نبي**»(٤).

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي**(٥)**، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»(٦).

---

(١) دلائل النبوة (ص: ٤٦-٤٨) باختصار.

(٢) يتقدم عليه الصلاة والسلام يوم المحشر، ويحشر الناسُ على أثره.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه مسلم (١٢٥/ ٢٣٥٤).

(٥) المقفي: قال شمر: بمعنى العاقب، وقال ابن العربي: هو المتبع للأنبياء يقال: قفوته أقفوه وقفيته أقفيه إذا اتبعه، وقافية كل شيء: آخره. - مسلم بشرح النووي (٨/ ١١٧).

(٦) أخرجه مسلم (١٢٦/ ٢٣٥٥).

أما إذا أردنا أنْ نذكر النبي ﷺ فنقول: قالَ رَسُول الله ﷺ، أو قال النبي ﷺ، هكذا كان يقول الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، وارجع إلى كتب الحديث، فلن تجد صحابيًّا من رواة الحديث يقول غير ذلك، وهُم بلا شكٍّ أشَد حُبًّا وتوقيرًا وحرصًا على الاتباع من غيرهم، فلا ينبغي العُدولُ عن قولهم- رضوان الله عليهم-.

مسألة: هل بين النبي والرسول مغايرة، وهل بينهما فرق؟

معنى الرسول لغة: رسل: أصلُ الرَّسْلِ الانبعاث على التّؤدة. ويُقال: ناقة رِسْلَةٌ سَهلةُ السير.. ومنه الرسُولُ المنبعثُ.. وجمع الرسول: رُسُلُ، ورُسَلُ اللهِ تارةٍ يُرادُ بها الملائكة، وتارةً يُرادُ بها الأنبياء. فمن: الملائكة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ [الحاقة] ومن الأنبياء قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤][1].

ذهب جماهير العلماء إلى المغايرة بين النبي والرسول، ومن أظهر ما استدلوا به قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [الحج].

واختلفوا في تحديد الفرق بين النبي والرسول اختلافًا كثيرًا، وهذه مسألة من مسائل الاجتهاد، وإليك نقل أقوالهم في ذلك.

قول القرطبي رحمه الله: قال العلماء: إن هذه الآية مشكلة من جهتين: إحداهما: أن قومًا يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم

(١) المفردات (ص: ٢١٦).

غير مرسلين. وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبي حتى يكون مرسلًا، والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فأوجب للنبي ﷺ الرسالة. وأن معنى «نبي» أنبأ عن الله عز وجل، ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه.

وقال الفراء: الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانًا، والنبي الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا.

قال المهدوي: وهذا هو الصحيح، أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا. وكذا ذكر القاضي عياض في كتاب «الشفا» قال: والصحيح والذي عليه الجم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا، واحتج بحديث أبي ذر، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ[1][2].

---

(١) عن أبي ذر عن النبي ﷺ: «**أن آدم كان نبيًّا مكلَّمًا**»، رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٥)، والبخاري في تاريخه (١/ ٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٦٥)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦) وغيرهم.
وعن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ قال: «**كان آدم نبيًّا مكلمًا، وكان بينه و بين نوح عشرة قرون، وكانت الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر**» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٠٨٥)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٤)، وفي الكبير(٨/ ١٣٩-١٤٠)، والحاكم (٢/ ٢٦٢) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٣٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٨٦).

قال البغوي رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ﴾ وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا، ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾، وهو الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا[1].

«وعطف ﴿نَبِيٍّ﴾ على ﴿رَّسُولٖ﴾ يدل على المغايرة بينهما وهو الشائع، واختلفوا في تفسير كل منهما، فقيل: الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى بشرع جديد، يدعو الناس إليه، والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام.

وقيل الرسول ذكر حر بعثه الله إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم، وإن لم يكن جديدًا في نفسه، كإسماعيل عليه السلام، إذ بعث لجرهم أولًا، والنبي يعمه ومن بعث بشرع غير جديد كذلك......

وقيل: من يأتيه الملك عليه السلام بالوحي يقظة، والنبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام لا غير. وهذا أغرب الأقوال ويقتضي أن بعض الأنبياء عليهم السلام لم يوح إليه إلا منامًا، وهو بعيد ولا يقال بالرأي.

وأنت تعلم أن المشهور أن النبي في عرف الشرع أعم من الرسول، فإنه من أوحي إليه، سواء أمر بالتبليغ أم لا، والرسول من أوحي إليه وأمر بالتبليغ، ولا يصح إرادة ذلك؛ لأنه إذا قوبل العام بالخاص يراد بالعام ما عدا الخاص، فمتى أريد بالنبي ما عدا الرسول كان المراد به من لم يؤمر بالتبليغ، وحيث تعلق به الإرسال صار مأمورًا بالتبليغ فيكون رسولًا، فلم يبق في الآية بعد تعلق الإرسال رسولٌ ولا نبيٌّ مقابل له فلا بد لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٤٧)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٦).

بعث بشرع جديد وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله أو يراد بالرسول من بعث بكتاب وبالنبي من بعث بغير كتاب أو يراد نحو ذلك مما يحصل به المقابلة مع تعلق الإرسال بهما»(١).

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى مَن خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول.

وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة؛ فهو نبي، وليس برسول.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالًا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى مَن خالف الله؛ كنوح، وقد ثبت في الصحيح: «أَنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»(٢).

وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام(٣)، وقبلهما آدم

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٧/ ١٧٢ - ١٧٣) باختصار، مع العلم أن للعلماء مآخذ على تفسيره.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤/ ٣٢٧) من حديث أبي هُرَيْرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الطويل الذي يتحدث فيه عن الشفاعة للرسُول، وفيه: «**فَيَأْتُونَ نُوْحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ**..».

(٣) قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الدليلُ أنّ نوحًا أوَّلُ الرسُل: قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] يعني: وحيًا كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده، وهو وحي الرسالة، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد: ٢٦] أي ذرية نوح وإبراهيم، والذي قبل

وكان نبيًّا مُكلمًا[١].

قال ابنُ عباس رَحِمَهُ اللَّهُ: كان بين آدم ونوح عشرة قُرون، كلهم على الإسلام[٢].

فأولئك الأنبياء يأتيهم وَحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مُؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلّغه العلماء عن الرسول وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يُوحَى إلى أحدهم وحي خاص في قضيةٍ مُعينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يُفهّمُهُ الله في قضية معنى يُطابق القرآن، كما فهَّم

=

نوح لا يكونُ من ذريته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات] قد نقول: إنَّ قوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يدُلُّ على ما سبق.. وساق الحديث المتقدم، ثم قال: وأما آدم عليه السلام فهو نبي وليس برسول، وأما إدريس فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا إلى أنه كان قبل نوح، وأنه من أجداده، لكن هذا القول ضعيفٌ جدًّا، والقرآن والسنة ترده- شرح العقيدة الواسطية (١/ ٥٦، ٥٧) وشرح الأصول الثلاثة (ص: ١٠٣).

وقد رجح القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٢)، ومن قبله ابن العربي كما في تفسير القرطبي (٧/ ١٤٨) أن إدريس بعد نوح على الصحيح، قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن قال إدريس كان قبله من المؤرخين فقد وهم - أحكام القرآن (٢/ ٣١٥).

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٩٩)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، وابن حبان (٦١٩٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥١٧)، والطبراني في الكبير (٧٥٤٥) وغيرهم، والألباني في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤٠٤٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٤٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٦، ٥٤٧).

الله سليمان حُكم القضية التي حُكم فيها هو وداود[١].

فالأنبياء يُنبئهم الله، فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي.

فإنْ أرسِلوا إلى كُفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ولا بُد أن يُكذّب الرسلَ قومٌ.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات]، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، فإنّ الرسلَ تُرسَل إلى مخالفين فيُكذبهم بعضهم.

فقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] دليلٌ على أنّ النبي مُرسَل، ولا يُسمّى رَسُولًا عند الإطلاق؛ لأنه لم يُرسَل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حَق كالعالم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»[٢].

وليس من شَرط الرَّسُول أنْ يأتي بشريعةٍ جديدة، فإنَّ يوسفَ عليه السلام كان رسُولًا وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسُولين، وكانا على شريعة التوراة.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾، [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (١/ ٩٨)، وابن حبان (٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٠)، والمشكاة (٢١٢).

قال تعالى في مُؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء][(١)].

وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام هو ما أرجحه، فهو أقرب الأقوال إلى الصواب، والله أعلم.

وقوله: «كنز الهدى»:

والمقصودُ بكنز الهدى: هو النبي ﷺ.

الكنز في اللغة: جمعُ المال بعضه على بعض وادخاره. وقيل: المالُ المدفون[(٢)].

فالنبي ﷺ أغلى من كنوز الأرض جميعًا؛ لأنه كنز الهدى، والهدى أعلى من الدنيا وما فيها، فالدنيا زائلة، والآخرة دار السعادة الأبدية لمن اهتدى، والذي جاء بالهدى هو نبينا ﷺ؛ فهو هداية للعالمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

---

(١) النبوات (ص: ٢٤٢-٢٤٤) باختصار.

(٢) التوقيف على مهمات التعريف (ص:٢٨٤).

وهذه الآية لا تَعارُض بينها وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص] لأنَّ الهداية تنقسم إلى قسمين:-

أولًا: هداية الدلالة والإرشاد: أي إرشاد الخلق إلى الحق واتباع الصراط المستقيم، وهي وظيفةُ الأنبياء والرسل، والمسلمين من بعدهم، كُلٌّ بحسب استطاعته.

قال الله جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران].

ثانيًا: هداية التوفيق: أنْ يعملَ العبدُ بما علم، وهذه ليست لأحدٍ من البشر، وإنما هي بيد الله سبحانه، وهي التي نفاها الله تعالى عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص:٥٦].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فالله سبحانه وتعالى أعلم بمن يَستحقُ الهداية ممن يَستحقُ الغواية.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر جَلّ وعَلا في هذه الآية الكريمة أنَّ نبيه ﷺ لا يَهدي مَن أحَبَّ هدايته، ولكنه جَلَّ وعلا هو الذي يَهدي مَن يشاء هُداه، وهو أعلمُ بالمهتدين.

وهذا المعنى الذي دلَّت عليه هذه الآية جاء مُوضَّحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ [النحل: ٣٧].

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم]. جاء معناه موضحًا في آيات كثيرة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل].

والآيات مثل ذلك كثيرة، وقد أوضحنا سابقًا أنَّ الهدى المنفي عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ هو هُدى التوفيق؛ لأنَّ التوفيقَ بيد الله وحده، وأنَّ الهدى المثبت له ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى] هو هُدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه، ونزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ في أبي طالب مشهور معروف[(١)].

(١) أضواء البيان (٦/ ١٥٣-١٥٤)، وانظر الحديث في البخاري (١٣٦٠، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥ - وَآلِـــهِ وَصَـــحْبِهِ الأَبْـــرار   مَعَـــادِنِ التقْـــوَى مَـــعَ الأَسْـــرارِ

الشرح

الآل لغة: قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: آل الرجل أهل بيته؛ لأنه إليه مآلهم، وإليهم مآله، وهذا معنى قولهم: يا آل فلان [١].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وآل الرجل: أهله وعياله، وآله أيضًا أتباعه[٢].

قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وآل الرجل: أهله، وآل الله ورسوله: أولياؤه، أصلها أهل، ثم أبدلت الهاء همزة، فصار في التقدير أأهل، فلما توالت الهمزتان أبدلت الثانية ألفًا [٣].

قال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو جمعٌ في المعنى، فردٌ في اللفظ، يُطلق بالاشتراك اللفظي على ثلاثة معانٍ:-

أحدها: الجندُ والأتباع، نحو: «آل فرعون».

الثاني: النفس[٤]، نحو: آل موسى - وآل هارون - وآل نوح.

الثالث: أهلُ البيت خاصة، نحو: آل محمد [٥].

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ٦١).

(٢) الصحاح (٤/ ١٦٢٧ - ١٦٢٨).

(٣) لسان العرب (١/ ٣١) مادة (أهل).

(٤) قال ابنُ حجر: الآلُ: يُطلق على ذات الشيء؛ كقوله ﷺ في قصة أبي موسى: «**لَقَدْ أُوتيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**». وقيل: لا يُقالُ ذلك إلا في حَق الرجل الجليل. الفتح (٣/ ٤٢٣).

(٥) الكليات (١٤٢).

وأما اصطلاحًا: فقد اختلف العُلماءُ في آل محمد ﷺ على ثلاثة أقوال:-

القولُ الأول: هم الذين حَرُمت عليهم الصدقة، وحُجّتهم في ذلك قول رَسُول الله ﷺ لعَبْدِ الْمُطَّلِب بْن رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، وَالْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، ادْعُوَا لِي مَحْمِيَةَ - وَكَانَ عَلَى الْخُمُسِ - وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**» قَالَ: فَجَاءَاهُ، فَقَالَ لِمَحْمِيَةَ: «**أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ ابْنَتَكَ**» لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَأَنْكَحَهُ، وَقَالَ لِنَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ: «**أَنْكِحْ هَذَا الْغُلَامَ ابْنَتَكَ**» لِي، فَأَنْكَحَنِي وَقَالَ لِمَحْمِيَةَ: «**أَصْدِقْ عَنْهُمَا مِنَ الْخُمُسِ كَذَا، وَكَذَا**»(١).

وقال ﷺ للحسن بن علي: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ**»(٢).

واختلف في الذين حَرُمَت عليهم الصدقة:-

فقالت طائفة: هم بنو هاشم، وبنو المطلب، وهذا مذهبُ الشافعي، وأحمد في رواية عنه.

وقالت طائفة: هم بنو هاشم خاصة، وهذا مذهبُ أبي حنيفة، ورواية عن أحمد.

وقال آخرون: هم بنو هاشم ومَن فوقهم إلى غالب، فيدخل فيهم بنو المطلب، وبنو أمية، وبنو نوفل، ومَن فوقهم إلى غالب، وهذا اختيارُ أشهَب من أصحاب مالك(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٧/ ١٠٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨٥).

(٣) انظر: جلاء الأفهام لابن القيم (١١٩)، وقول المالكية حكاه الباجي في المنتقى

القولُ الثاني: أنَّ آل النبي ﷺ هم ذُريته وأزواجه خاصة، وحُجتهم حديث أَبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ المتقدم، وهو حَديثٌ صحيحٌ، وفيه: «... **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**»(١).

واحتجوا أيضًا: بما في الصحيحين، من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»(٢).

ومعلومٌ أنَّ هذه الدَّعوةَ المستجابة لم تنل كُل بني هاشم ولا بني عبد المطلب؛ فقد قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها: «**مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ** ﷺ **مِنْ خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّام حَتَّى لَحِقَ بِاللهِ عَزّ وجَل**»(٣)(٤).

القولُ الثالث: أنّ آلَ محمد ﷺ أتباعه إلى يوم القيامة، حكاه ابنُ عبد البر عن بعض أهل العلم، وأقْدَم مَن رُوي عنه هذا القول جابر بن عبد الله، ذكره البيهقي عنه، ورواه عن سفيان الثوري، وغيره، واختاره بعض أصحاب الشافعي، حكاه عنه أبو الطيب الطبري في تعليقه، ورَجَّحه الشيخُ محيي الدين النووي في شَرح مُسلم، واختاره الأزهري(٥).

= شرح الموطأ للإمام مالك (٢/ ١٥٣)، عن ابن القاسم وأشهب وأصبغ من المالكية.

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٣٨)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٤) جلاء الأفهام (ص: ١٢٢)، والمجموع (٧/ ٤٦٦).

(٥) انظر: شرح النووي على مُسلم (٢/ ٣٦١)، وجلاء الأفهام (ص: ١١٩، ١٢٠)، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني (١/ ١٩)، والإنصاف (٢/ ٧٩)، =

وهو قولُ مالك[١]، والحكمي [٢]. انتهى.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

والمراد جميع أتباعه، وبقوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر]، فالمراد أتباعه المؤمنون به من أقاربه وغيرهم.

وبحديث وَاثِلَةَ بن الأَسْقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ دَعَا حَسَنًا وَحُسَيْنًا فَأَجْلَسَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى فَخِذِهِ، وَأَدْنَى فَاطِمَةَ رضي الله عنها مِنْ حِجْرِهِ وَزَوْجَهَا، ثُمَّ لَفَّ عَلَيْهِمْ ثَوْبَهُ ثم قَالَ: «**اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي**»، قَالَ وَاثِلَةُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنَا مِنْ أَهْلِكَ؟ قَالَ: «**وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِي**»[٣].

والراجحُ عندي ما قاله ابن عثيمين رحمه الله: إنّ الآل إنْ قُرنت بالأتباع فالمرادُ بها المؤمنون من قرابته، وذلك مثل أنْ نقول: وآله وأتباعه؛ ولأنّ العطفَ يقتضي المغايرة.

وإذا ذُكرت وحدها ولم تُقرن بالأتباع فالمرادُ بآله أتباعه على دينه، ويشمل المؤمنين من قرابته. وهذا هو أصح ما قيل في الآل.

=

ولوامع الأنوار البهية (١/ ٥٠).

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٦٧٨، ٦٧٩).

(٢) معارج القبول (١/ ٧٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٧)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٧٢-٧٣)، وابن حبان (٦٩٧٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٧٧٣)، والحاكم (٢/ ٤١٦) (٣/ ١٧٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٦٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ١٥٢)، وصححه البيهقي والحاكم على شرط الشيخين، والذهبي وقال: على شرط مسلم، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٦٩٣٧).

وفي التشهد نقول: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ**». فالمرادُ بالآل هنا: أتباعه على دينه، لأنه لم يُذكر الأتباع. ولكن إذا قلنا: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه ومَن تبعهم بإحسان؛ صار المرادُ بالآل المؤمنين من قرابته.

هل زوجات النبي ﷺ يدخُلن في آله؟

نعم، وحَديث أبي حُميد السَّاعدي المتقدّم صحيحٌ وصريحٌ في ذلك، وفيه: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[(١)].

وقد ذكرتُ أدلة ذلك من الكتاب والسنة وأقوال أكابر الأئمة في كتابي «قدر الصحابة عند الله العظيم».

وقوله: «وصحبه»:

صحبه: جمع صاحب.

والصاحبُ لغة: الملازمُ؛ إنسانًا أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا فرق بين كون مُصاحبته بالبدن وهو الأصل، أو بالعناية والهمَّة. ولا يُقال عُرفًا إلا لمن كثُرت مُلازمته. ويُقال لمالك الشيء: صاحبه[(٢)].

واصطلاحًا: هم أصحابُ رسُول الله ﷺ.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصَّحِيحَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ رَأَى

---

(١) **متفق عليه**: تقدم تخريجه.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢١١).

النَّبِيَّ ﷺ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ[١].

وإلى هذا ذهب الإمام البخاري وشيخه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وقد عزا الحافظ ابن حجر هذا القول إلى الجمهور من المحدثين.

قال الحافظ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ: وأصحّ ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابيّ: من لقي النبيّ ﷺ مؤمنًا به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه مَن طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه،... ويخرج بقيد «الإيمان» من لقيه كافرًا ولو أسلم بعد ذلك إذا لم يجتمع به مرة أخرى.

ويدخل في قولنا: «مؤمنًا به» كلّ مكلف من الجن والإنس، فحينئذ يتعيّن ذكر من حفظ ذكره من الجن الذين آمنوا به بالشرط المذكور. وأما إنكار ابن الأثير على أبي موسى تخريجه لبعض الجن الذين عرفوا في كتاب الصحابة فليس بمنكر لما ذكرته.

وخرج بقولنا: «ومات على الإسلام» من لقيه مؤمنًا به ثم ارتدّ، ومات على ردّته والعياذ بالله. وقد وجدت من ذلك عددًا يسيرًا؛ كعبيد الله بن جحش الذي كان زوج أم حبيبة، فإنه أسلم معها، وهاجر معها إلى الحبشة، فتنصّر هو ومات على نصرانيته. وكعبد الله بن خطل الذي قتل وهو متعلّق بأستار الكعبة، وكربيعة بن أميّة بن خلف.

ويدخل فيه من ارتدّ وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت، سواء اجتمع به ﷺ مرة أخرى أم لا، وهذا هو الصحيح المعتمد.

---

(١) شرح النووي على مسلم (٨/ ٣٢٦).

والشـقّ الأول لا خـلاف في دخولـه. وأبـدى بعضـهـم في الشـق الثـاني احتمالًا، وهو مردود لإطباق أهل الحديث على عدّ الأشعث بن قيس في الصحابة، وعلى تخريج أحاديثه في الصحاح والمسانيد، وهو ممن ارتدّ ثم عاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر.

وهذا التعريف مبنيّ على الأصح المختار عند المحققين؛ كالبخاري، وأحمد بن حنبل، ومن تبعهما، ووراء ذلك أقوال أخرى شاذّة...»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: إنَّ اسمَ صُحبة النبي ﷺ مُستَحَق لمن صحبه أقل ما يُطلق عليه اسم صُحبة لغة، وإنْ كان العُرفُ يخص ذلك ببعض الملازمة، ويُطلق على مَن رآه رؤية ولو على بُعد، وهذا الذي ذكره البخاري هو الراجح.

إلا أنه هل يُشترط في الرائي أنْ يكُون بحيث يميز ما رآه، أو يكتفي بمجرد حُصول الرؤية؟ محلُ نظر، وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام، كما ثبت في الصحيح.

ويَردُ على التعريف مَن صحبه أو رآه مُؤمنًا به ثم ارتد بعد ذلك ولم يعُد إلى الإسلام، فإنه ليس صحابيًّا اتفاقًا[(٢)].

وقوله «الأبرار»:

البر لغة: الصدقُ والطاعة.

وفي التنزيـل: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ

---

(١) الإصابة (١/ ٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٦).

مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال شَمرٌ: اختلف العُلماءُ في تفسير البرِّ، فقال بعضهم: البرُّ الصلاح. وقال بعضهم: البر الخير[(١)].

قال ابنُ منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا أعلمُ تفسيرًا أجمع منه؛ لأنه يُحيط بجميع ما قالوا[(٢)].

ولا شَكَّ أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ اجتمعت فيهم جميعُ خصال البر، فهم أفضلُ البشر بعد الأنبياء- عليهم السلام، وسيأتي بيانُ قدْر الصحابة من الكتاب والسنة في موضعه بإذن الله.

وقوله: «معادن»:

معادن: جمعُ معدن... وَعَدَن فُلانٌ بالمكان يَعْدِنُ، ويَعْدُنُ عَدْنًا وعُدُونًا: أقام.. وجناتُ عَدْن منه: أي جنات إقامة لمكان الخُلد.

ومعدن كُل شيء من ذلك، ومعدنُ الذهب والفضة، سُمِّي معدنًا لإنبات الله فيه جوهرهما وإثباته إياه في الأرض حتى عَدَن، أي ثبت[(٣)].

وقوله: «التقوى»:

الوقاية: حفظ الشيء مما يُؤذيه ويَضُرُّه، يقال: وقيتُ الشيء أَقِيه وقايةً ووقاء، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ١١]، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾ [الدخان].

---

(١) اللسان (١/ ٣٨٠).
(٢) المصدر السابق.
(٣) اللسان (٦/ ١٢٩) مادة (عدن).

والتقوى: جعلُ النفسِ في وقاية مما يُخَاف، هذا تحقيقه[١].

فالتقوى اسم شامل لفعل الخيرات وترك المنكرات، باطنًا وظاهرًا، امتثالًا لأمر الله جل في علاه.

قوله: «الأسرار»:

جمعُ سر، والمرادُ به هنا: الاطلاعُ على خفايا العُلوم والمناهج.

والمناهجُ: يعني السُّبلُ والطُرقُ والأخلاقُ التي يتخلقون بها، فلا أحَد أعمَق علمًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا أحَدَ أقل تكلفًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فعلمُ السَّلف رحمهم الله -وخُصوصًا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وخاصةً الخلفاء الراشدين- تجده سَهلًا بيِّنًا واضحًا. قاله ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمعنى إجمالًا: أنَّ الصحابة معادنُ التقوى مع الأسرار، يعني: معادنُ الخير، ومنبعُ الخير، وهم أفضلُ هذه الأمة، وهم مُستقرُّ التقوى، وهم أشدُّ الناس اتقاءً لله وطاعةً له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا شَكَّ أنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أعمَقَ الناس أسرارًا، وأبرَّهم قُلوبًا، قاله الفوزان حفظه الله.

---

(١) المفردات (ص: ٥٨٨).

قال صاحب المنظومة رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦ - وَبَعْـدُ فـاعْلَمْ أَنَّ كُـلَّ الْعِلْـمِ   كـالْفَرْعِ لِلتَّوْحِيـدِ فاسْـمَعْ نَظْمِـي

الشرح

أي: وبعد ما تقدَّم من حـمد الله والصلاة والسلام على رَسُول الله ﷺ وعلى آله وصَحبه، بدأ في موضوع النظم، وهو علمُ التوحيد.

قوله «فاعلم»:

كلمةٌ تُستعمَل لبيان أهمية ما سيُقال، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

وقال سُبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: ١٧].

مراتبُ التعلم ستة، وحرمان العلم بستة:

«**اعلم أنَّ للتعلم ست مراتب**: أولها حُسْن السؤال، ثانيها: حُسْن الإنصات والاستماع، ثالثها: حُسْن الفَهم، رابعها: الحفظ، خامسها: التعليم، سادسها: وهي الثمرة؛ العَملُ به ومُراعاة حُدوده.

وحرمانُ العلم يكونُ بستة أوجه: أحدها: تركُ السؤال، الثاني: سُوءُ الإنصات، وعدمُ إلقاء السمع، الثالث: سُوءُ الفَهم، الرابع: عَدمُ الحفظ، الخامس: عَدمُ نشره وتعليمه، فمن خَزَّن علمه ولم ينشره ابتلاه الله بنسيانه، جَزاءً وفاقًا، السادس: عَدمُ العَمل به، فإنَّ العَملَ به يُوجبُ تذكُّره وتدبُّره، ومُراعاته، والنظر فيه، فإذا أهمل العَمَلَ به نسيه.

قال بعضُ السلف: كُنا نستعينُ على حفظ العلم بالعَمَل به. قال بعضهم:

العلمُ يهتف بالعمل، فإنْ أجابه وإلا ارتحل [(١)].

وقوله: «أنَّ كلَّ العلمِ كالفرعِ للتوحيد»:

أهمُّ العُلوم على الإطلاق هو علمُ التوحيد، وما بعد من العلوم الشرعية مبنيٌّ عليه، فهو أصلٌ وغيره من العلوم فرعٌ، والفرعُ لا يُبنى إلا على أصل.

ولذلك كان التوحيدُ هو الغاية التي من أجلها أرسَل الله الرسلَ، وأنزل الكتبَ وشرَّع الشرائعَ لقيامه، وقد بيّن القرآنُ أنّ جميعَ الرسل- من أول نوح إلى النبي ﷺ - كلهم كانوا يدعون إلى التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وقال نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام- ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» [(٢)].

ولهذا كان الصحيحُ أنَّ أولَ واجب على المكلف شَهادة أنْ لا إله إلا الله.. بل أئمة السَّلف كلهم مُتفقون على أنّ أولَ ما يُؤمَرُ به العبدُ الشهادتان [(٣)].

---

(١) شرح منظومة الآداب للسفاريني (١/ ٣٢-٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٢٦).

معنى التوحيد لغة: وحَّد: الواو، والحاء، والدال: أصلٌ واحد، يدُلُّ على الانفراد، ومن ذلك الوحدة[١].

واصطلاحًا: إفراد الله بالخلق والملك والتدبير، وهو توحيد الربوبية، وإفراده بالعبادة وهو توحيد الألوهية، وانفراده في أسمائه وصفاته، فلا مثيل له ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، مع ما يتضمنه من أنه لا رب لشيء من ممكنات سواه[٢].

وهو: إفرادُ الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وهذا التقسيمُ قسَّمه أئمة السَّلف المتقدِّمين، وقد دَلَّت عليه نصوصُ الكتاب والسنة باستقراء النصوص.

قال ابنُ بطة العُكْبَري رَحِمَهُ اللَّهُ: أصلُ الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:-

أحدها: أن يعتقد العبدُ ربانيته؛ ليكون بذلك مُباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا.

الثاني: أن يعتقد وحدانيته، وليكون مُباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع[٣]، وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ٩٠) مادة (وحد).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٢٤٦).

(٣) الصانع: من صفات الله تعالى، وليس اسمًا لله.

موصوفًا بها، من العلم والقدْرة والحكمة، وسائر ما وصف به نفسه [١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض شرحه اسم «الله»:

فالله اسمٌ للموجود الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه [٢].

ركنا كلمة التوحيد، وهما الإثبات والنفي:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]

«والتوحيد لا يتم إلا بركنين وهما:-

١- الإثبات. **٢- النفي.**

إنّ النفي المحض تعطيلٌ محض، والإثباتُ المحض لا يمنعُ المشاركة» [٣].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والنفيُ المحض ليس توحيدًا، وكذلك الإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد [٤].

وقوله: «فاسمع نظمي»:

النَّظمُ: التأليفُ، نَظمه ينظُمه نظمًا، نظامًا ونَظَّمه فانتظم، ونظمتُ اللؤلؤ: أي جمعته في السلك [٥].

---

(١) الإبانة (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١١٨-١٢٠) باختصار.
(٣) كتاب التوحيد، لمحمد بن عبد الوهاب (١/ ١٤) بشرح ابن عثيمين.
(٤) انظر: فتح المجيد لعبد الرحمن آل الشيخ (ص: ٣٠).
(٥) اللسان (٨/ ٦٠٩).

فالنظمُ: نوعٌ من الكلام الموزون المقَفَّى. والنثرُ: هو الكلامُ المرسَلُ الذي ليس فيه قافية؛ لأنَّ النون والثاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إلقاء شيء مُتفرق [(١)].

وكان صنيعُ كثير من أهل العلم أنْ ينظموا المتون- والمتن: هو العِلمُ المختصَر- نظمًا ليسهل على طالب العلم الحفظ.

(١) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٩) مادة: (نثر).

قال صاحب النظم البديع رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧ - لأَنَّـهُ العِلْـمُ الَّـذِي لا يَنْبَغِـي لِعَاقِـلٍ لِفَهْمِـهِ لَـمْ يَبْتَـغِ

الشرح

العلـمُ لغـة: العلـم نقيـض الجهـل[1]، هـو الاعتقـادُ الجـازم المطـابق للواقع[2].

فلا يحسُنُ للإنسان البالغ العاقل - سواء أكان ذكرًا أو أنثى - أن لا يبذلَ الجهد ويستفرغ الوقت لتحصيله، ومعرفته، والاتصاف به، حتى يعبد الله على بصيرة.

فينبغي على كل مُسلم - فضلًا عن طلبة العلم - أنْ يتعلم علمَ التوحيد، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: فأمَرَ بالعَمل بعد العلم[3].

وبوَّب الإمامُ البخاري بابًا بعنوان: (العلم قبل القول والعمل).

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا العِلْمَ، مَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»[4].

---

(١) اللسان (٦/ ٤١٥).

(٢) التعريفات (ص: ١٩٩).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٣٢).

(٤) الفتح (١/ ١٩٢)، والحديث أخرج شطره الأول أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وغيرهم، والشطر الثاني: «**ومن سلك طريقًا...**»، عند مسلم (٢٦٩٩).

قال ابنُ المنير رَحِمَهُ اللَّهُ مُعقبًا على قول البخاري: باب العلم قبل القول والعمل: أراد به أنَّ العلمَ شرط في صحةِ القول والعمل؛ فلا يعتبران إلا به، فهو متقدمٌ عليهما؛ لأنه مُصحِّح للنية المصحِّحة للعمل، فنبّه المصنفُ على ذلك، حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إنّ العلمَ لا ينفعُ إلا بالعمل، تهوينُ أمر العلم والتساهل في طلبه (١). انتهى.

وأهلُ البدع والأهواء يُزهِّدون الناسَ في طلب العلم وخاصةً العقيدة، يقولون: تجلسون تدرسون «فتح المجيد» «والأصول الثلاثة» وكذا وكذا من الكتب، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يُحارَبون، قُل لهم: وهل انهزم المسلمون ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من تردي أحوالهم - في الدنيا والآخرة - إلا بالبُعد عن التوحيد فَهمًا وعملًا. فالله تعالى وعد المؤمنين بالتمكين إذا حققوا التوحيد، وتحقيقُ التوحيد لا يكونُ إلا بالعلم أولًا ثم العمل به ثانيًا.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

فتأمل هذا، ولا تلتفت إلى أقوال أهل البدع، فالكتابُ والسنة وسلف الأمة وأئمتهم يحثون على طلب العلم الذي يقوم به التوحيد، فإذا جهلوا التوحيد لن يحققوه، فانتبه.

---

(١) المصدر السابق.

قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨ - فَـيعْلَمُ الْوَاجِـبَ وَالمُحَـالَا كَجَـائِزٍ فِـي حَقِّـهِ تَعَـالى

الشرح

أي: يجب شرعًا على كل مُكلَّف أنْ يعرف ما يجب لله تعالى، وهو ما لا يُتصوَّرُ في العقل عَدمه؛ كوجُوده تعالى، ووجوب قِدَمه.

ويعلم المحالا: وهو ما لا يُتصوَّرُ في العَقل وجُوده؛ كالشريك له تعالى، قاله ابن مانع.

وقيل في قوله: «فَيَعْلَمُ الواجبَ والمُحالَا»:

هذا هو علم التوحيد أنْ يعرف الواجبَ في حَق الله تعالى، من إثبات صفات الكمال له جلّ وعلا، ونُعوت الجلال، وإفراده بالعبادة، هذا هو الواجبُ له سبحانه وتعالى.

ومعرفةُ المستحيل في حَقه سُبحانه وتعالى؛ كوجُود الشريك لله عز وجل، والشبيه والمثيل، هذا مُستَحيلٌ أنْ يكون لله شَبيه أو مثيلٌ، جَلّ وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى]، ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤] أي: الشُّبَهَاء والنظراء، هذا مُحالٌ أنْ يكُون لله شبيه، ومحالٌ أنْ يكُون له شَريكٌ في خَلقه، وشَريكٌ في عبادته، وشَريكٌ في أمره ونهيه سُبحانه وتعالى، قاله الفوزان حفظه الله.

وقوله: «كجائز في حقه تعالى»:

والجائز: ما أمْكَنَ وجُوده وعَدَمه، وذلك كأفعال الله جَلّ وعلا، فإنّ الله يفعل بمشيئته وإرادته، يخلق ويرزق، ويرسل الرسل، ويُنزل الكتب،

ويُنزل الغيث، ويُعز ويُذل، كل هذه أفعاله، وهذه من الأمور الجائزة التي تقع، وقد لا تقع، بحسب مشيئته وحكمته وإرادته سُبحانه وتعالى.

إذًا: الأمورُ في حق الله على ثلاثة أقسام:-

أولًا: الواجبُ له سُبحانه، من إثبات كَماله سُبحانه ونُعوت جلاله، وعبادته وحده لا شَريكَ له، هذا هو الواجبُ في حقه.

ثانيًا: الممتنعُ في حَقه، وهو الشَّريكُ له، وضَرْبُ الأمثال والشُّبَهاء لله عز وجلّ.

ثالثًا: الجائزُ في حَقه، وهو أفعالُ الله جَلّ وعَلا التي يفعلها بمشيئته وإرادته، يفعل ما يشاء ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة]. سُبحانه وتعالى، قاله الفوزان[١].

(١) انظر شرح السفارينية لجمع من العلماء (ص: ١١٣).

قال المصنفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩ - وَصَـارَ مِـنْ عَـادَةِ أهْـلِ الْعِلْـمِ   أنْ يَعْتَنُــوا فِــي سَــبْرِ ذَا بِــالنَّظْمِ

١٠ - لأنَّــهُ يَسْــهُلُ لِلْحِفْــظِ كَمَــا   يَــرُوقُ لِلسَّــمْعِ وَيشــفي مِــنْ ظَمَــا

الشرح

السَّبْرُ لغة: مصدر سَبَرَ الجرح يَسْبُرُ، ويَسْبِرهُ سَبْرًا: نظر مقداره وقاسه ليعرف غوره[١].

وقيل: السَبَر لغة: الاختبارُ والتجربة[٢].

والمعنى: لما كان من عادة العُلماء القائمين بنشر العلم وتتبع واختيار مهمات المسائل –وخاصة علم التوحيد– أنهم ينظمون هذه المتون– كمتون العقيدة، والفقه، ومصطلح الحديث، وعلم النحو وغير ذلك– نظمًا مختصرًا؛ لتسهيل الحفظ على طالب العلم، أراد الناظمُ أن يُشارك أهلَ العلم في التسهيل على طلبة العلم؛ لأن النظم أسهلُ في الحفظ من النثر، وإن كان العلماء الذين كتبوا العقيدة نثرًا أكثر ممن كتبها نظمًا.

وقوله: «يروق للسمع ويشفي من ظما»:

الأمر الثاني من مُسوغات النظم: أنه يروق للسمع، فالإنسانُ يستمع إلى النظم أكثر مما يستمع للنثر، لخفته على السمع.

---

(١) اللسان (٤/ ٤٧٢).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٩٠).

ويشفي من ظما: أيْ: يروي من شدة العَطش، والمقصود: أنه يروي العطشانَ إلى العلم، وهذا عطشٌ معنوي، قاله الفوزان.

والعلمُ ليس قاصرًا على النظم، بل قد يُشفَى طالبُ العلم من النثر أكثرَ من النظم، ولهذا كانت مؤلفات العلوم في أولها، ومن أوائل ما أُلف فيها النثر، وليس النظم، والله أعلم.

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١١ - فَمِـنْ هُنَـا نَظَمْـتُ لِـي عَقِيـدَةَ أُرْجُـــــوزَةً وَجِيـــــزَةً مُفِيـــــدَةَ

١٢ - نَظَمْتُهَـا فِـي سِـلْكِهَا مُقَدِّمَـة وَسِـــتُّ أَبْـوَابٍ كَـذَاكَ خَاتِمَـة

الشرح

معنى العقيدة لغة: العقيدة على وزن فعيلة بمعنى مفعولة، أي معقودة، فهي مأخوذة من العقد، وهو الجمع بين أطراف الشيء على سبيل الربط والإبرام والإحكام والتوثيق، ويستعمل ذلك في الأجسام المادية؛ كعقد الحبل، ثم توسع في معنى العقد فاستعمل في الأمور المعنوية، كعقد البيع وعقد النكاح[(١)].

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العين، والقاف، والدال، أصلٌ واحدٌ يدل على شَدّ وشِدة، ومن ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود.

قال الخليل: ولم أسمع له فعلًا.

وعَقَدتُ الحبل أعقِد عَقْدًا، وقد انعقد، وتلك هي العُقْدة[(٢)].

وقد ذكر في «المعجم الوسيط» أن العقيدة هي: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، ويرادفها الاعتقاد والمعتقد... وجمعها عقائد[(٣)].

---

(١) المصباح المنير (٢/ ٤٢١)، والقاموس المحيط ص (٣٨٣-٣٨٤)، ولسان العرب (٩/ ٣٠٩-٣١٢).

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ٨٦) مادة (عقد).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٦٣٧).

واصطلاحًا: كما قال أهلُ العلم، هو حُكمُ الذهن الجازم، فإنْ كان مُطابقًا للواقع فهو صحيحٌ، وإلا فهو فاسدٌ، فالعقيدةُ مُتعلقة بما يجزم به القلب، سواء أكان حقًّا أو باطلًا، وهذا المعنى مُقارب لما ذكره ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرح هذه العقيدة.

وقوله: «أُرجُوزةً وجيزةً مُفيدة»:

الرَّجزَ: بحرٌ من بحور الشعر [(١)] المعروف، ونوعٌ من أنواعه... وتُسمّى قصائده: أَراجيزَ، واحدتها: أُرجوزة، وهي كهيئة السجع، إلا أنه في وزْن الشعر، ويُسمَّى قائله راجزًا، كما يُسمَّى قائلُ بحور الشعر شاعرًا [(٢)].

«**وجيزة**»: أي مختصرة قليلة الألفاظ، ولكنها عظيمة النفع؛ فقد نظم عقيدة أهل السنة والجماعة في نظم مختصر ليسهل حفظه، كما تقدم من كلامه.

«**مفيدة**»: أي فيها النفع لطالب العلم- بإذن الله – لأنه جمعَ فيها مسائل الاعتقاد بأسلوب سَهل مُيسَّر، وهذا ليس من باب مدح الناظم لنفسه، ولكن لبيان الواقع حتى ينتفع بهذا العلم، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ**»[(٣)].

---

(١) بحور الشعر ستة عشر، أولها بحر الطويل، آخرها المتدارك، وهي بحور لا يخرج النظم عنها، وهذه القصيدة مُوافقة لبحر الرجز. قاله ابن عثيمين.

وانظر: «أهدى سبيل إلى علمي الخليل» - للدكتور محمود مصطفى (ص: ٢٨) وما بعدها، و«علم العروض والقافية» لعبد العزيز عتيق (ص: ٢٦).

(٢) لسان العرب (٤/ ٧٣) مادة (رجز).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) وابن ماجه (٤٣٠٨)، وله شاهد عند مسلم (٢٢٧٨)، =

وعن ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[1].

قوله: «نظمتُها في سِلْكِها مُقدّمة»:

أيْ: نظمتُ مسائلها، وهي المسائل المتعلقة بالاعتقاد.

في سِلْكِها: بكسر السين، أي خيطها.

مُقدمة: وقدّم بمعنى: تقدَّم، وقد استعير لكُلِّ شيءٍ، فقيل: مُقَدِّمة الكتاب ومقدِّمة الكلام، بكسر الدال، قال: وقد تفتَح... ومُقدِّمة كُل شيءٍ: أوله[2].

وقوله: «وَسِت أبوابٍ»:

أبواب: جمعُ باب، وهو المدخلُ، أي إلى مسائل العلم، ومن صنيع أكثر أهل العلم تقسيم المسائل- سواء أكانت نظمًا أو نثرًا- إلى أبواب وفصول ومطالب؛ ليسهل على طالب العلم حفظها.

وقوله: «وكذلك خاتمة»:

الخاتمة: وخاتمة الشيء آخِرهُ، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[3].

والمعنى: أنه قسَّم المنظومة إلى سِت أبواب، ثم خاتمة بين فيها خُلاصة ما أراده من هذا النظم، وبيان ما تضمنه من فوائد ومسائل.

=

وانظر الصحيحة (١٥٧١).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٢) ومسلم (٢٤٦٣).

(٢) اللسان (٧/ ٢٧٢).

(٣) مختار الصحاح (ص: ٧٧).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في نظمه:

١٣ - وَسَمْتُهَا بِالدُّرَّةِ الْمُضِيَّة   فِي عَقْدِ أَهْلِ الْفِرْقَةِ الْمَرْضِيَّة

الشرح

وقيل: السمة، وهي العلامة.

أي: سَمّى هذه العقيدة «بالدرة»، أي: اللؤلؤة.

المضية: المنيرة، من الإضاءة، وأضاءت أي: استنارت، فصارت مُضيئة، لقوة صفائها وحُسنها.

وقوله: «في عَقْدِ»:

أي: في عقيدة أهل الفرقة المرضية، وقد سبق بيانُ معنى العقيدة لغةً واصطلاحًا(١).

وعَقد: اسمُ مصدر؛ لأنَّ اعتقد يعتقد، والمصدر اعتقاد، وعَقد اسم مصدر.

واسمُ المصدر: يقول النحويون، ما دَلّ على معنى المصدر، ولم يشتمل على حروفه، قاله ابن عثيمين.

وقوله: «أهل الفرقة»:

الفرقة: بالكسر، اسم لجماعة مُتفرقة من الناس، بواسطة علامة التأنيث؛ لأنَّ الاسمَ يكون للجمع بالتأنيث، والجماعة أقلها ثلاثة.

---

(١) انظر: شرح البيت الحادي عشر.

أما الطائفة: فقال محمد بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ: الطائفة للواحد. وقال عكرمة: للواحد فما فوق من دون المتواتر.. والفريقُ أكثر من الفرقة[(١)].

قوله «المرضية»:

أي في اعتقادها الذي ارتضاه الله ورسُوله؛ لأنّ عقيدتهم مُستقاة من الكتاب والسنة بفهم الصحابة الكرام ومَن تبعهم بإحسان، وضد هذه الفرقة فرق أخرى اعتقدت اعتقادات فاسدة ممقوتة فَضَلّوا وأضلوا.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن انقسام هذه الأمة إلى فرق، وأنّ الناجية هي فرقة واحدة، وهم أهل السنة والجماعة.

قال رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً** - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ-، **كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»[(٢)].

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[(٣)].

---

(١) الكليات (ص: ٥٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والدارمي (٢/ ٢٤١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٨٨٤، ٨٨٥)، والآجري في الشريعة ص (١٨)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٥٤١، ٥٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١، ٦٥، ٦٩)، وصحّحه الألباني في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٠)، والصحيحة (٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠) واللفظ للبخاري.

وفي رواية: «**لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

فأهلُ السنة والجماعة، هم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية، وهم الفرقة المرضية، كما سماها صاحب النظم.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٧٠-١٩٢٠) بنحوه.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٤ - عَلَى اعْتِقَادِ ذِي السَّدَادِ الحَنْبَلِيّ إمَامِ أَهْلِ الْحَقِّ ذِي الْقَدْرِ الْعَلِيّ

الشرح

السَّديدُ والسُّداد: الصوابُ من القول... والتسديد: التوفيقُ للصواب من القول[1].

والمعنى: أنَّ هذه العقيدة على اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل، الموفَّق إلى الحق والصواب.

وقوله: «إمام أهل الحق»:

أي: يقتدي به أهل الحق، لتمسكه بالكتاب والسنة، وحُسن اتباعه للنبي ﷺ، وقد لقب بإمام أهل السنة؛ لأنه ثبت على عقيدة أهل السنة عند ظهور بدعة القول بخلق القرآن- تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا- وكان ذلك في زمن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، فقد حمل الناسَ على القول بخلق القرآن، ثم صار الأمر إلى المعتصم إثر موت أخيه، وجرت المحنة المشهورة للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فضُرب وسُجن ليقول بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فأبى الإمامُ إلا القول بأنّ القرآنَ كلامُ الله غير مخلوق. وقيل: مكث في السجن ثمانية وعشرين شهرًا حتى مات المعتصم، وولي الخلافة ابنه الواثق، ثم ولي المتوكل بعد الواثق، فخالف المأمون والمعتصم والواثق في الاعتقاد، فأظهر الله السنة، وفرَّج عن الناس[2].

---

(١) اللسان (٤/ ٥٣٢).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ١٢٢٦-١٢٤٣) المكتبة العصرية، وحلية =

قال علي بن المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة(١).

بما تنال الإمامة في الدين؟

تُنال الإمامةُ في الدين بالصبر واليقين، الصبر على أقدار الله، والصبر عن معصيته، والصبر على طاعته، واليقين بكل ما أخبر به سبحانه، وأخبرنا به نبينا ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

وقوله: «ذي القدر العَلي»:

القَدْرُ لغة: الغنى واليسارُ والقوى(٢).

وقيل: القَدْرُ: القوة(٣).

أي: إنّ الإمام أحمد صاحب القوة في الدين والمنزلة العُليا بين المسلمين، ولا يُنكِرُ قدرَ الإمام أحمد إلا جاهلٌ أو حاقد أو مُبتدع في الدين.

=

الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٧/ ٣٤٣-٣٥٦)، والبداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٣٤٥)، وشرح العقيدة الأصفهانية (ص: ٣٤٩).

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٤١٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٢٧٨، ٣٠٩).

وانظر: شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ٣٤٩).

(٢) القاموس المحيط (ص: ٤١٥) مادة (قدر).

(٣) انظر: اللسان (٧/ ٢٦٣).

ذكر جَلالته عند العُلماء، ونبالته عند المحدثين والفقهاء:

بعض أقوال العلماء في الإمام أحمد(١):

قال أبو داود السجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ: لقيتُ مائتين من مشايخ العلم، فما رأيتُ مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوضُ في شيءٍ مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذُكر العلمُ تكلَّم(٢).

وقال عبدُ الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ لما رأى أحمد بن حنبل مقبلًا عليه، فقام إليه ومَن عنده، وقال: هذا أعلمُ الناس بحديث سفيان الثوري.

وقال أبو زُرعة رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأيتُ مثل أحمد في فنون العلم، وما قام أحد مثل ما قام أحمد به(٣).

وقال محمدُ بن إسحاق بن راهويه رحمهما الله: سمعتُ أبي يقول: قال لي أحمد بن حنبل: تعال حتى أريك رَجُلًا لم تر مثله، فذهب إلى الشافعي. قال محمدُ بن إسحاق: قال لي أبي: وما رأى الشافعي مثل أحمد بن حنبل.

والكلامُ عن فضائل أحمد بن حنبل كثير يصعب استيفاؤه، رحم الله الإمام الجليل، إمام أهل السنة.

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٧/ ٣٠٣) وما بعدها باختصار.

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٥/ ٢٩١).

(٣) المصدر السابق (٥/ ٢٩٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥ - حَبْرِ المَلَا فَرْدِ العُلَا الرَّبَّانِي   رَبِّ الْحِجَا ماحِي الدُّجَى الشَّيْبَانِي

الشرح

هذا البيت تتمة الثناء على الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالحِبْرُ: الأثرُ المستحسَن. شاعرٌ مُحَبِّرٌ، وشِعرٌ مُحَبَّرٌ، وثوبٌ حَبيرٌ مُحَسَّنٌ... والحَبْرُ: العالم، وجمعُهُ أحبار؛ لما يبقي من أثر عُلومهم في قلوب الناس ومن آثار أفعالهم الحَسَنة المقتدى بها، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١](١).

وقوله: «المَلا»:

المـلأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العُيون رِوَاء ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]... وغير ذلك من الآيات.

يقال: فلانٌ مِلْءُ العيون، أي: مُعظَّمٌ عند مَن رآه كأنه ملأ عَيْنَه من رُؤيته(٢).

وقوله: «فرد العُلَا»:

فرد العلا، يعني: واحدٌ في الخصال السامية، والأخلاق العالية، وهذا ليس على الإطلاق؛ لأنَّ الذي له الكمال البشري في الأخلاق والعبادات والمعاملات وفي جميع المقامات هو نبينا ﷺ فهو أفضلُ البشر بنص

---

(١) المفردات (ص: ١١٧).

(٢) المفردات (ص: ٥٢٤).

القرآن والسنة وإجماع الأمة.

قوله «الرباني»:

رب: الراء، والباء يدلُّ على أصولٍ. فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرّبُّ المالك والخالق والصاحب، والرّبُّ: المصلح للشيء. يُقال: رَبَّ فلانٌ ضيعته، إذا قام على إصلاحها[(١)]... والرَّبيُّ: العارفُ بالرَّب[(٢)].

والرَّبَّانيُّ: المتألِّه، العارفُ بالله عز وجل[(٣)].

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أنْ ساق أقوال أهل العلم في معنى قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]:

وأوْلى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين: أنهم جمع ربانيّ، وأنَّ الرباني المنسوب إلى الرَّبَّان؛ الذي يرب الناس، وهو الذي يُصلح أمورهم ويربها، ويقوم بها. والرباني: هو المنسوب إلى مَن كان بالصفة التي وصفت. وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يرب أمور الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والولي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وَلِيَه المقسِطون من المصْلحين أمور الخلق بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم.

فالربانيون إذًا هم عِمادُ الناس في الفقه والعلم، وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: وهم فوقَ الأحبار؛ لأنّ الأحبارَ العُلماءُ، والرباني:

---

(١) ذكر بعد هذا الأصل: الأصل الثاني، وهو تكرارٌ للأول.

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٣٨١-٣٨٢) مادة (رب).

(٣) القاموس المحيط (ص: ٨٢).

الجامعُ إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية وما يُصلحهم في دُنياهم ودينهم (١).

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولُ الرسُولُ للناس كونوا ربانيين، أي: حُكماءَ عُلماءَ حُلماءَ، وقيل: فقهاءَ، وقيل: يعني أهل عبادة وأهل تقوى (٢). انتهى.

فالإمام أحمد- بلا ريب- من أجَلِّ العُلماء الربانيين.

وقوله: «ربِّ الحِجَا»:

الحِجَا لغة: العقل، والفطنة (٣).

قال الخطَّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: يروى بكسر الحاء وفتحها، ومعناه فيهما معنى الستر، فمَن قال بالكسر شبَّهه بالحِجا العَقل؛ لأنه يمنعُ الإنسانَ من الفساد ويحفظه من التعرض للهلاك.. ومَن رواه بالفتح، فقد ذهب إلى الناحية والطرف (٤).

وقوله: «ماحي الدُّجى»:

أي ماحي الظلام، فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب العقل والفطنة، التقي النقي، محى ظلام البدعة- بدعة القول بخلق القرآن كما سبق بيانه- وأظهر الحق، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه أصحاب رسُول الله ﷺ.

وقوله: «الشيباني»: نسبة إلى جده شيبان.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٤٤٤-٤٤٥) باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٢).

(٣) اللسان (٢/ ٣٤٤).

(٤) المصدر السابق.

قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٦ - فَإِنَّـــهُ إِمَـــامُ أَهْـــلِ الأَثَـــرِ   فَمَـــنْ نَحَـــا مَنْحَـــاهُ فَهْـــوَ الأَثَـــرِي

الشرح

الأَثرُ لغة: بقية الشيء[1].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: الأثر في الأصل: العلامة والبقية والرواية[2].

واصطلاحًا: هو يختص بما أضيف إلى مَن دونه - أي النبي ﷺ- من الصحابة أو التابعين. ولا يُطلق الأثرُ على المرفوع للنبي ﷺ إلا مُقيدًا، مثل أنْ يُقال: وفي الأثر عن النبي ﷺ.

أما عند الإطلاق: فهو ما أضيف إلى الصحابي فمَن دُونه [3].

فالمعنى: أنّ الإمامَ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ إمام أهل الحديث.

قال أبو نعيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الإمامُ المبجَّل والهمَام المفضَّل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، لزم الاقتداء، وظفر بالاهتداء، عَلَم الزهاد، وقلم النُّقاد، امتُحن فكان في المحنة صبورًا، واحتبى[4]، فكان للنعمة شكورًا، وكان للعلم والحلم واعيًا، وللهم والفكر راعيًا [5]. انتهى.

---

(١) القاموس المحيط (ص: ٣٠٨).

(٢) «النكت» (١/ ٥١٣).

(٣) شرح المنظومة البيقونية (ص: ٣٧، ٣٨) بتصرف يسير، وانظر: «تدريب الراوي» (١/ ٤٣)، و«شرح نخبة الفكر» (ص: ٥٩)، و«فتح المغيث» (١/ ٤١).

(٤) الاحتباء: هو أنْ يضم الإنسانُ رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره وتشد عليها... يُقال: احتبى يحتبي احتباء- النهاية (ص: ١٨٥).

(٥) حلية الأولياء (٧/ ٣٠١).

ومن مناقبه الكثيرة: أنه ألف «المسند»، وقد أخرج فيه أكثر من ثمان وعشرين ألف حديث.

ومن بركة علمه: أنَّ من الذين أخذوا الحديث عنه: الإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام أبو داود، والترمذي، وغيرهم.

وقوله: «فمَن نحا منحاه فهو الأثري»:

أيْ: مَن سَلك مسلكه- وهو التمسكُ بالكتاب والسنة- فهو الذي يستحق أنْ يُقال عنه إنه أثري، يعني مُتبع السَّلف أصحاب الحديث والأثر، وهذا في باب الاعتقاد.

أما في مسائل الفقه: فنحن مع الدليل حيث دار، فمَن كان معه دليلٌ من الكتاب والسنة أخذنا بقوله، ومن لم يكن معه دليلٌ أو كان الدليلُ ضعيفًا، تركنا قوله، فكل يُؤخَذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ، كما قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

---

(١) انظر: السير (١٥/ ٩٥)، والمقاصد الحسنة للسخاوي (١/ ٥١٣)، وصفة صلاة النبي ﷺ.

قال المصنفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٧ - سَـقَى ضَـرِيحًا حَلَّـهُ صَـوبُ والعَفْـوِ والغُفْـرانِ مـا نَجْـمٌ أَضَـا

١٨ - وَحَلّـــهُ وَســـائرَ الأئِمـــة مَنَـــازِلَ الرِّضْـــوانِ أعْلَـــى الْجَنَّـــة

الشرح

وهذا دعاءٌ له، بعد أن ذكـر مناقبه.

قوله: «سقى ضريحًا»: يعني: قبره. «حَلَّهُ صَوبُ الرضا»: من الله عز وجل، وصوب: يعني: صيبًا، وهو المطر.

أي: سقاهُ في قبره الذي نزل فيه الرضا والرضوان من الله تعالى.

وقوله: «والعفو والغفران ما نجمٌ أضا»:

أي: عنه وله، ما نجم أضا: يعني نوَّر الظلمة؛ لأنه هو الذي نوَّر المسلمين بعلمه بالله جل وعلا، ندعو الله تعالى أن يرضى عنه ويعفو عنه، ويغفر له دائمًا وأبدًا ما بقيت النجوم في السماء، لأنه هو من النجوم التي يُهتدَى بها، قاله الفوزان.

وقوله: «وَحَلّه وَسائرَ الأئِمة...»:

أي: وأحَلّ أحمد: أي أنزله -وبقية أئمة أهل السنة، ومنهم الأئمة الأربعة- منازل الرضوان، أي الرضا من الله تعالى، وأعلى منازل الرضوان الفردوس من الجنة، قال رَسُولُ الله ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

ومن السنة الدعاء للعُلماء؛ لأنهم أصحابُ الفضل علينا، فقد جعلهم الله تعالى سببًا في حفظ هذا الدين- قرآن وسنة- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر].

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «... مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، وأبو داود (١٦٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، والنسائي (١٣٥٨)، وابن حبان (٢٠٧١)، والحاكم (١/ ٤١٢، ٤١٣)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٥٤)، والإرواء (١٦١٧).

مقدمة
في ترجيح مذهب السلف على مذهب الخلف[(١)]
والفرقة الناجية على سائر الفرق

١٩ - اعْلَمْ هُدِيتَ أَنَّهُ جَاءَ الْخَبَرْ عَنِ النَّبِيِّ الْمُقْتَفَى خَيْرِ الْبَشَرْ
٢٠ - بِأَنَّ ذِي الأُمَّةِ سَوْفَ تَفْتَرِقْ بِضْعًا وَسَبْعِينَ اعْتِقَادًا وَالْمُحِقْ
٢١ - مَا كَانَ فِي نَهْجِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَصَحْبِهِ مِنْ غَيْرِ زَيْغٍ وَجَفَا
٢٢ - وَلَيسَ هذا النَّصُّ جَزْمًا يُعتبَر فِي فِرْقَةٍ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الأَثَر
٢٣ - فَأَثْبَتُوا النُّصُوصَ بِالتَّنْزِيهِ مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ وَلَا تَشْبِيهِ
٢٤ - فَكُلُّ مَا جَاءَ مِنَ الآيَاتِ أَوْ صحّ فِي الأَخْبَارِ عَنْ ثِقَاتِ
٢٥ - مِنَ الأَحَادِيثِ نُمِرُّهُ كَمَا قَدْ جَاءَ فَاسْمَعْ مِنْ نِظَامِي وَاعْلَمَا
٢٦ - وَلَا نَرُدُّ ذَاكَ بِالْعُقُولِ لِقَوْلِ مُفْتَرٍ بِهِ جَهُولِ
٢٧ - فَعَقْدُنَا الإِثْبَاتُ يَا خَلِيلِي مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلِ
٢٨ - وَكُلُّ مَنْ أَوَّلَ فِي الصِّفَاتِ كَذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ مَا إِثْبَاتِ
٢٩ - فَقَدْ تَعَدَّى وَاسْتَطَالَ وَاجْتَرَى وَخَاضَ فِي بَحْرِ الْهَلَاكِ وَافْتَرَى
٣٠ - أَلَمْ تَرَ اخْتِلَافَ أَصْحَابِ النَّظَرِ فِيهِ وَحُسْنَ مَا نَحَاهُ ذُو الأَثَرِ
٣١ - فَإِنَّهُمْ قَدِ اقْتَدَوْا بِالْمُصْطَفَى وَصَحْبِهِ فَاقْنَعْ بِهَذَا وَكَفَى

(١) في بعض النسخ: مقدمة في ترجيح مذهب السلف على سائر المذاهب.

شـرح المقدمة

بعد أنْ أثنى الناظم على الله تعالى ورسُوله، والصحابة الكرام، وبيَّن أنـه نظم هذه المنظومة لبيان اعتقاد الفرقة المرضية- أهل السنة والجماعة- أثنى على الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ- فهو من أكابر أئمة أهل السنة- ودعا له ولسائر الأئمة.

ثم عقد مُقدمة تحوي عدة أبيات، بيَّن فيها ترجيح مذهب السلف على سائر المذاهب، والفرقة الناجية على سائر الفرق:

قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٩ - اعْلَمْ هُدِيتَ أَنَّهُ جَاءَ الْخَبَرْ عَنِ النَّبِيِّ الْمُقْتَفَى خَيْرِ الْبَشَرْ

الشرح

تقدم أنَّ كلمة «**اعلم**» تُستعمل لبيان أهمية ما سيُقال.

وقوله: «هُديت»:

دعاء بالهداية، أي: وفقت للخير، وعُلِّمت الخير.

والهداية قسمان: هداية إرشاد ودلالة، وهداية توفيق، وقد سبق بيان ذلك.

وقوله: «أنه جاء الخبر»:

الخَبر لغة: الخَبر بالتحريك، واحد الأخبار. والخبر: ما أتاك من نبأ عمَّن تستخبر.

قال ابن سيده: الخبر: النبأ، الجمعُ أخبار[١].

---

(١) اللسان (٣/ ١٢).

قال الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: الخبر: هو الكلامُ المحتمل للصدق والكذب[(١)]. انتهى.

والخبر هنا المراد به الحديث.

وقوله: «عن النبي المُقتفى»:

سبق بيان معنى «النبي» لغة، وهو الذي يُنبئ عن الله تعالى.

والمراد هنا: هو رسُولُ الله وخاتم النبيين ﷺ.

«المقتفى»: أي: المتبع، الذي يُهتدَى به.

قال الليث: القفوُ مصدر قولك: قفَا يَقْفُو قَفْوًا وقُفُوًا؛ وهو أنْ يتبع الشيء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ [الإسراء:٣٦][(٢)].

قال ابنُ منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: واقْتفَى أثره وتقفَّاه: اتبعه[(٣)].

وقوله: «خيرِ البشرْ»:

قد قدمنا الأدلة من الكتاب والسنة على اصطفاء الله تعالى لنبينا ﷺ وبيان أنه أفضل البشر على الإطلاق.

فالناظم أراد أنْ يُقدِّم بين يدي النظم الذي سيبيّن فيه اعتقاد أهل السنة، وقدر النبي ﷺ، وأنه الصادق المصدوق الواجب اتباعه في الخبر.

والخبرُ يُقال على حديث رَسُول الله ﷺ، والحديثُ إما قول، وإما فعل، وإما تقرير، فإنْ ثبت صحة النص وجب العملُ به واتباع ما أمر به،

---

(١) التعريفات (ص: ٩٩).

(٢) اللسان (٧/ ٤٥٨) مادة (قفا).

(٣) المصدر السابق.

فلا هداية ولا نجاة إلا باتباعه ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]. وسيأتي بيان أهمية الاتباع في موضعه إن شاء الله.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٠ - بِأَنَّ ذِي الأُمَّةِ سَوْفَ تَفْتَرِقْ بِضْعًا وَسَبْعِينَ اعْتِقَادًا وَالْمُحِق

ذي: هنا اسم إشارة، وليس بمعنى صاحب.

وقوله: «الأمة»:

الأمة لغة: كُلُّ جماعةٍ يجمعها أمر، أو دين، أو زمان، أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، فهي أمة.

وكُل مَن آمَن بنبي فهو أمة الإجابة، وكل مَن بلغه دَعوة النبي فهو أمة الدعْوة.

وأمُّ كل شيء: أصله، قاله الكفوي(١).

قال الخليلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كُلُّ شيء ضُم إليه ما يليه يُسمى أُمًّا.

قال ابنُ عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهذا سُميت أم القرآن، وأم الكتاب(٢).

وبناء على هذا التعريف قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض شرحه هذه العقيدة: إنّ الأمة في اللغة تأتي لمعان:-

١- تأتي بمعنى الزمن، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي بعد زمن.

---

(١) الكليات (ص: ١٤٦).

(٢) المصدر السابق.

٢- وتأتي بمعنى الملة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

٣- وتأتي بمعنى الإمامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] أي: إمامًا.

٤- وتأتي بمعنى الطريقة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٥- وتأتي بمعنى طائفة، كما في كلام المؤلف. انتهى.

قوله:

.... سَوْفَ تَفْتَرِقْ بِضْعًا وَسَبْعِينَ اعْتِقَادًا وَالْمُحِقْ

البضع: ما بين الثلاثة إلى التسعة.

ويشير في هذا البيت إلى حديث مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ-، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»[(١)].

وفي رواية: أنه ﷺ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[(٢)].

وقوله ﷺ: «كُلُّهَا فِي النَّارِ» لا يعني أنهم خالدون في النار؛ لأنَّ اعتقادَ أهل السنة قاطبة أنَّ الفاسق من أهل القبلة إذا مات غير تائب، فهو في

(١) صحيحٌ: تقدم تخريجه في ثنايا شرح البيت الثالث عشر.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني لغيره في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٣٤)، والصحيحة (١٣٤٨).

المشيئة، إنْ شاء الله عذبه ثم يخرج بالشفاعة، أو إنْ شاء غفر له ابتداء رحمةً منه تعالى(١).

قال جلَّ ذكره: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦].

والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، وسنذكرها في موضعها بإذن الله تعالى.

وقوله «اعتقادًا»:

بيان أنَّ الاختلافَ المذموم في باب الاعتقاد، لا في فروع مسائل الفقه.

قال العلقمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال شيخُنا: ألّف الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي في شرح هذا الحديث كتابًا، قال فيه: قد علم أصحاب المقالات أنه ﷺ لم يُرد بالفرق المذمومة المختلفين في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام، وإنما قصد بالذم مَن خالف أهل الحق في أصول التوحيد، وفي تقدير الخير والشر، وفي شروط النبوة والرسالة، وفي موالاة الصحابة، وما جرى مجرى هذه الأبواب؛ لأنَّ المختلفين فيها قد كفَّر بعضهم بعضًا، بخلاف النوع الأول؛ فإنهم اختلفوا فيه من غير تكفير ولا تفسيق للمُخالف فيه، فيرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من الاختلاف(٢).

---

(١) راجع: تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٥).

(٢) عون المعبود (١٢/ ٢٢٢).

وقوله «المُحق»:

أي الفرقة الناجية- أهل السنة والجماعة- لأنَّ النبي ﷺ بيَّن أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة، وقد تقدَّم حديث الطائفة المنصورة(١).

(١) راجع: شرح البيت الثالث عشر.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

٢١ - مَا كَانَ فِي نَهْجِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَصَحْبِهِ مِنْ غَيْرِ زَيْغٍ وجَفَا

الشرح

نهج الأمرُ وأنهج، إذا وضح. والنّهج: الطريق المستقيم [(١)].

والمعنى: أنَّ الفرقة الناجية: هي ما كانت على مَنهج رَسُول الله ﷺ.

وقوله «وصحبه»:

أي الصحابة- رضوان الله عليهم- الذين تمسَّكوا بالكتاب والسنة.

مسألة: هل قولُ الصحابي حُجّة؟

هذه مسألة محل نزاع بين أهل العلم، هل قولُ الصحابي الواحد حُجّة أم لا؟

وقد ذكر ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ أكثر من خمسين وجهًا لبيان وجوب اتباع الصحابة، واستدل لقوله بأدلةٍ كلها من الكتاب والسنة[(٢)].

والذي لا خلافَ فيه بين أهل العلم أنَّ إجماعَ الصحابة- بعد موت النبي ﷺ- لا يُردّ؛ لأنَّ الإجماعَ من أدلة الأحكام، وهي: (الكتاب- السنة- الإجماع- القياس)[(٣)]، فإذا كان الأمر كذلك؛ فإجماع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أوْلى

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٩٤٩).

(٢) راجع: إعلام الموقعين (٤/ ٣٨٨-٤١٠)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٧٤)، والموافقات للشاطبي (٤/ ٧٤)، والاعتصام (٢/ ٢٦٣/ ٢٦٧)، ومجموع الفتاوي (١/ ٣٨٣) و(٥/ ٤١٣) و(١٣/ ٢٤)، واقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٨٧، ٦٩٦)، والإحكام للآمدي (٤/ ١٣٠، ١٩٧).

(٣) انظر: المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي (١/ ١٩٠-٤١٦)، =

من إجماع مَن بعدهم.

ونذكر ههنا معنى الإجماع لغة واصطلاحًا، وبيان حُجية الإجماع.

الإجماع لغة: يُقال بالاشتراك على معنيين:

أحدهما: العزمُ: قال الله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١].

وقال ﷺ: «**لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ**»[١].

وثانيهما: الاتفاق، يقال: أجمعُوا على كذا، أي صاروا ذوي جَمع، كما يُقال: ألْبَنَ وأتْمرَ، إذا صار ذا لبنٍ وذا تمر. انتهى[٢].

في الاصطلاح: فهو اتفاقُ مُجتهدي أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من الأعصار على أمر من الأمور الدينية[٣].

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض شرحه تعريف الإجماع، كما ذكره صاحب المحصول: والمرادُ بالاتفاق: الاشتراكُ، إما في الاعتقاد، أو في القول، أو في الفعل.

ويخرج بقوله: «مجتهدي أمة محمد ﷺ» اتفاق العوام؛ فإنه لا عبرة بوفاقِهم ولا بخلافهم».

=

والرسالة للشافعي (ص: ٣٩٠، ٣٩١)، وغيرهما.

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠)، وابن ماجه (١٧٠٠)، وابن خزيمة (١٩٣٣)، والدارمي (١٦٩٨) وغيرهم.

(٢) انظر: المحصول للرازي (٢/ ٥)، وإرشاد الفحول للشوكاني (١/ ٣٤٥)، والمستصفى لأبي حامد الغزالي (١/ ٣٢٥).

(٣) انظر: المحصول (٢/ ٥)، والمستصفى (١/ ٣٢٥)، وإرشاد الفحول (١/ ٣٤٦)، ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي (ص: ١٤٨)، ومختصر ابن اللحام (ص: ٧٤).

ويخرج منه أيضًا: اتفاق بعض المجتهدين.

ويخرج منه أيضًا: اتفاق الأمم السابقة.

ويخرج بقوله: «في عصرٍ من الأعصار» ما يُتوهَّم من أنَّ المرادَ بالمجتهدين جميع مجتهدي الأمة في جميع الأعصار إلى يوم القيامة، فإنَّ توهُّمَ هذا باطلٌ؛ لأنه يُؤدي إلى عدم ثبوت الإجماع، إذ لا إجماعَ قبل يوم القيامة، وبعد يوم القيامة لا حُجّة للإجماع.

والمرادُ بالعَصْر: عَصرُ مَن كان من أهل الاجتهاد، في الوقت الذي حدثتْ فيه المسألة، فلا يُعتبَر بمن صارَ مجتهدًا بعد حُدوثها وإنْ كان المجتهدون فيها أحياء[(١)].

والمراد بالأمور الدينية: أي أن تكون المسألة المجمع عليها في أمر من أمور الدين، فيخرج بذلك الأمور الدنيوية والعقلية وغيرها[(٢)].

دَليلُ حُجية الإجماع:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

قال الإسنوي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد تمسَّك به الشافعي في الرسالة.

وجْهُ الدلالة: أنَّ الله تعالى جمع بين مُشاقة الرسول، واتباع غير سبيل المؤمنين في الوعيد، حيث قال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ فيلزم أنْ

(١) إرشاد الفحول (١/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) قواعد الأصول لصفي الدين الحنبلي (ص: ٧٣)، ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي (ص: ١٥١).

يكون اتباعُ غير سبيل المؤمنين محرمًا؛ لأنه لو لم يكُن حرامًا ما جمع بينه وبين المحرم، الذي هو المشاقة في الوعيد، فإنه لا يحسن الجمع بين حلال وحرام في وعيد، بأنْ تقول مثلًا: إن زنيتَ وشربتَ الماءَ عاقبتك.

وإذا حرم اتباع غير سبيلهم وجب اتباع سبيلهم؛ لأنه «لا مخرج عنهما» أي: لا واسطة بينهما.

ويلزم من اتباع سبيلهم كونُ الإجماع حُجّة؛ لأنَّ سَبيلَ الشخص هو: ما يختاره من قول، أو فعل، أو اعتقاد[1]. انتهى.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فقد وصف الله تعالى هذه الأمة بأنهم يأمرون بالمعروف بكل معروفٍ وينهون عن المنكر، فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك، ولم تنه عن المنكر فيه؛ فثبت أن إجماع هذه الأمة حق، وأنها لا تجتمع على ضلالة[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

والوسط العدل والخيار، وقد جعل الله هذه الأمة شهداء على الناس، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله في الأرض، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول ﷺ[3].

(١) نهاية السُّول على شرح المنهاج للإسنوي (٢/ ٧٤٣)، ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي (١/ ١٤٨)، وإرشاد الفحول (١/ ٣٤٦)، والمستصفى (١/ ٣٢٥) وما بعدها، وتفسير ابن كثير (١/ ٥٣٣)، وروضة الناظر لابن قدامة (١/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧٦، ١٧٧)، وشرح الكوكب المنير (٢/ ٢١٧).

(٣) انظر صحيح البخاري (١٣/ ٣١٦)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٦٠)، ومجموع

ومن الأدلة أيضًا على حُجية الإجماع:

قول رَسُول الله ﷺ: «**لا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ**»(١)، وقد استدل به الغزالي وغيره على حُجية الإجماع(٢).

وقوله: «من غير زيغٍ وجفًا»:

الزيغ لغة: قال ابن العربي: زَغا إذا عَدلَ، وسعى إذا هرب(٣).

الجفا لغة: هو من الجفاء: البُعدُ عن الشيء، يُقال: جَفَاه إذا بعد عنه، وأجْفاه: إذا أبْعَدَهُ(٤).

والمعنى: أنْ نتبع ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وما أجمعوا عليه بعد

=

الفتاوى (١٩/ ١٧٧، ١٧٨).

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧)، والحاكم (٣٩١)، والطبراني في الكبير (١٣٦٢٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وله شاهد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٤)، وابن بطة في الإبانة (١٢٠)، واللالكائي (١٥٣)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٤٢١، ٤٢٣) وغيرهم.

وشاهد آخر عن أبي بصرة الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٦)، والطبراني في الكبير (٢١٧١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٣٩٠).

وشاهد آخر عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه أبو داود (٤٢٥٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٢) وغيرهما، وله شواهد أخر، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٣٣١)، وصحيح الجامع (١٧٨٦).

(٢) انظر: المستصفى (١/ ٣٢٩).

(٣) اللسان (٤/ ٣٧٢).

(٤) النهاية لابن الأثير (ص: ١٥٧).

موته، لما تقدَّم من حُجية الإجماع.

ولا نبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، أي لا نبدل أقوال وأفعال أهل البدع بأقوال وأفعال النبي ﷺ وأصحابه، ولا نعرض، ولا نبعد عن ما كانوا عليه.

واحذر من أقوال أهل البدع الذين يُزهِّدون الناس في طلب العلم الشرعي، وخاصة العقيدة، ويُنكرون على مَن يبيِّن مناهجهم الضالة، بزعمهم أنَّ هذا يُفرِّق الأمة، ويستدلون لقولهم الفاسد بآية هي حُجة عليهم: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] وهذا صنيع أهل البدع- بتر الأدلة- فقد تغافلوا عن أوّل الآية، قال جَلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فأمر بطاعته سبحانه وطاعة نبيه ﷺ مُطلقًا، ثم نهى عن النزاع الذي قد يقع بين أهل السنة والجماعة في مسألة من مسائل الدِّين، وليس في أصول الاعتقاد الذي لا خلاف فيها بين أهل السنة والجماعة، والحمد لله رب العالمين، وستأتي الأدلة على ذلك في موضعه بإذن الله.

مسألة: كيف نعلم أننا الفرقة الناجية؟

الأمرُ يسير، فقد بيَّن لنا رسُولُ الله ﷺ صفات هذه الطائفة المنصورة- أهل السنة والجماعة- فقال: «... **وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي: الْأَهْوَاءَ-، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»[(١)]. ثم بيَّن مَن هم الجماعة، فقال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[(٢)].

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه في شرح البيت الثالث عشر.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه في شرح البيت العشرين.

فينبغي على المسلم العاقل أنْ يقيس أقواله وأفعاله وأعماله بميزان الشرع- قرآن وسنة- فإنْ كان مُوافقًا لهما، فعَمله صحيحٌ، وإلا فهو مردودٌ على صاحبه، لقول رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وقال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

والعُلماءُ أضافوا قيدًا ثالثًا: هو أنْ يكون بفهم السلف الصالح من الصحابة الكرام ومَن تبعهم بإحسان؛ لأنَّ كل مُبتدع لا بُد أنْ يكون معه دَليلٌ من الكتاب أو السنة أو كليهما، ولكن بفهمه هو الذي يُوافقُ هَواه.

فنقول لكل من استدل لبدعته بنص مبتور أو حَديث لا يثبُتُ عن رَسُول الله ﷺ: مَن قال هذا القولَ من الصحابة أو التابعين من الأئمة المعْتبَرين؟

قد يقول قائل: ما الدَّليلُ على هذا القيد- فهم سَلف الأمة-؟؟

دليلُ هذا القيد: قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: فوَجْه الدلالة(٣) أنَّ اللهَ تعالى أثنى على مَن اتبعهم، فإذا قالوا قولًا فاتبعهم مُتبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو مُتبع لهم، فيجب أنْ يكون محمودًا على ذلك، وأنْ يستحق الرضوان(٤).

(١) أخرجه مسلم (١٨-١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٣) أي: على وجوب اتباع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.
(٤) بدائع التفسير (٢/ ٣٧١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: من طريقة أهل السنة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: واتباعهم يكون في كل شيء بالاعتقادات والأقول والأعمال(٢).

وفي حَديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «... **مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ**»(٣).

فنقول لكل مُبتدع: قول الله تعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

أي دَليل على كلامك من الكتاب والسنة وفَهْم سَلف الأمة، فانتبه.

---

(١) مجموع الرسائل الكبرى (١/ ٤٠٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٣٥٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٤٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والترمذي (٢٦٧٠، ٢٦٧١)، والدارمي (٩٥)، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ١٧٤، ١٧٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٤٨، ٥٥، ٥٦، ٥٩)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٦١٩، ٦٢٢، ٦٢٣)، وفي «مسند الشاميين» (٢٠١٧) والبزار في مسنده (٤٢٠١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٧، ٢٧٣٥) و«الإرواء» (٢٤٥٥).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢ - وليسَ هـذا النَّصُّ جَزْمًا يُعتبَر ... في فِرْقَـةٍ إلّا عَلَـى أهْـل الأَثَـر

٢٣ - فَـأَثْبَتُوا النُّصُـوصَ بِالتَّنْزِيـهِ ... مِـن غَيْـرِ تَعْطِيـلٍ وَلَا تَشْـبِيهِ

الشرح

المعنى: أنَّ هـذا الـنصَّ لا ينطبـقُ على فرقـةٍ مـن الفـرق الضـالة، ولكـن ينطبق على فرقةٍ واحدة، كما جاء في الحديث: «**إِنَّ هَـذِهِ الْأُمَّـةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**»[(١)].

فأهلُ الأثر: هم المتمسكون بالكتاب والسنة بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم الفرقة الناجية.

وقوله «فأثبتوا النُّصوصَ بالتنزيه...»:

التنزيه لغة: أصله من البعد.

قال ابنُ السكيت: وممَّا يضعه الناسُ في غير موضعه قولهم: خرجنا نتنزه، إذا خرجوا إلى البساتين.

قال: وإنما التنزُّهُ: التباعد عن المياه والأرياف.

ومنه قيل: فلان يَتَنزَّهُ عن الأقذار، ويُنزِّهُ نفسه عنها، أي: يُباعدُها عنها[(٢)].

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٢) الصحاح للجوهري (ص: ١٠٣٤-١٠٣٥) ط. دار المعارف - بيروت.

وقوله: «من غير تعطيل ولا تشْبيهٍ»:

التعطيل لغة: التفريغُ[١]، وعَطَّلَ الدار: أخلاها، وكلُّ ما ترك ضياعًا: مُعَطَّلٌ ومُعْطَل...

فالتعطيل من عطَّل، وهو يدل على خلوٍّ وفراغ[٢].

قال تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج: ٤٥] أي: لا يُسقى منها، ولا يُنتفعُ بمائها[٣].

واصطلاحًا: تعطيلُ النصوص بمنع إثبات مَدلولها، أو بنفي الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها له نبيه ﷺ، وسنذكر أمثلة لبيان معنى التعطيل في ثنايا الكلام عن أقسام التعطيل.

أقسام التعطيل:

التعطيلُ خمسة أنواع، وأهل السنة يتبرءون من جميع أنواع التعطيل.

«اعلم أنَّ التعطيلَ الذي ينفيه أهل السنةُ والجماعة ينقسم إلى أقسام:-

الأول: تعطيلٌ جُزئي: يكون بإثبات الأسماء، وإثبات سبع من الصفات، وإنكار الباقي، وهو مذهب الأشاعرة، فالأشاعرة يُثبتون الأسماءَ لله عز وجل، ويثبتون سبعًا من الصفات، ويُنكرون الباقي، فإذا جاءت النصوص بدلالة على الباقي حرَّفوها، فيكون هؤلاء عَطّلوا النصوص وعَطّلوا الصفات فيما نفوه، فمثلًا يقولون في قول الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ

---

(١) الصحاح (ص: ٧١٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٣) اللسان (٦/ ٣١٥).

﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. يقولون: معنى ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أي أثابهم، فيفسرون الرضا بالمفعول المنفصل عن الله، وهو الثواب، فهؤلاء عطلوا الصفة، وهي الرضا، وعطلوا النص، فصرفوا دلالته عن الرضا إلى الثواب، فعطّلوه عن مدلوله.

الثاني: تعطيلُ الصفات كلها دون الأسماء: فينفون الصفات عن الله، ويُثبتون له الأسماء، ومنهم مَن يُقر بالحياة والعلم والقدْرة؛ لأنه لا بُد للرب منها، وما عدا ذلك يحرفونه، وهؤلاء هم المعتزلة، وهذا هو المشهورُ عنهم، أنهم يُقرون الأسماء ويُنكرون الصفات، أو يُقرون بثلاث صفات ويُنكرون الباقي.

الثالث: إنكارُ الأسماء والصفات: فيقولون: إنَّ الله لا يُسمَّى سميعًا، ولا يثبتُ له سَمع، وكل ما سمى الله به نفسه يجعلونه اسمًا للمخلوقات، فليس الله هو السميع، بل السميع خلقه، وأضيف السَّمعُ إليه لأنه هو الذي خلقه في هذا، فيجعلون الأسماءَ والصفات كلها للمخلوقات، لا للخالق عز وجل، وهؤلاء غُلاة الجهمية، يقولون: لا نُؤمنُ بأنَّ الله له أسماء ولا بأنَّ الله له صفات.

الرابع: هم الذين لا يثبتون لله أي صفة ثبوتية: فكُل شيءٍ ثبوتي لا يثبتونه لله، وإنما يُثبتون لله السلبيات فقط، فيقولون مثلًا: ليس بمعدوم، ليس بجاهل، ليس بأعمى... وهؤلاء هم القرامطة[1] وأشباههم.

---

(١) القرامطة: فرعٌ من الإسماعيليين، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وجعفر من العلماء والفقهاء. وقد اختلف الشيعة على الإمام من بعده، فقالت طائفة: هو إسماعيل؛ لأنه ولده الأكبر، وقالت طائفة: الإمام هو موسى ولد جعفر؛ لأنّ أم

الخامس: الذين يُعطلون النفي والإثبات: فلا يَصفون الله بصفةٍ ثبوتية ولا بصفةٍ سلبية، فلا يُثبتون الإثباتَ ولا النفي، فيقولون: لا نقولُ إنه يَرضى، ولا نقولُ إنه لا يرضى، ولا نقولُ حي، ولا ميت، لا سميع ولا أصم، لا بصير ولا أعمى، فينفون عنه النفي والإثبات.

قالوا: لأنك لو أثبت لشبَّهته بالمثبَتات، ولو نفيتَ لشبَّهته بالمنفيات.

فأنت واقعٌ في التشبيه، سواء أثبت أم نفيت.

فنقول لهم: هل تقولون إنه موجود؟ فسيقولون: لا، هل تقولون معدوم؟ فسيقولون: لا. إذًا لا موجود ولا معدوم، وهل هذا ممكن أنْ يكون الشيء لا موجودًا، ولا معدومًا، أو موجودًا معدومًا؟ لا يمكنُ...

وانظر كيف يلعب الشيطان ببني آدم إلى هذا الحد....؟ [(١)] [(٢)].

= إسماعيل غابت به؛ لأنها كانت تخاف عليه لعلمها أنّ الناسَ كانوا يحبون أنّ الولاية تكون لموسى، فاختار الشيعة موسى للولاية، وهؤلاء هم الموسوية، أي أتباع موسى بن جعفر الصادق، والإسماعيلية أنصار إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم في باب الاعتقاد باطنية زنادقة مَلاحَدة، ومنهم أبو طاهر ابن حُسين القِرمطيُّ الزنديق، الذي سار إلى مكة في سبعمائة فارس، فاستباح الحجيج كلهم في الحرم، واقتلع الحجر الأسود، وردم زمزم بالقتلى. لمزيد من عقائدهم انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٢٠)، والبداية والنهاية لابن كثير (١١/ ٦١-١٦٠).

(١) شرح السفارينية (ص: ١٢٣-١٢٤)، باختصار وتصرف يسير، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٢/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) هؤلاء هم الباطنية القديمة من فرق الشيعة: قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج، فقالوا في الباري تعالى: إنا لا نقول: «هو موجود»، ولا «لا موجود»، ولا «عالم» ولا «جاهل»، ولا «قادر» ولا «عاجز» =

في اللغة: الشَّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المثْلُ، والجمع أشباه، وأشبه الشيء: ماثله.... والتشبيه التمثيل(١).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: شبه، والشَّبهُ، والشبيه: حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفيَّة، كاللون والطعم، وكالعدالة والظلم.

والشبهة: هو أن لا يتميَّزَ أحد الشيئين من الآخر، لما بينهما من التشابه، عينًا كان أو معنى، قال: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أي: يُشبه بعضه بعضًا لونًا، لا طعمًا، ولا حقيقة(٢).

والمعنى شرعًا: أنَّ أهلَ الأثر الذين تمسكوا بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة من الصحابة الكرام ومَن تبعهم بإحسان أثبتوا النصوصَ قرآنًا وسنة، وعملوا بمقتضاها في الظاهر والباطن.

فأثبتوا صفات الله عز وجل كما أثبتها لنفسه في كتابه، وكذا الصفات التي أثبتها له نبيه ﷺ ونفوا عن الله ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه نبيه ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تحريف ولا تكييف.

وكذا تمسّكوا بالتنزيه لله تعالى عن العيوب والنقائص، مع إثبات الكمال له من كل وجه.

قال جَلَّ ذكره: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] فالآية فيها الردُّ على المشبِّهة الذين شبَّهوا صفات الله تعالى

=

وكذلك في جميع الصفات - الملل والنحل للشهرستاني (١٩٦).

(١) لسان العرب (٥/ ٢٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٨٠).

بصفات المخلوق، ففيها نفي التمثيل، وردٌّ على الجهمية المعطِّلة الذين أثبتوا الاسمَ ونفوا الصفة، فقالوا: سميعٌ بلا سمع وعليمٌ بلا علم- تعالى الله عما يقول المعطِّلة علوًّا كبيرًا، ولذلك قال السلف رحمهم الله جميعًا: من شبه عبد صنمًا، ومن عطل عبد عدمًا.

تنبيه:

استعمالُ لفظ التمثيل أولى من استعمال لفظ التشبيه، لأسباب:-

الأول: أنَّ لفظ التمثيل جاء في القرآن، فالله تعالى نفاه بنص القرآن، ونفيُ التشبيه لم يرد في القرآن ولا في السنة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى] فالأولى استعمال ألفاظ القرآن؛ لأنَّ ألفاظ البشر يعتريها الخطأ والاختلاف والتناقض.

الثاني: نفيُ التشبيه مُطلقًا غيرُ صحيح؛ لأنَّ بين صفات الخالق والمخلوق قدر مُشترك، كالاشترك في مُسمّى الصفة.

مثال: الله تعالى أثبت لنفسه السمع والعلم والقدرة وغير ذلك، وهذه الصفات ثابتة للمخلوق بكيف معلوم، أما صفات الله تعالى فلا يَعلم كيفيتها إلا هو، فليس كمثله شيء.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مجردُ الاعتماد في نفي ما يُنفى على مجرد نفي التشبيه لا يُفيد؛ إذ ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجه، ويفترقان من وجه، بخلاف الاعتماد على نفي النقص والعيب، ونحو ذلك مما هو سبحانه وتعالى مُقدَّسٌ عنه، فإنَّ هذه الطريقة صحيحة.

وكذلك إذا أُثبِت له صفات الكمال، ونُفي مماثلة غيره له فيها، فإنَّ هذا نفي المماثلة فيما هو مُستحق له، وهذا حقيقة التوحيد، وهو أنْ لا يشركه

شيء من الأشياء فيما هو من خصائصه، وكل صفة من صفات الكمال فهو مُتصف بها على وَجْه لا يماثله فيه أحد.

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها: إثباتُ ما وَصف به نفسه من الصفات، ونفي مماثلته لشيء من المخلوقات.

فإنْ قيل: إنَّ الشيءَ إذا شابه غيره من وجه جاز عليه ما يجوز عليه من ذلك الوجه، ووجب له ما وجب له، وامتنع عليه ما امتنع عليه.

قيل: هب أنْ الأمر كذلك، ولكن إذا كان ذلك القدر المشترك لا يستلزمُ إثباتَ ما يمتنع على الرب سُبحانه وتعالى، ولا نفي ما يستحقه، لم يكن ممتنعًا، كما إذا قيل: إنه موجود، حي، عليم، سميع، بصير، وقد سمّى بعض المخلوقات: حيًّا، عليمًا، سميعًا، بصيرًا، فإذا قيل: يلزم أن يجوز عليه ما يجوز على ذلك من جهة كونه موجودًا، حيًّا، سميعًا، بصيرًا، قيل: لازمُ هذا القدر المشترك ممتنعٌ على الرب تعالى، فإنَّ ذلك لا يقتضي حُدوثًا ولا إمكانًا، ولا نقصًا، ولا شيئًا مما يُنافي صفات الربوبية.

وذلك أنّ القدْرَ المشترك هو مُسمّى «الوجود» أو «الموجود» أو «الحياة» أو «الحي» أو «العلم» أو «العليم»... والقدْرُ المشترك مُطلقٌ كلي، لا يختص بأحدهما دون الآخر، فلم يقع بينهما اشتراك لا فيما يختص بالممكن المحدَث، ولا فيما يختص بالواجب القديم، فإن ما يختص به أحدهما يمتنع اشتراكهما فيه[١].

---

(١) العقيدة التدمرية (ص: ١٢٤-١٢٦).

الثالث: نفي المشابهة بالكلية يُفضي إلى التعطيل التام.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا كان القدْرُ المشترك الذي اشتركا فيه صفة كمال كالوجود والحياة والعلم والقدرة، ولم يكن في ذلك ما يدل على شيء من خصائص المخلوقين، كما لا يدل على شيء من خصائص الخالق، لم يكن في إثبات هذا محذور أصلًا، بل إثبات هذا من لوازم الوجود، فكل موجودين لا بُد بينهما من مثل هذا، ومَن نفى هذا لزمه تعطيل وجود كل موجود.

ولهذا لما اطلع الأئمة على أنَّ هذا حقيقة قول الجهمية سموهم مُعطلة، وكان جهم يُنكر أنْ يُسمّى الله شيئًا، وربما قالت الجهمية: هو شيءٌ لا كالأشياء، فإذا نفى القدر المشترك مُطلقًا لزم التعطيل التام.

وهذا الموضع مَن فهمه فَهمًا جيدًا وتدبره زالت عنه عامة الشبهات، وانكشف له غلط كثير من الأذكياء في هذا المقام[1].

---

(١) المصدر السابق.

ثم قال الناظمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢٤ - فَكُلُّ مَا جَاءَ مِنَ الآيَاتِ أَوْ صحّ فِي الأَخْبَارِ عَنْ ثِقَاتِ

٢٥ - مِنَ الأَحَادِيثِ نُمِرُّهُ كمَا قَد جَاءَ فاسْمَعْ مِنْ نِظَامِي وَاعْلَمَا

الشرح

قوله: «فكل ما جاء من الآيات»:

«فكُل ما» ليست «كلما» التي هي أداة تكرار، بل «كل» مضافة إلى «ما» الموصولة، يعني: كل الذي جاء من الآيات، قاله ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «أو صح في الأخبار»:

قال أهل السنة: ما جاء عن رَسُول الله ﷺ في الصفات بأسانيد صحاح، فهو حَق[1].

وقوله «نُمِرّه كما قد جاء»:

أي: كل ما جاء عن الله تعالى وأخبرنا به رسُولنا ﷺ نجريه على ظاهره، ولا نحرفه، كما يفعل أهل البدع والأهواء.

فنثبت الصفة كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له نبيه ﷺ، وكذا نثبت معناها؛ لأنَّ الألفاظ لها معان، وصفاتُ الله تعالى لها معنى على الحقيقة لا على المجاز، ولكن بغير كيف.

مثال: الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، كما أخبرنا رسُولُ الله ﷺ؛ فنثبت صفة النزول، ونثبت معنى النزول، أي أنه ينزل

---

(١) الحجة في بيان المحجة (ص: ٢٢٠).

حقيقة لا مجازًا، فلا نقول: ينزل أمره أو رحمته، ولكن كيف ينزل؟ نقول: لا نعلم، ينزل نزولًا يليق بجلاله وكماله وعظمته، وهكذا في كل الصفات، نثبت الصفة والمعنى على الحقيقة، ولا نُكيِّفُ الصفة.

فالمكيفة: هم الذين يطلبون تعيين كُنه[١] صفات الباري، وهذا مما استأثر الله به، فلا سبيل إلى الوصول إليه[٢].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتكييف: هو أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيد بمماثل[٣].

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئل عن صفات الله تعالى: حرام على العقول أنْ تمثل الله تعالى، وعلى الأوهام أن تحده، وعلى الظنون أن تقطع، وعلى النفوس أن تنكر، وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى الخواطر أن تحيط، وعلى العقول أن تعقل، إلا ما وصف به نفسه أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام[٤].

قال قوَّام السنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبو يعلي: أنكر أحمد - رحمة الله عليه - التشبيه، وقال أئمة أصحاب الحديث في أخبار الصفات: أَمِـرُّوها كما جاءت.

وفي رواية المروزي عن أحمد: أحاديثُ الصفات تمر كما جاءت[٥].

(١) كُنْهُ كل شيء: قَدْرُه ونهايتُه وغايته. اللسان (٧/ ٧٤٨).
(٢) التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، للشيخ فالح بن مهدي (ص: ١٣).
(٣) شرح القواعد المثلى (ص: ٨١).
(٤) نقله عنه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٦).
(٥) الحجة في بيان المحجة (ص: ٢٢٠).

قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في رواية حنبل: يضحك الله، ولا نعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ.

وقد نصَّ أحمد على القول بظاهر الأخبار من غير تشبيه ولا تأويل[(١)].

قال أحمد بن نصر رَحِمَهُ اللَّهُ: سألتُ سُفيان بن عيينة عن حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُمسكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ»[(٢)].

وحديث: «إِنَّ قَلْبَ ابْنِ آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»[(٣)].

وحديث: «إِنَّ اللهَ يَعْجَبُ أَوْ يَضْحَكُ»[(٤)].

فقال سُفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: هي كما جاءت، نقر بها ونحدِّث بها بلا كيف...[(٥)].

قال الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه الأحاديث مما لا يُدرك حقيقة علمه بالفكر والرواية[(٦)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**إن قلوب بني آدم كلها**... الحديث».

وله لفظ عند النسائي في «الكبرى» (٧٨١٢) «**إن قلب ابن آدم**» واللفظ المذكور عند الطيالسي (١٧١٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣١٦) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وعند ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٧) و«المصنف» (١١/ ٣٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه ابن خُزيمة في «التوحيد» (٢/ ٥٧٣) وقال ابن حجر في «إتحاف الخيرة» (١٠٨٨) عن روايته: «فيه بشر بن الحسين، ضعيف جدًّا».

وله شواهد يصح بها، وله لفظ عند النسائي (٣١٦٥) وصححه الألباني.

(٥) المراسيل لأبي داود (٧٥).

(٦) الحجة في بيان المحجة (ص: ٢٢٠).

وعن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه جاء رجُلٌ إليه فقال له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟... فقال: الكيفُ غير معقول، والاستواءُ غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالًّا، وأمر به فأخرج [(١)].

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فالكيفُ المجهول هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، وأما ما يُعلم من الاستواء وغيره فهو من التفسير الذي بيَّنه الله ورسوله [(٢)].

الخلاصة: أنَّ عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله عز وجل – التي جاءت في الكتاب وصحيح السنة- أنْ يُمرُّوها كما جاءت، من غير تحريفٍ ولا تعْطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

ونحترز من مذهب المفوِّضة الذين يُثبتون الصفة، ويقولون: نُفوِّض المعنى، أي لا نتعرضُ له، وهذا ضلالٌ؛ لأنَّ الصفة لها معنى، واللفظ جاء لمعنى، ولكن بدون كيف.

مثال: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (١٠٤)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص: ٥٦١)، وفي الاعتقاد (ص: ١١٩).
وقال الذهبي في العلو (ص: ١٠٣): «وهذا ثابت عن مالك».
وقال ابنُ حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٦، ٤٠٧): «إسناده جيد».
وأخرجه اللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤)، وابن قدامة في «العلو» (١٠٤)، وأبو عثمان الصابوني في «اعتقاد السلف» (٢٤-٢٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٥١)، والذهبي في «السير» (٨/ ١٠٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٥٣).

نثبت صفة الاستواء، ونثبت معنى الاستواء، وهو العلو والارتفاع، بإجماع السلف، كما نقل ذلك ابن القيم [١].

ولكن كيف استوى؟ نقول: لا نعلم كيفية صفات الله، لا يعلمها إلا هو سبحانه لأن تكييف الصفة يأتي من أحد أمور:

١ - بإخبار الله ورسوله، ولم يخبرنا الله ورسوله عن كيفية الصفة.

٢- برؤية أحد لله ووصفه لنا، وهذا لم يكن في الدنيا.

٣- أن يكون له مماثل - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- فهو سبحانه يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فأنى لنا أن تعرف الكيفية إذًا.

مثال آخر: قال جلّ ذكره: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر] نثبت صفة المجيء لله تبارك وتعالى، ومعنى المجيء، فالله تعالى يجيء حقًّا، ولكن كيف يجيء؟

نقول: لا نعلم الكيف، يجيء مجيئًا يليق بجلاله وكماله وعظيم سلطانه، وهكذا في كل الصفات.

فالله تبارك وتعالى كلَّف العبادَ بالتعبد بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، فكيف نتعبد بشيء لا نعلم معناه؟ فلا بُد من ثبوت الصفة والمعنى، ونمر نصوص الصفات كما جاءت، أي بدون كيف.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه عن المفوضة:

من شر أقوال أهل البدع والإلحاد [٢]. انتهى.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٣٤٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

وقوله: «فاسمع من نظامي واعلما»:

أي: سماع تفهم من منطوق نظامه، ومفهومه، ومحترزاته، ومعلوماته.

واعلم: علم تحقيق، وتحرير، وتدقيق، واعتقده، فإنه نهج السلف، وما خالف مذهب السلف نبهنا عليه، وبينا مذهب السلف، قاله ابن قاسم.

قال الناظمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦ - وَلَا نَـــرُدُّ ذَاكَ بِـــالعُقُولِ   لِقَـــوْلِ مُفْتَـــرٍ بِـــهِ جَهُـــولِ

الشرح

معنى مفتر لغة: فَرى فلانٌ كذبًا، إذا خلقه، وافتراه: اختلقه، والاسم: الفرية، وفُلانٌ يَفري الفِريَّ، إذا كان يأتي بالعَجَب في عمله... وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم] أي: مصنوعًا مُختلقًا، وقيل: عظيمًا[1].

وجهول: صفة لمفتر، وهي من صيغ المبالغة؛ لشدة جهله.

أي: لا نردُّ الواردَ في كتاب الله تعالى وسُنة نبينا ﷺ إذا لم يقبله عقلُنا، لشبهة يُلْقها مُفتر جَهول، كما يفعل أهل البدع والأهواء الذين يُحكِّمون المنطق وعلم الكلام ويُسمونها البراهين العقلية، ويردوا النصوصَ أو يتأوَّلون تأويلًا فاسدًا إذا خالفت عقولهم الضالة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] أي: لا تتبع ما ليس لك به علم، وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: ٣٧].

فبابُ الصفات بابٌ كثر فيه الكلام، وضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام أقوام.

ومَن نظر في مقالات هؤلاء وجَد العَجب، وعلم أنّ سَببَ ضلالهم انحرافهم عن الاعتصام بالكتاب والسنة بفهم الصحابة الكرام ومَن تبعهم

---

(١) الصحاح (ص: ٨٠١) مادة (فرا- فرى).

بإحسان. فهؤلاء قدَّموا العقل على النقل؛ فضلوا وأضلوا؛ لأنّ تقديمَ العقل على النقل يتضمن القَدْحُ في العقلِ والنقل معًا، وذلك لأنَّ العقلَ الصريح لا يُعارضُ النقلَ الصحيح، ويعلم أنه مهما أُوتي من علم فعلمه إلى الوحي كقطرة ماءٍ إلى بحر.

ولذا كان أسْعدُ الناسِ بفَهم نُصوص الصفات هم أهْلُ السنة والجماعة، أصحاب العقول الصريحة، الذين يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه، وما أثبته له نبيه ﷺ وينفون ما نفاه الله تعالى عن نفسه ونفاه عنه نبيه ﷺ بأدلة الكتاب والسنة الصحيحة، من غير تمثيل ولا تأويل فاسد، ومن غير تعطيل ولا تكييف؛ لعلمهم الكامل ويقينهم الجازم أنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

مسألة: اعلم أنّ النفي المَحضَ ليس كمالًا؛ فلا بُد من إثبات كمال الضد:

نفى الله تعالى عن نفسه كل صفة نقص، مع إثبات كمال الضد؛ لأنَّ الإثباتَ بعد النفي أوكد في المعنى، ولأنَّ النفيَ المحض ليس كمالًا ولا مَدحًا.

قال جلّ ذكره: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فنفى وجود آلهة غيره، ثم أثبت الكمالَ لنفسه بتفرده بالإلوهية، ونفى عن نفسه اتخاذ الولد والشريك والولي لكمال غناه عن الولد والشريك والولي عن الخلق جميعًا، فقال جلّ ثناؤه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء] ونفى عن نفسه الظلم لكمال عدله وغناه عن الظلم ولكمال رحمته، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت].

ونفى عن نفسه السِّنَة والنوم لكمال حياته وكمال قيوميته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فنفى عن نفسه كل صفة نقص، مع إثبات الكمال له سبحانه وتعالى، وقد ذكر هذا المعنى ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله [(١)].

وكذا نفى رسول الله ﷺ عن الله تعالى صفات النقص، وأثبت له الكمال. فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرَفًا ، وَلَا نَعْلُو شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**»[(٢)].

فنفى عن الله تعالى صفات النقص، ثم أثبت له الكمال.

منهجُ القرآن إثباتُ صفات الكمال للّه تعالى على وجه التفصيل، ونفي صفات النقص عن اللّه تعالى على وجه الإجمال:

وهذا مَنهجُ أهل السُّنة والجماعة في الكلام عن الصفات، يُفصلون في الإثبات ويجملون في النفي، فينفون عنه سبحانه كل نقص، ولو لم يرد به نص، عكس أهل البدع والأهواء، وطريقة أهل الكلام المذمومة، فإنهم يذكرون صفات الكمال على وجه الإجمال، ونفي صفات الله تعالى على وجه التفصيل، فالتعبيرُ عن الله جلّ في علاه كما جاء في محكم التنزيل وكما جاء في السنة المطهرة أوْلى من التعبير الذي ابتدعه أهل الكلام المذموم؛

---

(١) راجع إنْ شئت: «العقيدة التدمرية» (٥٧-٥٩)، و«الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٢)، و«طريق الهجرتين» (ص: ١١٤)، «وبدائع الفوائد» (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

لأنّ النفي المفصل فيه نقص وسُوء أدَب مع الله، والنفي المجمَل فيه أدبٌ وفيه مَدح، وخاصة إذا جاء بعده إثبات الكمال المطلق، كما سبق بيانه.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالرسلُ وصفوا الله بصفات الكمال، ونزَّهوه عن النقائص المناقضة للكمال، ونزَّهوه عن أنْ يكُون له مثل في شيءٍ من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وَجْه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل، فأتوا بإثبات مُفصَّل ونفي مُجمَل(١).

ولذلك قال الناظمُ:

٢٧ - فَعَقْدُنَا الإِثْبَاتُ يا خَليلي   مِنْ غَيْرِ تَعِطيلٍ وَلَا تمثِيلِ

ومعنى الخليل لغة: كالخِلِّ، وقولهم في إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: خليل الله.

قال ابنُ دريد: الذي سمعتُ فيه أنّ مَعنى الخليل: الذي أصْفى المودّة وأصحّها، قال: ولا أزيد فيها شيئًا؛ لأنها في القرآن، يعني قوله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ۝١٢٥﴾ [النساء]. والجمعُ أخِلاء وخُلَّان، والأنثى خَليلة، والجمعُ خليلات.

قال الزجَّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخليلُ: المُحبُّ الذي ليس في محبته خَلَل، وقوله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ۝١٢٥﴾ [النساء] أي: أحبه محبة تامة لا خلل فيها(٢).

وقد سبق بيان معنى التعطيل وأقسامه، وكذا بينا معنى التمثيل.

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدَّل دينَ المسيح (٣/ ١١١)، ومجموع الفتاوى (٦/ ٣٧، ٥١٥).

(٢) اللسان (٢/ ٢٠٦) مادة (خلل).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨ - وَكُـلُّ مَـنْ أَوَّلَ فِـي الصِّـفَاتِ   كَذَاتِــهِ مِــنْ غيــرِ مَــا إِثْبَــاتِ

٢٩ - فَقَدْ تَعَدَّى وَاسْتَطَالَ واجْتَرَى   وَخَـاضَ فِـي بَحْـرِ الهَـلَاكِ وَافْتَـرى

الشرح

معنى التأويل لغة: آل يؤول مآلًا، أي: رجع، ومنه آل الملك رعيته إذا ساسهم وأحسن رعيتهم[(١)].

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: التأويل من الأول، أى: الرجوع إلى الأصل، وهو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه قولًا كان أو فعلًا [(٢)].

وهذا هو المعنى الأول للتأويل.

والمعنى الثاني: التفسير: أوَّل الكلام تأويلًا، قدره وفسَّره.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: التأويلُ في كلام العَرب: التفسير، والمرجع، والمصير[(٣)].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: التأويلُ يكون بمعنى التفسير، كقولك: تأويلُ هذه الكلمة على كذا، ويكون بمعنى: ما يئول إليه الأمر [(٤)].

والتأويلُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:-

الأول: التأويلُ المَحمود: وهو التفسيرُ والتعبير، وبيانُ المعنى، كما تقدم

(١) لسان العرب (١/ ٢٧٦) مادة (أول) وتاج العروس (٧/ ٢١٥).
(٢) المفردات (ص: ٩٩).
(٣) جامع البيان (٣/ ٢٥٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٩).

من كلام الطبري والقرطبي. وفي الحديث: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ دعا لابن عَبَّاس، فقَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»(١).

وقول جابر رضي الله عنه في حديث حجة الوداع الطويل: «وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ»(٢).

الثاني: التأويلُ الذي لا يعلمُ حقيقته إلا الله: قال جَلّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال ابنُ كثير رحمه الله في معرض شرحه للآية:

التأويلُ يُطلَقُ ويُرَادُ به في القرآن معنيان:

أحدهما: التأويلُ بمعنى حقيقة الشيء، وما يئول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰىَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِى تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإنْ أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأنَّ حقيقة الأمور كُنهها لا يَعلمه على الجلية إلا الله عز وجل.. وأما إنْ أُريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء، كقوله: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: بتفسيره.. فالوقف على: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٢٨، ٣٣٥) وله لفظ آخر عند البخاري (١٤٣) ومسلم (٣٤٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالًا منهم(١).

الثالث: التأويلُ المذموم: وهو صرفُ الكلام عن حقيقته التي تُراد منه وهو صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى معناه المرجوح لدليل يقترن به، وهذا التأويل منه الصحيح ومنه الفاسد، والفاسد ما تسلط به المتأخرون على نصوص الصفات وحدها، فحرفوا معانيها وصرفوها عن المتبادر منها إلى احتمالات بعيدة؛ كتأويل أهل البدع لصفات الله تعالى، مثال ذلك قولهم في تفسير ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] يقولون: استوى بمعنى استولى.

وقوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] يقولون: وجه الله ثوابه، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] يقولون: جاء أمر ربك، وينفون صفة المجيء، وقوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] يقولون: المراد باليد القُدْرة، ولا يثبتون اليدين لله، إلى غير ذلك من تعطيل وتأويل فاسد.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: لفظُ التأويل يُرادُ به: التفسيرُ المبيِّن لمراد الله منه، فذلك لا يُعَاب بل يُحْمَد، ويُرادُ بالتأويل الحقيقة التي استأثر الله بعلمها، فذلك لا يعلمها إلا هو... وأما التأويلُ المذمومُ والباطل: فهو تأويلُ أهل التحريف والبدع الذي يتأولونه على غير تأويله، ويدَّعون صرفَ اللفظ عن مَدلوله إلى غير مَدلوله بغير دَليل يُوجب ذلك(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) العقيدة التدمرية (١١٢، ١١٣) باختصار.

قال أبو عُثمان الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ في مَعرض كلامه عن اعتقاد السَّلف في صفات الله:

ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه، فيقولون أنه خلق آدم بيديه، كما نص سبحانه عليه في قوله -عز من قائل-: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] ولا يحرفون الكلم عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة والجهمية -أهلكهم الله- ولا يكيفونهما بكيف أو تشبيهها بأيدي المخلوقين تشبيه المشَبِّهة- خَذلهم الله... إلى أنْ قال: وكذلك يقولون في جَميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة والقول والكلام والرضا والسخط والحب والبغض والفرح والضحك وغيرها، من غير تشبيه لشيءٍ من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة، ولا إضافة إليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه، بتأويل مُنكَر مُستنكَر، ويجرون على الظاهر، ويَكِلون علمه إلى الله تعالى، ويُقرون بأنَّ تأويله لا يعلمه إلا الله، كما أخبر الله سُبحانه عن الراسخين في العلم أنهم يقولون في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران][1].

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ١٦٢-١٦٤) باختصار.

مسألة: المعتزلة والجَهمية مَن هم؟؟

المُعتزلة: هم أتباعُ عمرو بن عُبيد، وواصل بن عطاء الغزال، وأصحابهم، سُموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسَن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في أوائل المائة الثانية، وكانوا يجلسون مُعتزلين، فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة[(١)].

جُملة من عقائد المعتزلة وأصولهم:

أصولُ المعتزلة الخمسة التي يبنون عليها أمرهم، فقد أُخبرنا عن اختلافهم فيها، وهي: التوحيد، والعَدْل، والمنزلة بين المنزلتين، وإثبات الوَعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قاله الأشعري [(٢)].

ومن عقائدهم الباطلة:

١- نفي رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة، وقد جاءت في ذلك روايات بلغت حد التواتر.

٢- إنكارُ شفاعة رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمُذنبين، وردّوا الروايات في ذلك عن السلف المتقدمين.

٣- جَحدوا عذابَ القبر، ونفوا أنَّ الكفارَ في قبورهم يُعذبون، وقد أجمع الصحابة والتابعون على ذلك، بأدلةٍ من الكتاب والسنة.

٤- قالوا: القرآنُ مخلوق، نظيرًا لقول إخوانهم من المشركين الذين

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٥١٩)، «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٢٨).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين (ص: ٢٧٨).

قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥].

إلى غير ذلك من عقائدهم الفاسدة [(١)]. وقد ذكرتها باستفاضة في موضع آخر [(٢)].

الجهمية:

هم المنتسبون إلى الجهْم بن صفوان، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل، وقد أخَذ ذلك عن الجعْد بن درهم، الذي ضحَّى به خالد بن عبد الله القسري بواسط، وكان جَهم بعده بخُراسان، فأظهر مَقالته هناك، وتبعه عليها ناس بعد أنْ ترك الصلاةَ أربعين يومًا شَكًّا في ربه.

جملة من عقائد الجهمية:

١- تعطيلُ ونفي صفات الله عزّ وجل، ومُناقضتهم لتوحيد الرسل، فالجهمية ينفون صفات الله تعالى، وغُلاتهم ينفون الأسماء، ويزعمون أنَّ اشتراكَ الخالق والمخلوق في المسمّى يقتضي الاشتراك في الصفة.

٢- القولُ بخلق القرآن، كالمعتزلة.

٣- القولُ في القَدَر بالجبر، يزعمون أنّ الإنسانَ مجبورٌ مُطلقًا لا حُرية له، ولا مَشيئة ولا اختيار.

٤- الإيمانُ عند الجهمية تصديقُ القلب، فالجهمية كالمرجئة في باب الإيمان [(٣)].

---

(١) راجع: العقيدة الطحاوية (ص: ٥١٩)، ومقالات الإسلاميين (ص: ١٥٧-٢١٦)، ومجموع الفتاوى (١/ ١٠٨، ٣١٤) (٤/ ٢٨٤).

(٢) راجع - إن شئت- كتابي: «عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية».

(٣) راجع: منهاج السنة (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤)، والفتاوى (٥/ ٢٧٤، ٣٤٢، ٥٧٦) =

إلى غير ذلك من عقائدهم الفاسدة، وقد ذكرتها أيضًا باستفاضة في موضع آخر (١).

وقوله: «كذاته من غير ما إثبات»:

يبيّن الناظم بإشارة منه أنَّ القولَ في الذات كالقول في الصفات، وهذا اعتقادُ أهل السنة قاطبة؛ لأنّ الصفات لا تنفكُّ عن الذات، ولا هي بائنة منه، ولا محدثة، أي كانت بعد أنْ لم تكن.

بل نقول: اللهُ سبحانه تعالى لم يزل وما زال بصفاته القائمة بذاته، بصفاته الأزلية الأبدية، التي لا يسبقها عدم، ولا يلحقها الفناء، فهو سُبحانه أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ» (٢).

قال الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللهُ في مُناظرته للجَهمية: لا نقول إنَّ الله لم يزل وقُدرتهُ، ولم يزل ونُورَهُ، ولكن نقولُ: لم يزل بقُدْرته وبنوره، لا متى قدر؟ ولا كيف قدر؟ (٣).

=

(٨/ ٤٦٠) لابن تيمية، ومقالات الإسلاميين (ص: ٢٨٠-٥٨٩)، والصواعق المرسلة (١/ ١٧٥)، والملل والنحل (١/ ٩٩).

(١) راجع – إن شئت- كتابي: «عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية».

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) الرد على الزنادقة والجهمية (ص: ٢٨٠).

قال ابنُ بطة رَحِمَهُ اللهُ في معـرض ردِّه على الجهمية:

إنا لا نقول كما تقول: إنَّ الله لم يزل، والقرآن لم يزل، والكلام لم يزل، والعلم لم يزل، والقوة... ولكن نقولُ كما قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] وكما قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

فنقول: إنّ الله لم يزل بقوته، وعظمته، وعزته، وعلمه، وجُوده، وكرمه... ليست هذه الصفات ولا شيء منها بائنة منه، ولا منفصلة عنه، ولا تتجزأ ولا تتبعَّض منه، لكنها منه، وهي صفاته [(١)].

قال ابنُ أبي العز رَحِمَهُ اللهُ: اللهُ تعالى هو الذاتُ الموصوفة بصفاته اللازمة، ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «لا زال بصفاته» ولم يقُل: (لا زال وصفاته) لأنَّ العطفَ يُؤذِن بالمغايرة، وكذلك قال أحمد في مُناظرته الجهمية... وساق كلامَ أحمد، كما تقدّم.

ثم قال: فإذا قُلتُ: أعوذ بالله، فقد عُذتُ بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبلُ الانفصالَ بوجه من الوجوه.

وإذا قلتُ: أعوذ بعزة الله، فقد عُذتُ بصفة من صفات الله تعالى، ولم أعذ بغير الله.

وهذا المعنى يُفهَمُ من لفظ الذات، فإنّ «ذات» في أصل معناها لا تُستعمل إلا مُضافة، أي: ذات وجود، ذات قدرة، ذات عز... فـ«ذاتُ كذا» بمعنى «صاحبة كذا» تأنيث «ذو»، هذا أصل معنى الكلمة.

---

(١) الإبانة (٢/ ١٨٥-١٨٧) باختصار.

فعُلم أنَّ الذاتَ لا يُتصوَّرُ انفصالُ الصفات عنها بوَجْه من الوجُوه، وإنْ كان الذهن قد يفرض ذاتًا مُجردةً عن الصفات، كما يفرضُ المحَال، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[(١)][(٢)].

قوله:

٢٩ - فَقَدْ تَعَدَّى وَاسْتَطَالَ واجْتَرَى   وَخَاضَ فِي بَحْرِ الهَلَاكِ وَافْتَرى

ذمَّ صاحبُ النظم في البيت السابق مَن تأوّل نصوصَ الصفات تأويلًا فاسدًا.

ثم قال: «فقد تعدى»:

أي تعدّى على حَق الله تعالى، وذلك بالتأويل الفاسد، فأخرج النصوص عن مُراد الله تعالى ومُراد رسُوله ﷺ.

«واستطال»:

وتطاول: إذا علاه وترفع عليه[(٣)].

والطَّولُ: خُص به الفضل والمنَّ، قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٦][(٤)].

والمعنى: أنّ هذا المتأول استعلى على السَّلف الصالح الذين هم أعلم

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٧٧، ٧٨) باختصار.

(٣) اللسان (٥/ ٦٧٠).

(٤) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٤٤).

الناس بمراد الله، وأكثرهم فَهمًا عن الله تعالى وعن رسُوله ﷺ، فأنكر أقوالهم في باب الصفات، وتمسك برأيه الذي لا دليل عليه من الكتاب أو السنة أو الإجماع.

وقوله: «واجترى»:

أي: بذلك التأويل الفاسد قد تجرأ على الله تعالى بتعطيل أو تحريف نصوص الصفات، وفسَّرها بغير مُراد الله تعالى، وقد قال جَلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومِن أعظم الكذب والافتراء: أنْ تنفي أو تثبت شيئًا عن الله، لم ينفِهِ الله عن نفسه أو لم يثبته لنفسه؛ فتُضلّ الناسَ بهذا التأويل الفاسد.

قوله: «وخاض في بحر الهلاك وافترى»:

يعني: مشى ودخل طريق الهلاك والضلال، وترك طريق النجاة، وهو طريقُ أهل السنة الذين حملوا كلام الله تعالى على مَعناه، من غير تحريف، ومن غير تأويل فاسد، ولم يفتروا على الله الكذب، بحمل كلامه على غير مُراده.

قال رحمه الله تعالى:

٣٠ - أَلَمْ تَرَ اخْتِلَافَ أَصْحَابِ النَّظَرِ ... فِيهِ وَحُسْنَ مَا نَحَاهُ ذُو الأَثَرِ

٣١ - فَإِنَّهُمْ قَدِ اقْتَدَوْا بِالمُصْطَفَى ... وَصَحْبِهِ فَاقْنَعْ بِهَذَا وَكَفَى

الشرح

عَقد صاحبُ النظم مُقارنة بين ما عليه أصحاب النظر، وما عليه أصحاب الأثر.

فأصحابُ النظر: هم أصحابُ الأدلة العَقلية، الذين يَستدلون بقواعد المنطق وأقوال الفلاسفة في الحُكم على الشَّرع، وقد جَعل الله تعالى وظيفة العقل هي فَهم الشَّرع لا الحُكم عليه، وهؤلاء يُسمونهم النُّظار، الذين تركوا الحُكم بالكتاب والسنة، فلا يكادُ أحد منهم يستدل بقول الله تعالى أو قول رسول الله ﷺ، فجُل كلامهم جدالٌ وضَلالٌ، ولذا تجد بأسهم بينهم شديدًا، والجدالُ والخلافُ بينهم لا يكادُ ينتهي، وقد نزع الله تعالى البركة من أقوالهم وأعمالهم، فلا تجد ثمرةً لأعمالهم في الدنيا، فضلًا عن الآخرة.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: إذا تعارض الشرعُ والعقل وجَبَ تقديمُ الشرع، لأنَّ العَقلَ مُصدِّق للشَّرع في كُل ما أخبَر به، والشرعُ لم يُصدّق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوفٌ على كل ما يخبر به العقل.

كما قال بعضهم: يكفيك من العقل أنْ يُعلمك صدق الرسُول ومعاني كلامه. وقال بعضهم: العقل مُتولٍّ، وليَّ الرَّسول، ثم عزل نفسه؛ لأنَّ العقلَ دَلَّ على أنّ الرسولَ ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

والعقلُ يدُلُّ على صدق الرسُول دلالة عامة مُطلقة... إلى أنْ قال: إذا علم الناسُ وشهدوا أنّ فُلانًا خبير بالطب أو بالقيافة أو الخرص أو تقويم السلع ونحو ذلك، وثبت عند الحاكم أنه عالم بذلك دونهم، أو أنه أعلم منهم بذلك، ثم نازع الشهود الشاهدون لأهل العلم بالطب والقيافة والخرص والتقويم أهل العلم بذلك، وجب تقديمُ قول أهل العلم بالطب والقيافة والخرص والتقويم على قول الشهود الذين شهدوا لهم[(١)].

قال البربهاري رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم- رحمك الله- أنَّ الدِّينَ إنما جاء من قِبل الله تبارك وتعالى، ولم يُوضع على عُقول الرجال وآرائهم[(٢)].

وقوله: «وحُسن ما نحاه ذو الأثر»:

نحاه: أي اتبعه.

فذو الأثر: وهم أهلُ السنة – كما سبق بيان ذلك- تجد أقوالهم مُنضبطة بالكتاب والسنة، لذا إذا قرأت كتبهم في الاعتقاد لا تجدُ بينهم خلافًا؛ لأنَّ المنبعَ واحدٌ، وهو قال الله، قال رَسُولُ الله.

أما الخلافُ بينهم في مسائل الفقه والاجتهاد فهذا لا يُفرقُ بينهم، تجد الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي إخوة يحب بعضهم بعضًا ويصلي بعضهم خلفَ بعض، ويتزاوجون فيما بينهم، لا تجدُ بينهم اختلافًا، وإذا حَكم واحد منهم في مسألة لم يخالف فيها دَليلًا ارتفع الخلاف وتبعوه، لا تجدُ بينهم نزاعًا ولا اختلافًا، وإنما هذا تجده عند المخالفين للكتاب

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٨٥، ٨٦) باختصار.

(٢) شرح السنة للبربهاري (ص: ٣٦).

والسنة، فهُم الذين تكونُ بينهم فتنٌ، وتكون بينهم شحناء وخُصومة، ويكون بينهم تراشقٌ وتكفير وتفسيق وتبديع، إلى غير ذلك [(١)].

وقوله: «فإنهم قد اقتدوا بالمصطفى وصحبه..»:

هذا مُطابقٌ لقوله ﷺ: «**هُم مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[(٢)].

لأنَّ الصحابة هم أفضلُ الناس بعد رَسُول الله ﷺ. قال رَسُولُ الله ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[(٣)].

ويدُلُّ الحديثُ أيضًا على أنَّ أفضل الناس بعد الصحابة التابعون ثم الذين يلونهم، أي: تابعوا التابعين؛ لأنهم اقتدوا بالصحابة رضي الله عنهم والصحابة: كان قُدوتهم رسُولُ الله ﷺ، فكانوا أفضل البشر بعد الأنبياء -عليهم السلام-.

وقوله: «فاقنعْ بهذا وكفى»:

أي اقنع بما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهذا يكفيك، ولم لا؟! وهو الصادقُ المعصوم الذي لا ينطقُ عن الهوى، وأي عاقل لا يسعه أنْ يترك قولَ رسُول الله ﷺ لقول بشر يُصيب ويخطئ، وكذا نقنع بما كان عليه أصحابه رضي الله عنهم لأنهم هم الذي أخذوا العلمَ من مِشْكاة النبوة، فمَن أحسنُ قولًا منهم بعد النبي ﷺ؟! لا أحد، وهذا هو الذي يميز أهلَ الأثر عن أهل النظر. وبالله التوفيق.

---

(١) ملتقط من كلام الشيخ الفوزان في شرح هذه العقيدة، بزيادة وتصرف.

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث عبد الله رضي الله عنه.

الباب الأول
في معرفة اللّه تعالى

الباب الأول
في معرفة الله تعالى

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٢ - أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى العَبِيدِ   مَعْرِفَةُ الإِلَهِ بِالتَّسْدِيدِ

٣٣ - بِأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا نَظِيرَ   لَهُ وَلَا شِبْهٌ وَلَا وَزِيرَ

الشرح

كُلُّ ما مَضى من الأبيات جَعلها الناظمُ مُقدِّمة، ثم جَعل البابَ الأول في معرفة الله تبارك وتعالى.

قوله: «أول واجب على العبيد...»:

معنى الواجب لغة: وَجَب الشيءُ يجبُ وجوبًا أي لزِم، وأوجَبَهُ هو، وأوجَبَه الله، واسْتَوْجَبَه أي: استحقَّه[(١)].

وشَرعًا: هو ما يُثاب فاعله امتثالًا لأمر الله تعالى، ويُعاقب تاركه.

والواجبُ والفَرضُ عند الشافعي سَواء، وهو كل ما يُعاقَب على تركه، إلا أنْ يعفو عنه الله تعالى[(٢)].

والعبيدُ: جَمعُ عبد، من العُبودية.

وأصْلُ العبودية: الخضوعُ والتذلل... وتعبَّد اللهُ العبدَ بالطاعة، أي: استعبده. والعبادة: الطاعة مع الخضوع. ومنه: طريقٌ مُعبَّد، إذا كان مُذللًا

---

(١) اللسان (٩/ ٢١٧).

(٢) انظر: المصدر السابق، والمحصول (١/ ١٥)، والأصول من علم الأصول (ص: ٤٧).

بكـثرة الوطء[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العَبدُ بمعنى العابد، فيكون عابدًا لله لا يعبدُ إلا إياه[٢].

والعبودية قسمان:

عبودية اضطرار وقهر: سواء أقر بها أو أنكر، فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم].

وعبودية اختيار: وهي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله[٣].

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ﴾ [الإسراء: ٦٥].

معنى الإله لغة: أله إلاهَةً، وأُلُوهةً، وأُلُوهِيَّةً: عبد عبادة، ومنه لفظ الجلالة.. والتأله: التنسكُ والتعبُّد[٤].

قال ابنُ فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أله... وهو التعبد، فالإله: الله تعالى، سُمّي بذلك لأنه المعبود، ويُقال: تألّه الرجل إذا تعبَّد[٥].

قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإله: الله عز وجل، وكُلُّ ما اتخذ معبودًا إله عند

---

(١) لسان العرب (٦/ ٤٨-٥٠) مادة (عبد).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٧).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) القاموس المحيط (ص: ١١١٩) مادة (أله).

(٥) مقاييس اللغة (١/ ١٢٧) مادة (أله).

مُتخذه، والجمع آلهة [١].

وشرعًا: الذي يألهه القلبُ بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك[٢].

قوله:

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى العَبِيدِ مَعْرِفَةُ الإلهِ بالتَّسْدِيدِ

أي: أول ما يجب على العبد، وهو معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالى فطرية ضرورية، وليست نظرية.

«ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر، ولا الشك؛ كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم.

بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان»[٣].

ثم اعلم أنَّ الناظمَ رحمه الله تعالى وافق مَن يقول: إنَّ معرفة الله تعالى نظرية.

والصحيحُ: أنها فطرية ضرورية، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

---

(١) لسان العرب (١/ ١٩٦-١٩٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٧، ١٥٨).

(٣) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٢٦).

وفي الصحيحين، عَنْ أبي هُرَيْرَة مَرفُوعًا: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»[(١)].

وفي صحيح مُسلم، عَنْ عِيَاضٍ الأنْصَاري في الحديث القُدسي: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ**»[(٢)].

فالفطرة: المُرادُ بها: الإسلام، كما قاله أبو هُريرة وأبو شهاب.

وسُئل مجاهد عن الفطرة؟ فقال: «هي الإسلام»، وكذا قال قتادة[(٣)].

ثم قال مجاهد: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، قال: لا تبديل لدين الله. وقاله سعيد بن جُبير، وقتادة، والنخعي، وكلام السلف في ذلك كثير يصعب استيفاؤه.

قال الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية المروزي: معرفةُ الله تعالى في القلب تتفاضل وتزيد.

وهذا يدُلّ على أنّ المعرفةَ أصلها في القلب فطرية، ثم إنها تزيد وتتمكن بتظاهر الأدلة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حِمار المُجاشِعيِّ وفيه: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**» أي: استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل - كذا فسَّره الهروي وآخرون. مسلم بشرح النووي (٩/ ٢١٦).

(٣) نقل ابن عبد البر الإجماع على أن الفطره الإسلام، انظر: «فتح الباري» (٣/ ٢٤٨) وحكاه ابن بطال عن أبي هريرة وعكرمة والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة والزهري. «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٣/ ٣٧٠).

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ذهب طوائف من النظار إلى أنّ معرفة الله واجبة، ولا طريقَ إليها إلا بالنظر، فأوجبوا النظر على كل أحَد، وهذا القولُ إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة ونحوهم، ولهذا قال أبو جَعفر السمناني وغيره: إيجابُ الأشعري النظر في المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال(١).

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية رضي الله تعالى عنه: الذين أوجبوا النظرَ ليس معهم ما يدُلّ على عُموم وجوبه، إنما يدُلّ على أنه قد يجب، فإنهم قالوا: الواجبُ لا يحصلُ إلا به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ الآية [يونس: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ]، وقوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ [الطارق].

فهذه النصوصُ خطابٌ مع المتكبرين الجاحدين، فأُمروا بالنظر ليعرفوا الحق.

قال بعضُ العُلماء: «يجبُ النظرُ في حال دون حال، وعلى شَخص دُون شَخص، فوجوبه من العوارض لا من اللوازم العامة، فيجب على مَن فسَدت فطرته واحتاج إلى النظر، وأما مَن حَصلت له المعرفة بدون النظر ولم تفسد فِطرته فليس واجبًا عليه، والله أعلم»(٢).

---

(١) انظر: «النبوات» (١/ ٢٤٩)، «فتح الباري» (١٣/ ٣٦١)، «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٤٠٧).

(٢) شرح هذه العقيدة لابن مانع (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

وقوله: «بأنهُ واحد لا نظيرَ له ولا شبْه...»:

الله سُبحانه واحد في صفاته وفي أسمائه وفي ألوهيته وفي رُبوبيته، ولا شبيه له ولا نظير، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

قال عَددٌ من أهل العلم: معناه: هل تعلمُ للربِّ مِثلًا أو شبيهًا؟[1].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العملي الاعتقادي وإثبات الأحدية لله المستلزمة نفي كل شركة عنه، وإثبات الصمدية[2] المستلزمة لإثبات كُل كمال له، مع كون الخلائق تصمد إليه في حوائجها، أي: تقصده الخليقة وتتوجّه إليه، علويها وسفليها، ونفي الوالد والولد والكُفء عنه المتضمن لنفي الأصل والفَرع، والنظير والمماثل، ومما اختصّت به وصارت تعدل ثُلث القرآن، ففي اسمه الصمد إثبات

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٨١).

(٢) قال ابن الجوزي: وفي الصمَد أربعة أقوال: أحدها: أنه السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، رواه ابن عباس... والثاني: أنه لا جَوفَ له، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبير وعكرمة والضحاك وقتادة... والثالث: الدائم. والرابع: الباقي بعدَ فناء الخلق، حكاه الخطّابي، وقال: أصح الوجوه الأول، لأنّ الاشتقاقَ يشهد له، فإنّ أصلَ الصمَد القصدُ، يقال: أصمد صمد فُلان، أي: قصده، فالصمدُ السيد الذي يُصمد إليه في الأمور ويُقصَد في الحوائج. انظر: زاد المسير (٩/ ٢٦٧، ٢٦٨)، تفسير الطبري (١٥/ ٤٤٦).

الكمـال، وفي الكـفء التنزيـه عـن الشـبيه والمثـال، وفي الأحَـد نفـي كُـل شَـريك لذي الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامعُ التوحيد(١).

وقوله: «ولا وزير»:

الوزيرُ لغة: المتحَمِّلُ ثقلَ أميره وشُغله، يُقال: وازرتُ فلانًا مُوازرةً، أعنتُه على أمره، قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾ [طه]، قاله الأصفهاني(٢).

فالمعنى: أنه سُبحانه كما أنه لا شبيه له ولا نظير، فهو سُبحانه لا حاجة له في اتخاذ وزير، أي مُعين؛ لأنه الصَّمدُ الذي يَلجأ إليه ويَقصده جَميعُ الخلق في حَوائجهم، فهو سُبحانه الخالق قبل الخلق، وكان ولم يكن شيئًا غيره، وسيبقى بلا منتهى بعد فناء كل شيء، فهو كما قال: ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وقال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء].

---

(١) بدائع التفسير (٥/ ٣٦٧، ٣٦٨)، زاد المعاد (٤/ ١٨٠).
(٢) المفردات (ص: ٥٧٨).

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

٣٤ - صِفَاتُهُ كذَاتِهِ قَديمَة أَسَمَاؤُه ثَابتَةٌ عَظِيمَة

الشرح

«صفاته» مُبتدأ، والخبر: «قديمة» و«كذاته» حالٌ.

فاعلم أنَّ الكلامَ في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، وإثباتُ الذات إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات، وقد سَبق الكلامُ عن «الذات» وأقوال أهل العلم، وبيان أنّ الصفات لا تنفصلُ عنها بأي وَجْه من الوجوه.

فالذاتُ موصوفة بالصفات الأزلية الأبدية، وعبَّر الناظمُ عنها بالقديمة، والقديمُ عند المتكلمين: هو الذي لم يَسبقه عَدَمٌ، وقد استعمَل هذا اللفظ بعض أهل السنة، وقد سبق بيان ذلك.

ولفظ القرآن، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»(١). واستعمالُ ألفاظ القرآن والسُّنة أولى.

صفاتُ الله تعالى تنقسم إلى قسمين:-

صفات ذاتية، وصفات فعلية.

أولًا: الصفات الذاتية:

وهي التي لم يزل ولا يزالُ الله تعالى مُتصفًا بها، وهي نوعان: معنوية

---

(١) راجع: شرح البيت الثامن والعشرين.

وخبرية.

١ - الصفات المعنوية: مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة، وما أشبه ذلك، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر.

٢- الصفات الخبرية: مثل: اليدان، والوجه، والعينان.... وما أشبه ذلك، مما سماه نظيره أبعاضًا وأجْزاءً لنا.

فالله تعالى لم يزل له يَدان ووَجْه وعينان لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن، ولن ينفك عن شيء منه، كما أنَّ الله لم يزل حيًّا ولا يزالُ حيًّا، ولم يزل عالمًا، ولا يزالُ عالمًا، ولم يزل قادرًا ولا يزالُ قادرًا، وهكذا.

يعني: ليست حياته تتجدد، ولا قُدْرَته تتجدد، ولا سَمعه يتجدد، بل هو موصوفٌ بهذا أزلًا وأبدًا، وتجدد المسموع لا يستلزمُ تجددَ السمع، فأنا مثلًا عندما أسمع الأذانَ الآن فهذا ليس معناه أنه حَدث لي سَمع جديد عند سماع الأذان، بل هو منذ خلقه الله فيَّ لكن المسموع يتجدد، وهذا لا أثر له في الصفة.

واصطلح العُلماءُ رحمهم الله على أنْ يُسمّوها الصفات الذاتية.

قالوا: لأنها مُلازمة للذات، لا تنفكُّ عنه.

ثانيًا: الصفات الفعلية:

وهي التي تقوم بذاته بمشيئته، فهي تتعلق بمشيئته واختياره، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، ولذلك اصطلح العلماء على تسميتها بالصفات الاختيارية، أو ربما تسمى الصفات الفعلية.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض كلامه عن الصفات الاختيارية: وهي

الأمور التي يتصف بها الرب- عز وجل- فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته، مثل: كلامه، وسمعه، وبصره، وإرادته، ومحبته، ورضاه، ورحمته، وغضبه، وسخطه، ومثل: خلقه، وإحسانه، وعدله، ومثل: استوائه، ومجيئه، وإتيانه، ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة.

بل الآيات التي تدل على الصفات الاختيارية التي يسمونها حلول الحوادث، كثيرة جدًّا.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

فهذا بيِّن في أنه إنما أمر الملائكة بالسجود بعد خلق آدم، ولم يأمرهم في الأزل، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران] فإنما قال له بعد أن خلقه من تراب، لا في الأزل.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢،٧٤] فجعل النداء في يوم معين، وذلك اليوم حادث كائن بعد أن لم يكن، وهو – حينئذ- يناديهم، ولم يناديهم قبل ذلك.

وكذلك في الإرادة والمحبة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

فإن جوازم الفعل المضارع ونواصبه تخلصه للاستقبال، مثل «إن»

و«أن» وكذلك «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان، فقوله ﴿وَإِذَآ أَرَادَ﴾ [الرعد: ١١] ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] ونحو ذلك يقتضي حصول إرادة مستقبلة ومشيئة مستقبلة، وكذلك المحبة والرضا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فإن هذا يدل على أنهم إذا اتبعوه أحبهم الله فإن جزم قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ به، فجزمه جوابًا للأمر، وهو في معنى الشرط، فتقديره: إن تتبعوني يحببكم الله، ومعلوم أن جواب الشرط والأمر إنما يكون بعده لا قبله، فمحبة الله لهم إنما تكون بعد اتباعهم للرسول (١).

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الله سبحانه لم يزل متصفًا بصفات الكمال: صفات الذات، وصفات الفعل.

ولا يجوز أن يُعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها؛ لأن صفاته صفاتُ كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده.

ولا يرد على صفات الفعل، والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء، والإماتة، والقبض والبسط، والطي والاستواء، والإتيان.... ونحو ذلك مما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهِّمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك... لما سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٨-٢٢٦) باختصار.

فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»(١).

لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن.

ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلمًا بالأمس لا يقال: إنه حدث له كلام، ولو كان غير متكلم لآفة كالصِّغَر والخَرَس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام.

فالساكت لغير آفة يسمى «متكلمًا بالقوة» بمعنى أنه تكلم إذا شاء، وفي حال تكلُّمِه يُسمى «متكلمًا بالفعل».

وحلول الحوادث بالربِّ تعالى المنفي في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال.

فإن أريد أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن، فهذا نفيٌ صحيح.

وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ولا يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء، والإتيان كما يليق بجلاله

---

(١) حديث الشفاعة الطويل، ورد فيه هذا عن النبي ﷺ، أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعظمته، فهذا نفيٌ باطل[١].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الصفات الفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد، والفرح بتوبة التائب، والضحك... وغيرها، فهذه نسميها صفات فعلية؛ لأنها من فعله، وفعله يتعلق بمشيئته.

لكن هذا القسم من صفات الله آحاده حادثة، تحدث شيئًا فشيئًا، وأما جنس الفعل فإنه أزلي أبدي، فجنس كون الله فعالًا - أي جنس الفعل في الله عز وجل - أزلي، فلم يزل ولا يزال فعالًا، لم يأت وقت من الأوقات يكون الله تعالى معطلًا فيه عن الفعل، فإن الله لم يزل ولا يزال فعالًا لما يريد سبحانه وتعالى... كل صفة فعلية فإنها حادثة النوع أو الفرد، لكنها قديمة الجنس، فمثال النوع الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا فهذا نوع، لكن نزوله كل ليلة فهذا فرد؛ لأن نزوله الليلة ليس هو نزوله البارحة[٢].

مذاهب الناس في صفات الله عز وجل:

اختلف الناس في صفاته تبارك وتعالى على مذاهب، أشهرها أربع:

الأول: مذهب الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة:

نفي صفات الله تعالى، وحجتهم في ذلك أن إثبات الصفات يقتضي تشبيه الخالق بالمخلوق، والمشاركة بينه وبين سائر المخلوقات في

---

(١) شرح الطحاوية (٧٥-٧٧).

(٢) شرح العقيدة السفارينية (ص: ٢١٧ - ٢١٨) باختصار.

الصفات؛ قالوا: إذا أثبتنا ذلك، فقد شابه- سبحانه وتعالى- الأجسام، وذلك محال في حق الله- جل جلاله- وغفلوا عن أنَّ الاشتراك في المسمَّى لا يقتضي التماثل بين الخالق والمخلوق في الصفة، فالله سبحانه منزه عن مشاركة العبد في صفاته.

على سبيل المثال: الإنسان يتكلم والنمل يتكلم، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل] ولا أحد يعلم كيفية كلام النمل، وكيفية كلام الإنسان معلومة، فالاشتراك في مسمى الصفة، لا يقتضي الاشتراك في كيفية الصفة، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في ذاته.

فالواجب إثبات الصفات، ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات، إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل، وقوله سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] رد على المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى] رد على المعطلة؛ فمن شبه فقد عبد صنمًا، ومن نفى وعطل الصفات فقد عبد عدمًا.

قال نعيم بن حماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -شيخ البخاري-: مَن شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومَن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا[1].

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا[2].

---

(١) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٣/ ٢٢٢).

(٢) شرح الطحاوية (١٢٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: توحيد الجهمية والفلاسفة مناقض لتوحيد الرسل من كل وجه، فإنّ مضمونه: إنكار حياة الرب، وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستوائه على عرشه، ورؤية المؤمنين له بأبصارهم.. ومعلوم أن هذا التوحيد هو نفس تكذيب الرسول بما أخبر به عن الله، فاستعار له أصحابه اسم التوحيد(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الجهمية والمعتزلة بنوا على أصلهم: أن الرب لا تقوم به صفة؛ لأن ذلك بزعمهم يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع، إذ الصفة عَرَض، والعرَض لا يقوم إلا بجسم(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في موضع آخر**: الله تعالى سمى نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بأسماء، وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى بعضها صفات خلقه، وليس المُسمَّى كالمسمِّي، فسمى نفسه حيًّا عليمًا قديرًا رؤوفًا رحيمًا، عزيزًا حكيمًا، سميعًا بصيرًا... كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى]، وقال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٢٥﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [الحج] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء].

وقد سمى بعض عباده حيًّا، فقال: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، وبعضهم عليمًا بقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨﴾ [الذاريات] وبعضهم حليمًا بقوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١﴾ [الصافات]

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ١٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٠).

وبعضهم رؤوفًا رحيمًا بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة]

وبعضهم سميعًا بصيرًا بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان].

... ومعلومٌ أنه لا يماثل الحي الحي، ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيز، ولا الرؤوف الرؤوف، ولا الرحيم الرحيم، ولا الملك الملك، ولا الجبار الجبار، ولا المتكبر المتكبر(١).

المذهب الثاني: مذهب الأشاعرة والكلابية على خلاف بينهم، والماتريدية:

وقد أثبتوا بعض الصفات، وأوَّلوا باقيها، وهذا قول متقدميهم، يثبتون الصفات الذاتية، وبعض الصفات الفعلية، أما متأخروهم فينفون سائر الصفات الفعلية، وسائر الصفات الذاتية، إلا ما يسمونه الصفات العقلية، والأشاعرة هم أتباع أبي الحسن الأشعري، وكان معتزليًّا، وأقام على مذهب الاعتزال أربعين سنة، وكان لهم إمامًا، ثم تاب وعاد إلى منهج أهل السنة، ولأبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال:

أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها.

قال ابن خلكان: كان أبو الحسن الأشعري معتزليًّا ثم تاب(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ...وأنه صاحب الجبائي أربعين سنة ثم رجع عنه(٣).

الحال الثاني: كان يقول بقول أهل السنة وقول الجهمية معًا.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأما ابن كُلَّاب، فقوله مَشوب بقول الجهمية، وهو

---

(١) منهاج السنة (٢/ ١٠٧-١١٢) باختصار، وانظر العقيدة التدمرية (٢١) وما بعدها.

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٤٤٦).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٢٨١).

مركَّب من قول أهل السنة وقول الجهمية، وكذلك مذهب الأشعري في الصفات[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه عن الحال الثاني للأشعري: إثبات الصفات العقلية السبعة[(٢)] وهي: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع والبصر، والكلام، وتأويل الخبرية كالوجه واليدين والقدم ونحو ذلك[(٣)].

الحال الثالث: إثبات الصفات لله تعالى على منهج السلف في الجملة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الأشعري نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم في إثبات الصفات الخبرية، وفي الرد على مَن يتأولها[(٤)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: لكن الأشعري ونحوَه أعظم موافقةً للإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة في القرآن والصفات[(٥)].

والمتأخرون الذين ينتسبون إليه أخذوا بالمرحلة الثانية من مراحل عقيدته، والتزموا طريق التأويل في عامّة الصفات، ولم يثبتوا إلا سَبع صفات، وهي: العلم والقدرة، والحياة والإرادة، والسمع والبصر، والكلام، لكن الكلام عندهم معنًى قائم بذات الله، وليس من صفات

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠٨).

(٢) كذا يزعم الأشاعرة أن هذه الصفات هي التي توافق العقل، فقدموا العقل على النقل فضلوا، والعقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح.

(٣) طبقات الشافعية (١/ ٢١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٩).

(٥) مجموع الرسائل والمسائل (١/ ١٨٤).

الأفعال باعتبار آحاد الكلام.

قال الشهرستاني رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض كلامه عن الحال الثاني للأشعري: قال أبو الحسن: الباريءُ تعالى عالم بعلم، قادر بقُدرة، حيٌّ بحياة، مُريد بإرادة، مُتكلم بكلام، سميع بسَمع، بصيرٌ ببصر، وله في البقاء اختلافُ رأي(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في مَعرض ردّه على الأشاعرة: فإن كان المخاطب ممن يُقرّ بأن الله حي بحياة، عليمٌ بعلم، قديرٌ بقُدرة، سميعٌ بسَمع، بصير ببصر، مُتكلم بكلام، مُريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة، ويُنازع في محبته ورضاه وغضبه، وكراهيته، فيجعل ذلك مجازًا، ويفسره إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النعم والعُقوبات.

قيل له: لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قلتَ: إنَّ إرادته مثل إرادة المخلوقين، فكذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل، وإنْ قلتَ: له إرادةٌ تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمَخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، كما للمخلوق رضا وغضب يليق به.

وإن قال: الغضبُ غليانُ دم القلب لطلب الانتقام، قيل له: والإرادةُ ميلُ النفس إلى جَلب منفعة أو دَفع مضرة، فإن قلتَ: هذه إرادة المخلوق، قيل لك: وهذا غضب المخلوق.

وكذلك يلزم بالقول في كلامه وسَمعه وبصره، وعلمه وقُدْرته، إن نفي

(١) الملل والنحل (١/ ١٠٧-١٠٨).

عنه الغضب والمحبة والرضا، ونحو ذلك مما هو من خصائص المخلوقين، فهذا مُنتف عن السمع والبصر والكلام وجميع الصفات.

وإن قال: إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين؛ فيجب نفيه عنه، قيل له: وهكذا السمع والبصر والكلام والعلم والقُدْرة.

فهذا المفرِّق بين بعض الصفات وبعض، يُقال له فيما نفاه كما يقول هو لمنازعه فيما أثبته.... (١).

احتجاج الأشاعرة بإثبات العقل لهذه الصفات:

وقد ردّ عليهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: فإن قال: تلك الصفاتُ أثبتها بالعقل؛ لأنّ الفعلَ الحادث دلّ على القدرة، والتخصيصُ دلّ على الإرادة، والإحكامُ دل على العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو عن السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك.

قال له سائر أهل الإثبات: لك جوابان:

أحدهما: أن يُقال: عدم الدليل المعيَّن لا يستلزمُ عدم المدلول المعيَّن، فهبْ أنّ ما سلكته من الدليل العقلي لا يثبتُ ذلك، فإنه لا ينفيه، وليس لك أن تنفيه بغير دَليل؛ لأن النافي عليه الدليل، كما على المثبت، والسمعُ قد دلّ عليه ولم يُعارض ذلك مُعارض عقلي ولا سمعي، فيجب إثباتُ ما أثبته الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

الثاني: أن يُقال: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبتَّ به تلك من العقليات، فيُقال: نفعُ العباد بالإحسان إليهم يدلّ على الرحمة كدلالة

---

(١) العقيدة التدمرية (٣١-٣٣).

التخصيص على المشيئة[(١)]، وإكرامُ الطائعين يدلّ على محبتهم، وعقابُ الكفار يدلّ على بُغضهم، كما قد ثبت بالشاهد والخبر من إكرام أوليائه وعقاب أعدائه، والغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته- وهي ما تنتهي إليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة- تدلُّ على حِكمته البالغة، كما يدلّ التخصيصُ على المشيئة وأوْلى؛ لقوة العلة الغائية[(٢)]، ولهذا كان ما في القرآن من بيان ما في مخلوقاته من النعم والحِكَم أعظم مما في القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على مَحض المشيئة[(٣)].

والكُلَّابية: هم أتباعُ عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، وكان الأشعري متبعًا له في المرحلة الثانية قبل أن يرجع إلى منهج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ومذهبه أنّ جميعَ الصفات قائمةٌ بذات الله، فلم يثبت لله تعالى صفات الأفعال، فجميعُ الصفات لم يزل ولا يزال الله مُتصفًا بها، لا يتعلقُ شيء منها بقدْرته ولا

---

(١) المشيئة مرادفة للإرادة، حسب ما يثبته الأشاعرة، ولكن شيخ الإسلام رد على هذا، وبين في مواضع من كتبه أن الإرادة نوعان:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: والتحقيقُ أن الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة شرعية، وإرادة كونية قدرية فالأول: فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فإن الإرادة هنا بمعنى المحبة والرضا، وهي الإرادة الدينية.

وأما الإرادة الكونية القدرية: فمثل قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ومثل قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن- مجموع الفتاوى (١٨/ ١٣٢). وانظر: منهاج السنة (١/ ٣٥٩).

(٢) العلة الغائية: ما يوجد الشيء لأجله- التعريفات للجرجاني (٨٢).

(٣) العقيدة التدمرية (ص: ٣٣-٣٥).

بمشيئته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض كلامه عن ابن كُلَّاب: صنّف مُصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم، وهو من مُتكلمة الصفاتية(١)، وطريقته يميل فيها إلى أهل الحديث والسنة، لكن فيها نوع من البدعة، لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله، ولم يُثبت قيامَ الأمور الاختيارية بذاته.. إلى أن قال: والإمامُ أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يُحذرون من هذا الأصل الذي أحدَثه ابن كُلَّاب، ويُحذرون من أصحابه، وهذا هو سببُ تحذير الإمام أحمد من الحارث المحاسبي ونحوه من الكُلَّابية(٢).

وقال في موضع آخر: والكُلَّابية يقولون: هو مُتصفٌ بالصفات التي ليس له عليها قدْرة، ولا تكونُ بمشيئته، فأما ما يكون بمشيئته فإنه حادث، والرب -تعالى- لا تقوم به الحوادث، ويُسمون الصفات الاختيارية «مسألة حلول الحوادث»(٣).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: وكذلك سلك طريقة ابن كُلَّاب هذه أبو الحسن بن سالم وأتباعه السّالمية، والقاضي أبو يعلي وأتباعه، كابن عقيل، وأبي الحسن بن الزاغوني، وهي طريقة أبي المعالي الجويني، وأبي الوليد

---

(١) قال ابن تيمية عن الصفاتية: ولكن هذا المصنف اختصر هذه العقيدة من كتب المتكلمين الصفاتية الذين يثبتون ما ذكره من الصفات بما نبه عليه من الطرق العقلية، ويسمون ذلك العقليات، شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ٨٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٠).

الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم [(١)].

المذهب الثالث: مذهب الكرَّامية وقدماء الرافضة من الشيعة وغلاة الصوفية:

وهم الذين غلوا في الإثبات، إلى أن شبهوا الله بخلقه، والكرامية هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام بن عراق السجستاني.

قال البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن ابن كرام دعا إلى تجسيم معبوده[(٢)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وإثبات الجسم قول محمد بن كرام وأمثاله[(٣)].

وقال في موضع آخر رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي الجملة الكلام في التمثيل والتشبيه، ونفيه عن الله مقام، والكلام في التجسيم ونفيه مقام آخر؛ فإن الأول دل على نفيه الكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، واستفاض عنهم الإنكار على المشبهة الذين قالوا: يَدٌ كيدي، وبصر كبصري، وقدم كقدمي، وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة].

وأيضًا فنفي ذلك معروف بالدلائل العقلية التي لا تقبل النقيض، كما قد بُسِطَ الكلام في ذلك في غير موضع، وأفردنا الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في مصنف مفرد.

أما الكلام في الجسم والجوهر ونفيهما أو إثباتهما فبدعة ليس لها أصل

---

(١) الفتاوى (١٢/ ٣٦٧، ٣٦٨) وانظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٤٧٠).
(٢) الفرق بين الفرق، البغدادي (ص: ٢٢٧).
(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢٠).

في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا تكلم أحد من السلف والأئمة بذلك؛ لا نفيًا، ولا إثباتًا[١].

المذهب الرابع: مذهب المفوضة:

وهم قوم فوضوا معاني الصفات وكيفيتها؛ أي: إنهم لا يعلمون لها معنى، فهم يثبتون ألفاظ الصفات كما وردت في الكتاب والسنة، مع تفويضهم العلم بمعانيها اللغوية إلى الله- عز وجل- فهم يقولون: إن هذه الصفات لا معنى لها أصلًا. ومنهم من يقول: لها معنى لا يُعْلَم، فيجب الإيمان بلفظها، والسكوت عما عداه.

وقالوا: هذا هو مذهب السلف، وهو أسلم، وهذا قول بعض الأشاعرة، وقال به بعض الحنابلة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما التفويض فإن من المعلوم أن الله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن، وحضنا على عقله وفهمه، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟!... إلى أن قال: وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه في القرآن- أو كثير مما وصف به نفسه- لا يعلم الأنبياء معناه، بل يقولون كلامًا لا يعقلون معناه...

ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء؛ إذا كان الله أنزل القرآن، وأخبر أنه جعله هدًى وبيانًا للناس، وأمر الرسول ﷺ أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعقله، ومع هذا فأشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته... لا يعلم أحد معناه، فلا يعقل،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ١٤٥، ١٤٦).

ولا يتدبر، ولا يكون الرسول بيَّن للناس ما نُزِّلَ إليهم، ولا بلغ البلاغ المبين.

وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحد ومبتدع: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك؛ لأن تلك النصوص مشكلة متشابهة، وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به، فيبقى هذا الكلام سدًّا لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وفتحًا لباب من يعارض ويقول: إن الهدى والبيان في طريقتنا، لا في طريق الأنبياء؛ لأننا نحن نعلم ما نقول، ونبيِّنه بالأدلة العقلية، والأنبياء لم يعلموا ما يقولون، فضلًا عن أن يبينوا مرادهم.

فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف، من شر أقوال أهل البدع والإلحاد[(١)].

المذهب الخامس: وهو مذهب السلف:

إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه من الصفات، وما وصفه به أعلم الخلق رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تمثيل، ولا تكييف.

الخلاصة في الصفات الفعلية:

أنَّ جميعَ صفات الأفعال مُتصف بها الله تبارك وتعالى في الأزَل كجميع صفاته، لا يسبقها عَدَم ولا يَلحقها فناء، فهو سُبحانه متصفٌ بأنه يتكلم، ويخلق، ويُحيي، ويميت، ويرزق، ويأتي، وينزل، ويغضب، ويضحك،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠١- ٢٠٥).

ويَرضَى إلى غير ذلك من صفات الأفعال، كما سبق بيانه.

لكن آحاد هذه الأفعال تتجدّد، فهو يتكلم إذا شاء، ويخلق ما يشاء، ويرزقُ مَن يشاء.

فمن كماله تعالى أنْ يكون فعله مُتعلق بمشيئته واختياره، يفعل ما يشاء متى شاء كيف شاء. قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]؛ فانتبه لهذا الأصل حتى لا تقع في التعطيل، ولا في التحريف.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض كلامه عن صفات الله الفعلية: الكلامُ صفة كمال، ومَن يتكلم أكمل ممن لا يتكلّم، كما أنّ مَن يَعلم ويقدر أكمَل ممن لا يعلم ولا يقدر، ومَن يتكلّم بمشيئته وقدْرته أكمَل ممن يكون الكلام لازمًا لذاته، ليس له عليه قدْرة ولا له فيه مشيئة، والكمالُ إنما يكون بالصفاتِ القائمة بالموصوف، لا بالأمُور المباينة له، ولا يكونُ الموصوف مُتكلمًا عالمًا قادرًا إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدْرة.

وإذا كان كذلك فمَن لم يزل موصوفًا بصفات الكمال أكمَل ممن حَدث له بعدَ أن لم يكن مُتصفًا بها، لو كان حُدوثها ممكنًا، فكيف إذا كان ممتنعًا؟[(١)].

أنواع الصفات، وما نصف به الله تعالى منها:

الصفة إما تكون كمالًا محضًا، وإما أن تكون نقصًا محضًا، وإما أن

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢).

تكون كمالًا في حال دون حال.

١- صفات الكمال: إذا كانت الصفة تحمل الكمال المطلق - الذي ليس فيه نقصٌ بأي وجْه من الوجوه - أثبتناها لله تعالى، كما أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها له رسوله ﷺ على ما ورَدَت الأخبار الصحاح به.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الصفة العليا، وهي التوحيد، وأنه لا إله إلا هو، وقيل: جميع صفات الجلال والكمال، من العلم، والقدرة، والبقاء، وغيرها من الصفات [١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الكمال المطلق من كُلّ وجه، وهو منسوب إليه [٢].

قال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للآية: وهو كُلّ صفة كمال، وكُلّ كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات

---

(١) معالم التنزيل (٥/ ٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٣).

كماله سبحانه وتعالى [١]، انتهى.

٢- صفات نقص محض: فلا يوصف بها الله تعالى مطلقًا، لثبوت صفات الكمال له من كُلّ وجْه.

٣- صفات تكون كمالًا في حال دون حال: نثبت لله تعالى منها ما كان في حال الكمال.

مثال ذلك: المكر، والخديعة، والاستهزاء، والكيد، إلى غير ذلك، لا يجوز أن نصف الله تعالى بها مطلقًا؛ لأن هذه الصفات عند الإطلاق صفات ذم، ولكن نصف الله بها على سبيل المقابلة، فتكون صفة كمال، لأنها في حال المقابلة تدل على أنَّ فاعلها قادر على مُقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد، ولذلك لم يذكرها الله تعالى في القرآن على أنها من صفاته على سبيل الإطلاق.

قال جل ذكره: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

المكر لغة: صرفُ الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان:

مكرٌ محمودٌ: وذلك أن يُتحرى بذلك فعلٌ جميلٌ، وعلى ذلك قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران].

ومذموم: وهو أن يتحرى به فعل قبيح، قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] [٢].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٥٢١).

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: المكرُ من الله الاستدراج، لا على معنى مكر المخلوقين(١).

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: المكرُ من الخلق خبث وخداع، ومن الله عز وجل: المجازاة... كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ لأنَّ مَكره مجازاة، ونصر للمُؤمنين(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمكرُ من الله: هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم، من حيث لا يشعرون(٣). انتهى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي يعاملونه معاملة المخادعين، وهو خادعهم، أي: مجازيهم على خداعهم، وذلك أنهم يُعطون نورًا يوم القيامة كما للمؤمنين، فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط، ويُطفأ نور المنافقين(٤).

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: لا شك أنَّ الله لا يُخادَع، فإنه العالمُ بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرًا، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة...

وقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: هو يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويُخذلُهُم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إلى

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٦٠٩).
(٢) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٣٩٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٧٩).
(٤) معالم التنزيل (٢/ ٣٠٢).

قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الحديد: ١٣-١٥][1].

مطلب: من أصول اعتقاد أهل السنة أن صفات الله تعالى توقيفية:

ومعنى توقيفية: أي لا مجال للعقل والاجتهاد فيها، وإنما تُثبَت الصفات بالنص من الكتاب والسنة، وهذا ما عليه سلف الأمة- رحمهم الله-.

قال السجزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد اتفقت الأئمة على أن الصفات لا تؤخذ إلا توقيفًا، وكذلك شرحها، لا يجوز إلا بتوقيف، فقول المتكلمين في نفي الصفات أو إثباتها بمجرد العقل، أو حملها على تأويل مخالف للظاهر ضلال[2].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يُوصَف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، ولا يتجاوز القرآن والحديث[3].

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجماعُ القول في إثبات الصفات: هو القول بما كان عليه سَلف الأمة وأئمتها، وهو أن يُوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله[4].

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصحابُ الحديث- حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم- يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٤٨).
(٢) رسالة السجزي إلى أهل زبيد (١٢١).
(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٥١٥).

شهد له بها رسوله ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلت العدول الثقات عنه، ويُثبتون له جل جلاله ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ[١].

وقوله: «أسماؤه ثابتة عظيمة»: أسماءُ الله تعالى ثابتة بنص الكتاب والسنة، وعظيمة؛ لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، وأحسن الصفات وأكملها، ونذكر ههنا مباحث لبيان اعتقاد أهل السنة في مسائل الأسماء.

المبحث الأول: أسماء الله تعالى كُلّها حُسنى:

قال جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحسنى تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى[٢]، ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠][٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأما الحسنى فهي تأنيث الأحسن، ومعنى الآية: أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن... ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه بها، كقولك: يا الله، يا رحمن[٤].

قال ابنُ الوزير اليماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أنَّ الحسنى في اللغة: هو جمع الأحسن، لا جمع الحَسَن، فإنّ جمعه: حِسان وحسنة، فأسماءُ الله التي لا تُحصَى كُلّها حَسَنة، أي: أحْسَنُ الأسماء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ١١٤).
(٢) انظر: لسان العرب (١٣/ ١١٤).
(٣) معالم التنزيل (٢/ ٢٥٣).
(٤) زاد المسير (٢/ ١٧٢).

﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم: ٢٧] أي: الكمالُ الأعظم في ذاته وأسمائه ونُعوته.

فلذلك وجَب أنْ تكون أسماؤه أحسَنَ الأسماء، لا أن تكون حَسَنة وحسانًا لا سُوى، وكم بين الحسن والأحسن من التفاوت العظيم عقلًا وشرفًا ولغة وعُرفًا(١).

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمعنى: لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها(٢).

المبحث الثاني: أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام وأوصاف:

اعتقادُ أهل السنة والجماعة أنّ كُلّ اسم من أسماء الله عز وجل دالٌّ على صفة كمال تضمَّنها الاسم، ومنه ما يدلُّ على عدّة صفات، فإذا قلت مثلًا: «العليم»: دلَّ ذلك على أنه اسم لله، ودلَّ على صفة العلم له سبحانه.

وإذا قلت: «السميع» دلّ ذلك على أنه اسم لله تعالى، وعلى صفة السمع له، وهكذا في جميع الأسماء، نُثبت الاسم كما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له نبيه ﷺ، ونُثبت الصفة الدالة على الاسم.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أسماءُ الرب تعالى كُلّها أسماء مدح، فلو كانت ألفاظًا مُجرَّدة لا معاني لها لم تدلّ على المدْح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حُسنى كُلّها.. وذكر الآيات، ثم قال: فهي لم تكن حُسنى لمجرد

---

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٧/ ٢٢٨).
(٢) محاسن التأويل (٣/ ٦٧١).

اللفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: الاسمُ الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفةٍ مُعيَّنة، بل هو دَالٌّ على معان، لا على معنى مُفرد، نحو: المجيد، العظيم، الصمد.

فإن المجيد: مَن اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه استمجد المرخ[٢]... ومنه ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج] صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه[٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض شرحه قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]:

هذا بيانٌ لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنة، أي: له كُلّ اسم حَسَن، وضابطه: أنه كُلّ اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حُسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت عَلَمًا محضًا لم تكن حُسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح لم تكن حُسنى، فكُلّ اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ٣٧١).

(٢) مرخ: مرخه بالدهن يمرخه مرخًا، ومرخه تمريخًا، دهنه، وتمرخ به: ادهن، ورجل مرخ ومريخ: كثير الدهن. اللسان (٨/ ٢٤٦).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٤٤-١٤٥) باختصار.

نحو: «**العليم**»: الدال على أن له علمًا محيطًا عامًّا لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«**الرحيم**» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكُلِّ شيء[١].

المبحث الثالث: أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد:

عن عَبْدِ الله، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطّ هَمٌّ ولا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**»[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧١٢)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠)، وأبو يعلي (٥٢٩٧)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

وقال رَسُولُ الله ﷺ في حديث الشفاعة: «**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي**»(١).

فدل ذلك على أنّ هناك محامد من أسماء الله وصفاته يفتح الله بها على رسوله ﷺ في ذلك اليوم، وهي بلا شك غير المحامد المأثورة في الكتاب والسنة؛ لقوله ﷺ: «**لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي**».

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: وجُمْلة قوله: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا...**» قضية واحدة لا قضيتان، ويكون تمام الفائدة في خبر «**إنَّ**» في قوله: «**مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**» لا في قوله: «**تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا**».

وإنما هو بمنزلة قولك: إن لزيد ألف درهم أعدها للصدقة، وكقولك: إن لعمرو مائة ثوب مَن زاره خلعها عليه، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم، ولا من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالته: أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم، وأن الذي أرصده عمرو من الثياب للخلع مائة ثوب. والذي يدل على صحة هذا التأويل: حديث عبدالله بن مسعود... أن النبي ﷺ كان يدعو: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ...** وساق الحديث» كما تقدم.

فهذا يدل على أنَّ لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجَبها عن خلقه، ولم يُظهرها لهم(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٢) شأن الدعاء (٨٢، ٨٣).

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: فكأنه قصد أن مَن أحصى من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين اسمًا دَخَل الجنة[(١)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: واتفق العلماءُ على أنَّ هذا الحديث ليس فيه حَصر لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه: أنه ليس له أسماء غير التسعة وتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين مَن أحصاها دخلَ الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحَصر الأسماء، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ...**»[(٢)] [(٣)].

قال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا نظن أنَّ التخصيصَ بهذا العدد المعين مما يقتضي الانحصار فيه[(٤)].

وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية وابن القيم، وأئمة أهل السنة[(٥)].

فائدة:

خالف ابن حزم، فذهب إلى الحصر في العدد المذكور، ورَدَّ عليه الحافظ ابن حجر، فقال: وابنُ حزم ممن ذهب إلى الحصر في العدد المذكور، وهو لا يقول بالمفهوم أصلًا، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) الأسماء والصفات (ص: ٣٥).

(٢) **صحيح**: تقدم تخريجه قريبًا.

(٣) شرح النووي على مسلم (٩/ ٨).

(٤) شرح أسماء الله الحسنى (ص: ١٣٦).

(٥) راجع: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٣٢، ٣٣٣)، والفتاوى (٦/ ٣٨١)، وبدائع الفوائد (١/ ١٥٠).

«**مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا**» فقال: لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة، فيبطل قوله: «**مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا**».

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا الذي قاله ليس بحجة على ما تقدم؛ لأنّ الحصرَ المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها، فمَن ادّعى أنّ الوعد وقع لمن أحصى زائدًا على ذلك أخطأ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد[١].

المبحث الرابع: أسماء الله تعالى توقيفية:

سبق ذكر الأدلة على أنَّ صفات الله تعالى توقيفية، وكذلك أسماؤه تبارك وتعالى.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٢١).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٣٥ - لَكِنَّهَا فِي الْحَقِّ تَوْقِيفِيَّةٌ   لَنَا بِذَا أَدِلَّةٌ وَفِيَّةٌ

الشرح

أي: لا نثبت منها إلا ما جاء في الكتاب والسنة، فلا يجوز أن نسمي الله عز وجل باسم ليس في كتابه ولا في سنة نبيه ﷺ، فعقولُ البشر قاصرة وعاجزة عن معرفة أسمائه سبحانه وتعالى، فلا نثبت إلا ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ.

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولما كانت معرفة أسمائه توقيفية، لا يُعلم إلا من طريق الوحي والسنة، ولم يكن لنا التصرف فيها بما لم يهتد إليه مبلغ علمنا ومنتهى عقولنا، نُهينا عن إطلاق ما لم يرد به توقيف[1].

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأسماء تؤخذ توقيفًا من الكتاب والسنة والإجماع، فكُلّ اسم ورد فيها وجب إطلاقه في وصفه، وما لم يرد لا يجوز ولو صح معناه[2].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ٤٧٩).

(٢) الفتح (١١/ ٢٢٦).

قال أبو إسحاق الزّجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه[(١)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: أسماءُ الله توقيفية، لا تُطلق إلا بدليل صحيح[(٢)].

تنبيه:

لم يصح حديث عن رسول الله ﷺ في تعيين أسماء الله الحسنى، فاجتهد العلماء في جمع الأسماء من الكتاب والسنة؛ لأنها توقيفية لا نثبتها إلا بنص.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض رده على مَن قال: لا يجوز الدعاء إلا بالتسعة والتسعين اسمًا التي جاءت في رواية الوليد بن مُسلم كما عند الترمذي وغيره:

فإنّ جمهورَ العُلماء على خلافه، وعلى ذلك مضى سلف الأمة وأئمتها، وهو الصواب؛ لوجوه:-

أحدها: أن التسعة والتسعين اسمًا لم يرد في تعيينها حديثٌ صحيح عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث.

وفيها حديث ثان أضعف من هذا، رواه ابن ماجه، وقد رُوي في عددها غير هذين النوعين من جَمع بعض السلف... وهذا القائل الذي حصر أسماء الله في تسعة وتسعين لم يمكنه استخراجها من القرآن، وإذا لم يقم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) شرح مسلم (٧/ ١٨٨).

على تعيينها دليل يجب القول به لم يمكن أن يقال: هي التي يجوز الدعاء بها دون غيرها.

الوجه الثاني: أنه إذا قيل: تعيينها على ما في حديث الترمذي مثلًا، ففي الكتاب والسنة أسماء ليست في ذلك الحديث، مثل اسم «الرب» فإنه ليس في حديث الترمذي، وأكثر الدعاء المشروع إنما هو بهذا الاسم، كقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وأمثال ذلك[(١)].

وساق أسماء لله تعالى كثيرة ليست في حديث الوليد.

قال ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ: تمييز التسعة والتسعين يحتاج إلى نص متفق على صحته، أو توقيف رباني، وقد عُدِمِ النص المتفق على صحته في تعيينها، فينبغي في تعيين ما تعين منها الرجوع إلى ما ورد في كتاب الله بنصه، أو ما ورد في المتفق على صحته من الحديث[(٢)].

المبحث الخامس: باب الأسماء أضيق من باب الصفات:

ذلك لأن كُلّ اسم يدل على صفة لله تعالى كما سبق بيانه، ولا يشتق من كُلّ صفة اسمٌ لله عز وجل، فمن صفات الله تعالى الغضب والرضا والكلام والمحبة والاستواء والإتيان والمجيء والنزول وغير ذلك، فلا يجوز أن يُشتق من هذه الصفات أسماء لله تعالى، فيقال: الغاضب، الراضي، المتكلم، المحب، والمستوي وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز، بل هذه صفات لله تعالى.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٨٢-٤٨٦) باختصار.

(٢) العواصم والقواصم (٧/ ٢٢٨).

ولو فعلنا ذلك لوقعنا في المحذور، وهو تسمية الله تعالى بما لم يُسمّ به نفسه ولم يسمه به رسول الله ﷺ، وقد تقرر أن أسماء الله تعالى توقيفية[(١)].

المبحث السادس: أسماء الله تعالى لها ثلاث دلالات:

١- دلالة المطابقة. ٢- دلالة تضمن.

٣- دلالة التزام.

فإذا قلت: «العزيز» دل هذا الاسم على ذات الله تعالى دلالة مطابقة، ودل على صفة «العزة» دلالة تضمن- وقد تقدم أن أسماء الله دالة على صفاته- ودل على القوة، والقدرة، والقهر، والغَلَبة، وغير ذلك من دلالات التزام، فالعزيز لا تكون له عزة بغير قوة وقدرة وقهر وغَلَبة.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم.

فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدلُّ على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته»[(٢)].

وتبقى مباحث أخرى في الأسماء ذكرتها في موضع آخر[(٣)].

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤١٥)، وبدائع الفوائد (١/ ١٦٢) فقد ذكر هذا المعنى بتوسع.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٦). وانظر: منهاج السنة لابن تيمية (٥/ ٤٥٢) ومعارج القبول للحكمي (١/ ١١٩).

(٣) راجع إن شئت كتابي «الدرر البهية» باب: أسماء الله عز وجل.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٦ - لَـهُ الْحَيـاةُ وَالكَـلامُ والْبَصَـرْ   سَـمْعٌ إِرَادَةٌ وَعِلْـمٌ وَاقْتَـدَرْ

الشرح

ذكر الناظمُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذين الشطرين سبع صفات لله تعالى، وقد يظن البعض أنه أشعري؛ لأنه ذكر الصفات التي يُثبتها الأشاعرة، والأمر ليس كذلك؛ لأنه سيذكر صفات أخرى لله تعالى في ثنايا النظم.

وقوله: «له الحياة»:

أي: أن الله تعالى يتصف بالحياة، فالحياة صفة من صفاته، بل هي أصل جميع الصفات بدلالة الالتزام، فلم يزل ولا يزال متصفًا بالحياة الكاملة التي لم يسبقها عَدَم، ولا يلحقها فناء، ولا يعتريها نقص بأي وجه من الوجوه، كالسِّنَة والنوم والتعب والموت، وغير ذلك من صفات النقص التي تعتري البشر.

قال جلّ ذكره: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال رسول الله ﷺ: «... أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[(١)].

فاسمه الحي: مشتقٌّ من صفة الحياة، كما سبق بيان أن كُلَّ اسم مشتق من صفة من صفاته سبحانه، أو نقول: كُلُّ اسم دال على صفة، فالمعنى واحد.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: «والكلام»:

الكلامُ صفة من صفات الله تبارك وتعالى، فهي صفة ذاتية، لم يزل ولا يزال متصفًا بأنه يتكلم، وهي صفة فعلية باعتبار آحاد الكلام، فإن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم، وأنكر طوائف من الناس هذه الصفة.

ونذكر هنا مباحث في صفة الكلام.

المبحث الأول: الكلام من صفات الله تعالى، وذكر الأدلة من الكتاب والسنة، وأقوال الأئمة في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء].

وقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس].

وقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف].

وقال جل ذكره: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة جدًّا.

ذكر الأدلة من السنة على أن الله يتكلم، وأن الكلام من صفاته:

قد استدل أئمة السنة - كأحمد وغيره - على أن كلام الله غير مخلوق بأنه ﷺ استعاذ به[١].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢٣٠).

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»[(١)].

وعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةِ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ»[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ، قَالَ: «أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ»[(٣)].

وفي الصحيحين، في حديث احتجاج آدم وموسى، وفيه: «قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ...»[(٤)].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»[(٥)].

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧١) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٨٣).

سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[(١)].

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ في الرد على الجهمية: أنهم قالوا: إن الله يتكلم ولكن كلامه مخلوق: فقلنا: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فشبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق، ففي مذهبكم أن الله كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلُّم، وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق لهم كلامًا، فجمعتم بين كفر وتشبيه، فتعالى الله عن هذه الصفة عُلوًّا كبيرًا. بل نقول: إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولا نقول: إنه قد كان ولا يتكلم حتى خلق كلامًا[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موضع آخر: أما قولهم: إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان وأدوات، فقد قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] أتراها أنها يُسبحن بجوف وفَم ولسان وشفتين؟! والجوارح إذا شهدت على الكافر فقالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] أتراها نطقت بجوف وفم ولسان؟! ولكن الله أنطقها كيف شاء، وكذلك الله يتكلم كيف شاء[(٣)].

قال أبو سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللهُ: فالله المتكلم أولًا وآخرًا، لم يزل له

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٩) ومسلم (١٠١٦).

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية (٢٧٥-٢٧٨) للإمام أحمد.

(٣) نقله ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٣٢).

الكلام، إذ لا متكلم غيره، ولا يزال له الكلام، إذ لا يبقي متكلم غيره، فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] أنا الملك، أين ملوكُ الأرض؟ فلا ينكر كلام الله عز وجل إلا مَن يريد إبطالَ ما أنزل الله عز وجل، وكيف يعجز عن الكلام مَن علَّم العباد الكلام وأنطق الأنام؟!

قال الله في كتابه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء] فهذا لا يحتمل تأويلًا غير نفس الكلام... ثم ذكر آيات أخرى كما قدَّمنا[(١)].

قال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمَن زعَم أنَّ الله - عز وجل - لم يُكلم موسى فقد رد نص القرآن، وكفر بالله العظيم.

فإن قال قائل منهم: إنَّ الله تعالى خلق كلامًا في الشجرة، فكلّم به موسى، قيل له: هذا هو الكُفر؛ لأنه يزعم أنّ الكلامَ مخلوقٌ- تعالى الله عز وجل عن ذلك- ويزعم أنّ مخلوقًا يدَّعي الربوبية، وهذا من أقبح القول وأسمجه.

وقيل له: يا مُلحد، هل يجوز لغير الله أن يقول: إنني أنا الله؟ نعوذ بالله أن يكون قائل هذا مسلمًا، هذا كافر يُستتاب، فإن تاب ورجع عن مذهبه السوء، وإلا قتله الإمام، فإن لم يقتله الإمام ولم يستتبه وعُلم منه أنَّ هذا مذهبه، هُجر ولم يُكلَّم، ولم يُسلَّم عليه، ولم يُصَلَّ خَلْفَه، ولم تُقبَل شهادته، ولم يُزوجه المسلم كريمته... ثم ساق جملة من أقوال الأئمة بمثل ما قال[(٢)].

---

(١) الرد على الجهمية (١٤٠).

(٢) الشريعة (ص: ٢٤٣).

وأقوالُ السلف في إثبات صفة الكلام لله تعالى كثيرة جدًّا يصعب استيفاؤها.

أقوال أهل السنة بأن الله تعالى يتكلم بصوت يُسمَع:

دلت نصوصُ الكتاب والسنة على أنّ الله- جل في علاه- يتكلم بصوت يُسمَع، وقد سبق ذكر الأدلة على ذلك، مع ثبوت أن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في كلامه ولا في صوته، ولا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقد تقرر هذا المعنى مرارًا.

قال قوّام السُّنة رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد أجمع أهل العربية أن ما عدا الحروف والأصوات ليس بكلام حقيقة(١).

قال عبد الله بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: سألت أبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن قوم يقولون: لما كلم الله عز وجل موسى لم يتكلم بصوت؟ فقال أبي: بلى، إن ربك عز وجل يتكلم بصوت، هذه الأحاديثُ نرويها كما جاءت.

وقال أبي: حديثُ ابن مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ عَزّ وجَلّ، سُمِعَ له صَوْتٌ كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ**»(٢)، قال أبي: وهذا الجهمية تُنكره(٣).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: إنّ الله يتكلم بصوت لا يُشبه صوت الخلق(٤).

---

(١) الحجة في بيان المحجة (ص: ٢٠٢).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ -قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ- فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**» أخرجه البخاري (٤٧٠١).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (ص: ٢٨٠، ٢٨١).

(٤) خلق أفعال العباد (١٣٣).

قال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإيمانُ بأنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي كلم موسى بن عمران يوم الطور، وموسى يسمع من الله الكلام بصوت وقع في مسامعه منه لا من غيره، فمَن قال غير هذا فقد كفر بالله العظيم [(١)].

قال السجزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكلامُ لا يكون إلا حرفًا وصوتًا ذا تأليف واتساق، وإن اختلفت بهم اللغات، وعبر عن هذا المعنى الأوائل الذين تكلموا في العقليات، وقالوا: الكلامُ حروف مُتسقة، وأصواتٌ متقطعة، وقالت العرب: الكلامُ اسم وفعل وحرف جاء لمعنى.. إلى أن قال: فالإجماعُ مُنعقد بين العُقلاء على كون الكلام حرفًا وصوتًا[(٢)].

المبحث الثاني: القرآن كلام الله غير مخلوق:

وهذا إجماعٌ عند أهل السنة والجماعة، وخالفهم طوائف من المبتدعة، فقالوا: القرآن مخلوق، تعالى الله عما يقول هؤلاء المبتدعة عُلوًّا كبيرًا.

ذكر بعض الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال جل ذكره: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء] ولم يقل:

---

(١) شرح السنة (ص: ٩٠).

(٢) رسالة السجزي إلى أهل زبيد (ص: ٨١).

أصدق من الله خلقًا، قاله ابن بطة [(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

وقد ذكر ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإبانة أكثر من خمسين آية من القرآن تدل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله تعالى يتكلم [(٢)].

ذكر الأدلة من السنة على أن القرآن كلام الله:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، فَقَالَ: «**أَلا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي**» [(٣)].

وفي حديث الإفك، قالت عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى» [(٤)].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ،**

---

(١) الإبانة (٣/ ٢٢٧).

(٢) انظر: الإبانة (٣/ ٢٢٧-٢٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٨٧، ٢١٤) وأحمد (٣/ ٣٩٠) وأبو داود (٤٧٣٤) وابن أبي شيبة (١٤/ ٣١٠) وابن ماجه (٢٠١) والحاكم (٢/ ٦٦٩) وصحّحه الألباني على شرط البخاري في الصحيحة (١٩٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).

ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ - فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ»[(١)].

وفي رواية: «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا...»[(٢)].

قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: مَن قال القرآن مخلوق يُوجَع ضربًا ويُحبَس حتى يموت[(٣)].

قال حرب بن إسماعيل الكرماني رَحِمَهُ اللهُ: سمعتُ أبا عبد الله، وذكر عنده كلام الناس في القرآن أنه مخلوق، فقال: كُفر ظاهر، كُفر ظاهر[(٤)].

وقال: سألتُ إسحاق- يعني ابن راهويه- قلت: يا أبا يعقوب أليس تقول: القرآنُ كلام الله تكلم الله به ليس بمخلوق؟ قال: نعم، القرآنُ كلام الله ليس بمخلوق، ومَن قال إنه مخلوق فهو كافر[(٥)].

قال المروزي رَحِمَهُ اللهُ: سمعتُ أبا عبد الله يقول: مَن قال: القرآن مخلوق، فهو كافر بالله العظيم واليوم الآخر[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١) وغيره.

(٢) **صحيح**: سنن أبي داود (٤٧٣٨).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (١١).

(٤) أخرجه الخلال في السنة (١٨٢٦) وابن بطة في الإبانة (٢٢٦٢) والآجري في الشريعة (٨٥).

(٥) السنة للخلال (٢/ ٢١٧).

(٦) المصدر السابق.

قال أبو حامد الإسفراييني رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان من كبار أئمة السنة المثبتين للصفات:

مذهبي ومذهبُ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وجميع علماء الأمصار: أن القرآنَ كلام الله ليس بمخلوق، ومَن قال مخلوق فهو كافر، وأن جبريل عليه السلام سمعه من الله عز وجل وحمله إلى محمد ﷺ، وسمعه محمد ﷺ من جبريل عليه السلام، وسمعه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من النبي ﷺ، وأن كُلّ حرف منه كالباء والتاء كلام الله ليس بمخلوق، ذكره في كتابه: «أصول الفقه»، وذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الأجوبة المصرية»(١).

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ: ويشهد أهل الحديث ويعتقدون أن القرآنَ كلام الله وكتابه ووحيه وتنزيله غير مخلوق، ومَن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم(٢).

قال الأصبهاني: أجمَع المسلمُونَ أنّ القرآنَ كلامُ الله، وإذا صحّ أنه كلام الله صحّ أنه من صفة الله تعالى، وأنه عز وجل موصوف به، وهذه الصفة لازمة لذاته.

تقول العرب: زيد متكلّم، فالتكلّم صفة له، إلا أن حقيقة هذه الصفة الكلام، وإذا كان كذلك، كان القرآن كلام الله، وكانت هذه الصفة لازمة له أزلية(٣).

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (١٣٣، ١٣٤).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ١٦٥).

(٣) الحجة في بيان المحجة (ص: ٣٥٢).

ولـو عمـدت إلـى كتـب السـلف لجمـع أقـوالهم في هـذه المسـألة لطـال المـرام، ولكـن السـعيد يكتفـي باليسـير، والمخـذول لا يشـفيه الكثيـر، والله الهادي إلى سواء السبيل.

المبحـث الثالـث: شـبهات المعتزلـة والجهميـة فـي مسـألة خلـق القرآن، والرد عليها:

لما ابتدعت الجهمية هذه المقالة كانوا يقولون: إن الله تعـالى لا يـتكلم، أو يتكلم مجازًا.

لكن المعتزلة امتنعت من هـذا الإطـلاق، وقـالوا: إنـه مـتكلم، أو يـتكلم حقيقـة، لكـنهم فسـروا ذلـك بأنـه خلـق كلامًـا في غيـره. فلـم ينـازعوا قـدماء الجهمية في حقيقة المذهب، وإنما نازعوهم في اللفظ[1].

الآيات التي استدل بها الجهمية والمعتزلة على أن القرآن مخلـوق، تعـالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

مـن هـذه الآيـات قولـه تعـالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

فقالوا: «محدث» أي لم يكـن ثـم كـان، فـدل ذلـك –بـزعمهم– علـى أن القرآن مخلوق.

الرد: أجاب أهل العلم بأن المحدَث هو إنزالُ القرآن، فإن الله كان ينـزل القرآن شيئًا بعد شيء كما هو معلوم. وقيـل: المحـدث هـي الـتلاوة علـيهم وعلمهم به، أما القرآن فهو كلام الله غير مخلوق.

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (٥٦٨).

قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يقل: لا يأتيهم ذكر إلا كان محدثًا، وإنما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء]، فدل أن (ذكرًا) غير محدث.

ثم إنما أراد ذكر القرآن لهم، وتلاوته عليهم وعلمهم به، وكل ذلك محدث، والمذكور المتلو المعلوم غير محدث، كما أن ذكر العبد لله، وعلمه به وعبادته له محدث، والمذكور المعلوم المعبود غير محدث.

وحين احْتُج به على أحمد، قال: قد يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث، لا الذكر نفسه محدث.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا الذي أجاب به أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظاهر في الآية.

وإتيانه: تنزيله على لسان الملك الذي أتى به، والتنزيل محدث، وقد أجاب أحمد بالجواب الأول[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإن احتج بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قيل له: هذه الآية حجة عليك، فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميّز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما آكل إلا طعامًا حلالًا ونحو ذلك، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكن الذي أنزل جديدًا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولًا هو القديم

---

(١) الاعتقاد (ص: ١٠٠).

بالنسبة إلى المنزل آخرًا، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس]، وقال: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف][1].

قال ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم إن الجهمي.... ادعى أمرًا آخر، فقال: أنا أجد في الكتاب آية تدل على أن القرآن مخلوق، فقيل له: أي آية هي؟

قال: قول الله عز وجل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] أفلا ترون أن كل محدث مخلوق؟

فوهم على الضعفاء والأحداث وأهل الغباوة وموَّه عليهم، فيقال له: إن الذي لم يزل به عالمًا لا يكون محدثًا، فعلمه أزلي كما أنه هو أزلي، وفعله مضمر في علمه، وإنما يكون محدثًا ما لم يكن به عالمًا حتى علمه، فيقول: إن الله عز وجل لم يزل عالمًا بجميع ما في القرآن قبل أن ينزل القرآن، وقبل أن يأتي به جبريل وينزل به على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، قبل أن يخلق آدم، وقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، يقول: كان إبليس في علم الله كافرًا قبل أن يخلقه، ثم أوحى بما قد كان علمه من جميع الأشياء.

وقد أخبرنا عز وجل عن القرآن، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، فنفى عنه أن يكون غير الوحي، وإنما معنى قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٢)، و(٦/ ١٦٠-١٦١)، و(١٦/ ٣٨٣-٣٨٤).

ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ أراد: محدثًا علمه، وخبره، وزجره، وموعظته عند محمد ﷺ، وإنما أراد: أن نزول القرآن عليك يحدث لك، ولمن سمعه علم وذكر لم تكونوا تعلمونه.

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [طه]، فأخبر أن الذكر المحدث هو ما يحدث من سامعيه وممن علمه وأنزل عليه، لا أن القرآن محدث عند الله، ولا أن الله كان ولا قرآن؛ لأن القرآن إنما هو من علم الله، فمن زعم أن القرآن هو بعد، فقد زعم أن الله كان ولا علم ولا معرفة عنده بشيء مما في القرآن، ولا اسم له، ولا عزة له، ولا صفة له حتى أحدث القرآن.

ولا نقول: إنه فعل الله، ولا يقال: كان الله قبله، ولكن نقول: إن الله لم يزل عالمًا، لا متى علم ولا كيف علم، وإنما وهمت الجهمية الناس ولبّست عليهم بأن يقول: أليس الله الأول قبل كل شيء، وكان ولا شيء، وإنما المعنى في كان الله قبل كل شيء، قبل السموات والأرض، وقبل الأرضين، وقبل كل شيء مخلوق.

فأما أن نقول قبل علمه، وقبل قدرته، وقبل حكمته، وقبل عظمته، وقبل كبريائه، وقبل جلاله، وقبل نوره، فهذا كلام الزنادقة.

وقوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، فإنما هو ما يحدثه الله عند نبيه وعند أصحابه والمؤمنين من عباده، وما يحدثه عندهم من العلم، وما لم يسمعوه، ولم يأتهم به كتاب قبله، ولا جاءهم به رسول[(١)].

---

(١) الإبانة (٣/ ٣٦٢-٣٦٣)، وانظر: الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد (ص: ٢٤٢-٢٤٧).

الآية الثانية: ومما استدلوا به، قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

قالوا: جعلنا أي: خلقنا، فزعموا أن القرآن مخلوق.

الرد: وهذا الاستدلال باطل؛ لأن كلمة (جعل) لها معان كثيرة بحسب سياق الكلام، فهي تأتي بمعنى: أوجد، وبمعنى: صير، وبمعنى: الحكم على الشيء، وبمعنى: بعث أو أرسل، وبمعنى: شرع، وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: صيرناه.

قال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الجعل: أعم من فَعَلَ وصَنَعَ، وسائر أخواتها، وهو يجري مجرى (صار) و(طفق) فلا يتعدى، نحو: (جعل زيد يفعل كذا) أي: أقبل وأخذ وشرع وتلبس.

ومعنى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ (١) [المائدة: ١٠٣]، ما شرع، وما وضع. ولذلك تعدّى إلى مفعول واحد وهو: البحيرة.

ويجري مجرى (أوجد) فيتعدى إلى واحد أيضًا، نحو: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

ويكون بمعنى: إيجاد الشيء من شيء وتكوينه منه، نحو: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: ١١].

وبمعنى تصيير الشيء على حالة دون حالة، فيتعدى إلى اثنين، نحو: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

ويكون الجعل بمعنى: الحكم بالشيء على الشيء حقًّا كان، نحو:

---

(١) قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص]، أو باطلًا، نحو: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر].

وبمعنى: بعث، نحو: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥﴾ [الفرقان].

وبمعنى: قال، نحو: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وبمعنى: تبين، نحو: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣][1].

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ: أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فما أفسده من استدلال، فإن (جعل) إذا كان بمعنى: خلق، يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام:١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء]. وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى (خلق)[2].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، لم يقل: جعلناه فقط، حتى يظن أنه بمعنى خلقنا، ولكن قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: صيرناه عربيًّا؛ لأنه قد كان قادرًا على أن ينزله عجميًّا، فلما أنزله عربيًّا كان قد جعله عربيًّا دون عجمي، وهذه المسألة من أصول أهل السنة التي فارقوا فيها الجهمية والمعتزلة والفلاسفة ونحوهم[3].

الآية الثالثة التي احتجوا بها، قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ [التكوير].

---

(١) الكليات (ص: ٢٩٠).

(٢) العقيدة الطحاوية (ص: ١٣٣-١٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١٢).

قالوا: هذا يدل على أن الرسول أحدثه، إما جبريل عليه السلام أو محمد ﷺ.

الرد: أنه تلقاه أو سمعه من رسول كريم، فإضافة القول إلى الرسول إضافة تبليغ.

قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما قول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة]، معناه: قول تلقاه عن رسول كريم أو سمعه من رسول كريم، أو نزل به رسول كريم، فقد قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فأثبت أن القرآن كلام الله عز وجل، ولا يكون شيء واحد كلامًا للرسول ﷺ وكلامًا لله، دل أن المراد بالأدلة ما قلناه[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإن احتج بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير].

قيل له: فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة]، فالرسول في هذه الآية محمد ﷺ، والرسول في الأخرى جبريل عليه السلام، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران، فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث، ولهذا قال: (لقول رسول)، ولم يقل: ملك ولا نبي، ولا ريب أن الرسول بلّغه، كما قال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ لأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ**

---

(١) الاعتقاد (ص: ١٠٠).

أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»[(١)(٢)].

الآية الرابعة: وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦].

قالوا: والقرآن شيء فيكون داخلًا في عموم (كل) فيكون مخلوقًا.

فمن أعجب العجب، وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله، فأخرجوها من عموم (كل) وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففرّق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا لزم أن يكون مخلوقًا بأمرٍ آخر، والآخر بآخر، إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطلهم، وطرد باطل أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة[(٣)].

المبحث الرابع: إبطال دعوى الأشاعرة بأن الكلام معنى قائم بذات الله:

سبق قريبًا نقل إجماع أهل السنة[(٤)] على أنّ الله تعالى يتكلم بصوت يُسمَع، وكذا إجماع أهل اللغة أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، وعدا

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢١)، وانظر: الرد على الزنادقة والجهمية (ص: ٢٣٢-٢٣٦).

(٣) الطحاوية (ص: ١٣١-١٣٢).

(٤) راجع المبحث الأول: أقوال أهل السنة بأن الله يتكلم بصوت يُسمع.

الحروف والأصوات فليس بكلام حقيقة.

وأن الكلام صفة من صفات الله تعالى الذاتية الفعلية، فهي ذاتية باعتبار أنه سبحانه لم يزل مُتكلمًا، وفعلية باعتبار آحاد الكلام، إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم، كما سبق بيانه.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: مذهبُ الأشعري ومَن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الربِّ، وهو صفة قديمة أزلية، ليس بحرف ولا صوت، ولا ينقسم ولا له أبعاض، ولا له أجزاء، ولا عين الأمر وعين النهي وعين الخبر وعين الاستخبار، الكُلّ من واحد، وهو عين التوارة والإنجيل والقرآن والزبور، وكونه أمرًا ونهيًا وخبرًا واستخبارًا صفات لذلك المعنى الواحد وأنواع له، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء، وكونه قرآنًا وتوراةً وإنجيلًا تقسيمًا للعبارات عنه، لا لذاته، بل إذا عبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراةً، وإن عبر عنه بالسريانية كان اسمه إنجيلًا، والمعنى واحد، وهذه الألفاظ عبارة عنه، ولا يسميها حكاية، وهي خلق من المخلوقات، وعنه لم يَتكلمِ الله بهذا الكلام العربي... وجمهورُ العقلاء يقولون: إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم في بطلانه، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات، وهذا المذهب مبني على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى، وما يسمونها مسألة حلول الحوادث، وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته وإرادته ومشيئته [1].

قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض رده على الأشاعرة الذين يقولون: إنَّ

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص (٤٦٩-٤٧٠).

الكلامَ معنى قائم بالنفس:

فإذا قالوا: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

قلنا: هذا ردٌّ عليكم وليس لكم، بل هو دليلٌ عليكم وليس لكم؛ لأنّ الله لما أراد حديث النفس قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ولما أراد حديث اللسان قال: ﴿بِمَا نَقُولُ﴾ فأطلق، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ولم يقولوا: بما نقول في أنفسنا؛ لأنهم يقولون بألسنتهم، لكن يحدثون أنفسهم ويقولون: لولا يعذبنا الله بما نقول.

فحديثُ النفس لا يُسمى قولًا ولا كلامًا ولا حديثًا، إلا مقيدًا، وأما القول والحديث والكلام عند الإطلاق فإنما هو القول المسموع الذي يكون بالحروف[1].

وقوله: «والبصر»:

البصر لغة: حاسَّةُ الرؤية، وأبصرتُ الشيء: رأيته. والبصر: العلمُ، وبصرتُ بالشيء: علمتُهُ. قال تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦]، والبصير: العالم[2].

وشرعًا: البصر صفة من صفاته سبحانه وتعالى، فله بصر الرؤية، وله البصر بمعنى العلم.

---

(١) شرح السفارينية (ص: ١٨٠).

(٢) الصحاح للجوهري (ص: ٩٣).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعطي كلًّا بحسب ما يستحقه من العطاء(١).

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران] أي: عالم بمصالحهم، فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهَّدهم فيه من أمور الدنيا(٢).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: أي: عالمٌ بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة(٣).

وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: **النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٤).

ففي الآيات والأحاديث إثبات بصر الرؤية.

أما إثبات العين: ففي نصوص أخرى في الكتاب والسنة.

والبصر من الصفات الذاتية التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠) ط. ابن رجب.

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٤٢).

(٣) تفسير السعدي (١٢٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٩/ ٢٩٣).

وقوله: «سمع...»:

اعلم أن السمعَ صفة من صفات الله الذاتية، فلم يزل ولا يزال سميعًا.

قال جل ذكره: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة].

وقال جل في علاه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إثبات صفة السمع لله تعالى.

وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث طويل، وفيه: «**فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ...**»[1]، وغير ذلك من الأحاديث.

وهذا السمع ينقسم إلى عدة أقسام:

الأول: سمع عام لكُلّ شيء: فهذا يشمل المؤمن والكافر، وما يرضاه الله وما لا يرضاه، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة]، هذا عام يشمل كُلّ شيء.

الثاني: سمع خاص، مقتضاه النصر والتأييد: كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، فليس المراد هنا أن الله تعالى يسمعهما ويراهما مجرد سماع، ورؤية، بل المراد: أسمع وأرى فأنتصر لكما، فهذا السمع مُقتضاه النصر والتأييد.

الثالث: سمع قد يكون للتهديد والوعيد: مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾ [آل عمران: ١٨١]

وقولـه: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف][1].

أما السمع من حيث الاستجابة: فهو من الصفات الفعلية، إن شاء الله استجاب، وإن شاء لم يستجب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم]، أي: سَمْعَ استجابة لمن يدعوه.

إذًا: «فسمع الله تعالى» ينقسم إلى قسمين:

١- **سمع إدراك،** وهو من صفاته الذاتية، لم يزل ولا يزال سمعيًا، وهذا السمع منقسم إلى ثلاثة أقسام: سمع عام، سمع خاص، سمع تهديد ووعيد، كما سبق بيانه.

٢- **سمع استجابة،** وهو من صفاته الفعلية، إن شاء استجاب، وإن شاء لم يستجب، وقد تقدم بيانه.

وقوله: «إرادة...»:

الإرادة في القرآن قسمان: إرادة دينية شرعية، وإرادة كونية قدَرية.

أولاً: الإرادة الدينية الشرعية:

فهذه الإرادة متعلقة بشرع الله تعالى، وهي محبوبة إلى الله، لا شيء فيها يبغضه الله تعالى.

(١) ملتقط من كلام ابن عثيمين في شرح العقيدة الواسطية (١/ ٢٠٨ - ٢٠٩) باختصار وتصرف.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] وغير ذلك من الآيات.

ثانيًا: الإرادة الكونية القدَرية:

وهذه الإرادة قد يحبها الله، وقد يبغضها، وهو الذي أرادها.

قال جل وعلا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فثبت إرادته للهداية وهو يحبها، وثبت أيضًا إرادته للضلال وهو يبغضه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

قال الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح الآية: فأثبت الإرادة، ونفى الرضا[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والتحقيق: أن الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة دينية شرعية، وإرادة كونية قدَرية.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧].

فإن الإرادة هنا بمعنى المحبة والرضا، وهي الإرادة الدينية، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢١٣).

وأما الإرادة الكونية القدَرية: فمثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ومثل قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

فجميعُ الكائنات داخلة في هذه الإرادة والإشاءة، لا يخرج عنها خير ولا شر، ولا عُرف ولا نكر، وهذه الإرادة والإشاءَة تتناول ما لا يتناوله الأمر الشرعي[1].

مسألة: الفرق بين المحبة والرضا، والمشيئة والإرادة:

اختلف الناس في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب:-

الأول: مذهب الجبرية القدَرية:

وهؤلاء لم يفرقوا بين المحبة والرضا، وبين الإرادة والمشيئة، قالوا: كُلّ ما في الكون بقضاء الله وقدَره، ومن ثَمَّ كُلّ ما في الوجود يحبه الله ويرضاه، فزعموا أنَّ الله يحب المعاصي ويرضاها – تعالى الله عما يقول أهل الضَّلال عُلوًّا كبيرًا-.

الثاني: مذهب القدَرية النُّفاة:

قالوا: ليست المعاصي محبوبة لله، ولا مرضية له، ومن ثم هي ليست مُقدَّرة، أي: ليست بقضاء الله وقدَره، فهي – كما يزعمون- خارج مشيئته، وحُجتهم أنَّ الكونَ لا يكون فيه شيء لا يحبه الله.

الثالث: مذهب أهل السنة والجماعة:

الذين تمسكوا بنصوص الكتاب والسنة وفَهْم الصحابة الكرام ومَن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٣٢، ١٣٣).

تبعهم بإحسان من الأئمة الكبار.

نقول: إنَّ الإرادة الكونية فيها ما يحبه الله ويَرضاه، وفيها ما لا يحبه الله ولا يرضاه، ولكن وقع في الكون بإرادته لحِكْمَة.

أما الإرادة الشرعية: فهي محبوبة كُلّها لله تعالى.

قال أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: قد ثبت إرادته للكفر، ونفْي رضاه به، فقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ فأثبت الإرادة، ونفى الرضا[1].

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة الاصطخري: إن الله يحب ويكره، ويبغض ويرضى، ويغضب ويسخط، ويرحم ويعفو ويغفر، ويُعطي ويمنع.

وهذا الكلام يمنع أن تكون الإرادة كراهة في نفسها؛ لأنه فرَّق بينهما، خلافًا لأهل الكلام: أن الإرادة كراهة في نفسها.

فعندنا: يُريد الله ما لا يحبه ولا يرضاه، بل يكرهه ويسخطه ويبغضه، والإرادة غير المحبة والرضا.

وقال جماعة من المتكلمين: الإرادة حُب وبُغض، ورضا وسخط، وأنَّ مَن أراد شيئًا فقد أحبه ورضيه، وإنَّ الله تعالى رَضي المعصية والكفر.

وعندنا: أن الرضا غير الإرادة، بدليل قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ لأنّ النفي ضد الإثبات[2].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض ردِّه على مَن سوَّى بين المحبة والمشيئة:

---

(١) الحجة في بيان المحجة (ص: ٢١٣).

(٢) المصدر السابق.

فهل يرضى سبحانه ما قضي بـه مـن الكفـر والفسـوق والعصيان بوجـه مـن الوجوه؟ قيل: هذا الموضع أشكل من الذي قبله[١]. قال كثيرٌ من الأشعرية، بل جمهورهم ومَن اتبعهم: إنَّ الرضا والمحبة والإرادة في حق الرب تعـالى بمعنى واحد، وإن كان مـا شـاءه وأراده فقـد أحبـه ورضـيه، ثـم أوردوا على أنفسهم هذا السؤال، وأجابوا بأنه لا يمتنع أن يُقال إنه يرضـى بهـا، ولكـن لا على وجه التخصيص، بل يُقـال: يرضـى بكُـلّ مـا خلقـه وقضـاه وقـدَّره، ولا نُفرد من ذلك الأمـور المذمومـة، كـما يقـال: هـو ربُّ كُـلّ شـيء، ولا يُقـال: ربُّ كذا وكذا من الأشياء الحقيرة الخسيسة.

وهذا تصـريحٌ مـنهم بأنـه راض بهـا في نفـس الأمـر، إنـما امتنـع الإطـلاق أدبًا واحترامًا فقط.

فلما أورد عليهم قـوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: ٧] أجـابوا عنـه بجـوابين:-

أحدهما: ممن لم يقع منه، وأما مَن وقع منه فهو يرضـاه، إذ هـو بمشـيئته وإرادته.

والثاني: لا يرضاه لهم دينًا، أي لا يشرعه لهـم، ولا يـأمرهـم بـه، ويرضـاه منهم كونًا.

وعلـى قـولهم فيكـون معنـى الآيـة: ولا يرضـى لعبـاده الكفـر حيـث لـم يوجـد مـنهم، فلـو وجـد مـنهم أحبـه ورضـيه، وهـذا في الـبطلان والفسـاد كما تراه.

---

(١) الذي قبله هو موضع رضا العبد بقضاء الله وإن كان لا يحبه.

وقد أخبر سبحانه أنه لا يرضى ما وجد من ذلك وإن وقع بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [النساء: ١٠٨].

فهذا وقع بمشيئته وتقديره، وقد أخبر سبحانه أنه لا يرضاه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة].

فهو سبحانه لا يحبه كونًا، ولا دينًا، وإن وقع بتقديره، كما لا يحب إبليس وجنوده، وفرعون وحزبه، وهو ربهم وخالقهم.

فمَن جعل المحبة والرضا بمعنى الإرادة والمشيئة لزمه أن يكون الله سبحانه محبًّا لإبليس وجنوده وفرعون وجنوده وهامان وقارون وجميع الكفار...»[1].

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه عن الحكمة التي من أجلها خلق الله أشياء لا يحبها ولا يرضاها:

فإن قيل: كيف يُريدُ الله أمرًا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويُكوّنه؟ وكيف يجتمع إرادته له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقًا، وتباينت طُرُقهم وأقوالهم، فاعلم أن المرادَ نوعان: مراد لنفسه، ومرادٌ لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد يكون مقصودًا للمُريد، ولا فيه مصلحة بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه

---

(١) شفاء العليل (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).

وذاته، مرادٌ له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بُغضه وإرادته، ولا يتنافيان؛ لاختلاف مُتعلقهما.

وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءَهُ، وكقطع العضو المتآكل إذا عَلم أنّ في قطعه بقاءَ جسده، وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه.

بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية؟

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته؛ لأجل غيره، وكونه سببًا إلى أمر هو أحب إليه من فواته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادةٌ لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سببٌ لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يُغضب الربَّ تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا، فهو وسيلة إلى محابٍّ كثيرةٍ للربِّ تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عَدَمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدْرة الرب تعالى على خلق المتضادات والمتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كُلّ شر في مُقابلة ذات جبريل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة الخير، فتبارك خالق هذا وهذا.

كما ظهرت قدْرته في خلق الليل والنهار، والداء والدواء، والحياة والموت، والحسَن والقبيح، والخير والشر، وذلك من أدل دليل على كمال قدْرته وعزته ومُلكه وسُلطانه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهْرية.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعَفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن خلقه. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «... **لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» (١).

ومنها: ظهورُ آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنّه الحكيمُ الخبير الذي يضع الأشياءَ مواضعها، ويُنزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضعُ الشيءَ في غير موضعه، ولا يُنزلُهُ في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن يصلح لذلك، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة، ولو عُطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي بتلك الأسباب.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلقُ إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحبِ أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كُلّهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى، والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله من أن يُجيره من عدوه، ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٩-٢٣١) باختصار.

وقوله: «وعلم...»:

العلمُ صفة من صفات الله الذاتية، فلم يزل ولا يزال سبحانه وتعالى وعز وجل عالمًا بكُلّ شيء، فصفة العلم ثابتة لله بالنص والإجماع.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق].

وقال جل ذكره: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾: قال رسُولُ الله ﷺ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]»(١)، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾، أي: يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وما أحسن ما قال الصَّرصريُّ:

فَلا يَخْفَى عَلَيْهِ الذَّرُّ إِمَّا ... تَرَاءَى لِلنَّوَاظِرِ أَوْ تَوَارَى

---

(١) البخاري (٤٧٧٨، ٧٣٧٩).

وقوله: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنُّك بالحيوانات؟ ولا سيما المكلفون منهم، من جنِّهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر](1).

وفي حديث الاستخارة، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ...»(2)، وفي قول الخضر لموسى عليهما السلام: «يا موسى، إني على علم من علم الله علَّمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم علَّمكه لا أعلمه»(3).

وقوله: «واقتدر»:

القُدرة من صفات الله جل في علاه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال].

وقوله: «اقتدر» صيغة مبالغة، فهي أبلغ من قدَر.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٠﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ

---

(1) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥، ٢٦).
(2) أخرجه البخاري (٦٣٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
(3) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس وأُبيّ بن كعب رضي الله عنهما.

عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ [القمر].

وقال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: «... وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(١). وقال ﷺ لأبي مسعود البدري رضي الله عنه، لما ضرب غلامه: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ»(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

قال صاحب النظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٧ - بِقُـدْرَةٍ تَعَلَّقَـتْ بِمُمْكِـنِ كَـذَا إِرَادَةٌ فَـعِ واسْـتَبِنِ

الشرح

القُدرة تتعلق بالممكنات، وكُلّ ممكن فالله قادر عليه، أما المستحيلات فهذه ليست بشيء، والله – جل وعلا- يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة]، والمستحيل هذا ليس بشيء؛ لا يدخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ فقُدرته تتعلّق بالممكنات.

قوله: «بقُدرة تعلَّقت بممكن»:

أي: أن الأشياء الممكن وجودها أو عدم وجودها الله قادر على إيجادها، وهذا يشمل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ على كُلّ شيء من الممكنات، أما المستحيلات فهذه ليست بشيء، فلا تدخُل في عُموم قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة].

«كذا إرادة»:

الإرادة أيضًا تتعلق بالممكن، ما أراده الله كان، أما المستحيل فهذا ليس بشيء، ولا يدخل في العموم.

«فَعِ واستبن»:

«عِ» فعل أمر من «وعى» من الوعي، وهو: النبه والحفظ والتدبر. واستبن، يعني: تبين واعلم هذا الشيء وتيقنْه. قاله الفوزان حفظه الله.

ثم قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٨ - وَالعِلْـمُ والْكَـلَامُ قَـدْ تَعَلَّقَـا بِكُـلِّ شَـيْءٍ يَـا خَلِيلـي مُطْلَقَـا

الشرح

فرَّق الناظمُ في هذا البيت بين القُدرة والعلم، فالقُدرة تتعلق بالممكنات لا بالمستحيلات، كما سبق بيانه.

أما العلم فهو عام لكُلّ شيء بلا تقييد، فالله سبحانه عليم بكُلّ شيء من الممكنات والمستحيلات، فهو يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

قال جل ذكره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

فهؤلاء الكفار الجاحدون المنكرون للبعث، يوم القيامة عندما يروا العذابَ يستغيثون ويسألون الله تعالى أن يُرجعهم إلى الدنيا ليعملوا صالحًا، وهذا مُستحيلٌ، فعَلِمَ الله سبحانه أنَّ هذا المستحيلَ لو وقع وردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر.

وكذلك الكلام؛ فالله تعالى يمكن أن يتكلم بالشيء المستحيل، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء]؛ فتكلم بشيء مستحيل، وهو سبحانه القائل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٩ - وَسَمْعُهُ سُبْحَانَهُ كَالْبَصَرِ   بِكُلِّ مَسْمُوعٍ وَكُلِّ مُبْصَرِ

الشرح

أي: أن السمعَ يتعلق بالمسموعات، لا بكُلّ شيء، وكذلك البصر يتعلق بالمبصرات.

فسمعه وبصره عامان لكُلّ مسموع وكُلّ مبصر، فكُلّ شيء يُدرَك بالسمع فاعلم أن الله تعالى يسمعه، وكُلّ شيء يُرى بالبصر فالله تعالى يبصره، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران].

تنبيه:

ذكر صاحبُ النظم في الأبيات السابقة سبع صفات لله تعالى فقط، وهي الصفات التي لا خلاف فيها بين أهل السنة وأهل التأويل من الأشاعرة ونحوهم من حيث العدد، واختلفوا في كيفية الإيمان بها، وقد سبق الرد عليهم(١).

أما أهل السنة والجماعة -منهم صاحب النظم- فمنهجهم إثبات جميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه، وأثبتها له نبيه ﷺ في الأحاديث الصحيحة، من غير تمثيل ولا تكييف، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وقد سبق بيان ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أئمة السلف.

---

(١) راجع شرح البيت الرابع والثلاثين- اختلاف الناس في صفات الله عز وجل.

ويستطرد الناظم رَحِمَهُ اللهُ قائلًا:

٤٠ - وَأَنَّ مَا جَاءَ مع جِبْرِيلِ ... مِنْ مُحْكَمِ القُرْآنِ والتَّنْزِيلِ

٤١ - كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ قَدِيمُ ... أَعْيَا الوَرَى بالنَّصِّ يَا عَلِيمُ

٤٢ - وليسَ في طوْقِ الورَى من أصلِهِ ... أنْ يستطيعوا سُورةً منْ مِثلِهِ

الشرح

قوله: «وأنَّ»: أي: ونجزم أنَّ. «ما جاء»: أي: الوحي والكلام الذي جاء من عند الله تعالى. «مع جبريل»: عليه السلام؛ وهو أمين الوحي.

قوله: «من محكم القرآن والتنزيل»:

من باب عطف المترادفين، فإنّ التنزيلَ هو القرآنُ، وهو كلام الله تعالى، ووصفه بأنه محكَم من باب إضافة الصفة إلى الموصوف. وإحكام القرآن أي: إتقانه؛ فالقرآن متقن من كل وجه، لذلك وصفه الله بأنه محكم؛ قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقال سبحانه: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس]، والتنزيل؛ أي: المنزَّل.

جبريل عليه السلام: أشرف الملائكة، وهو الذي وَكّله الله تعالى بالوحي.

الوحي لغة: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكُلّ ما ألقيته إلى غيرك، يُقال: وحَيْتُ إليه الكلام وأوحَيْتُ ووحَى وحْيًا... وأوحَى إليه: ألْهَمه.

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وفيه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة]، أي: إليها، فمعنى هذا أمَرَها[١].

وشرعًا: الإعلامُ بالشرع، ويُطلق الوحي ويُراد به اسمُ المفعول منه، أي: الموحَى، وهو كلامُ الله المنزّل على النبي ﷺ[٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وجبريلُ عليه السلام: جاء بالقرآن، ونزَّله على قلب نبينا محمد ﷺ. قال جل ذكره: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالذي أنزله فاطرُ الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العُلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دُنياهم وأبدانهم، فإنه يُربيهم أيضًا بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم الذي اشتمل على الخير الكثير والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره.

وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ وهو جبريلُ عليه السلام الذي هو أفضلُ

---

(١) اللسان (٩/ ٢٤٣)، مادة (وحي).

(٢) الفتح (١/ ١٤، ١٥).

الملائكة وأقواهم، «الأمين» الذي قد أمِن أن يزيد فيه أو ينقص[(١)].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ وهو جبريلُ عليه السلام، قاله غير واحد من السلف، وهذا ما لا نزاعَ فيه[(٢)].

وقوله: «من محكم القرآن والتنزيل»:

القرآنُ كلامُ الله غير مخلوق، وقد سبقت المسألة.

مسألة: هل القرآنُ كُلّه مُحكم؟

معنى الإحكام لغة: الإتقان.

والإحكامُ والتشابه في القرآن ثلاثة أنواع[(٣)]:

النوع الأول: الإحكام العام:

ومنه قوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، أي: منعت وحُفظت عن الغلط، والكذب، والباطل، والخطأ، والتناقض، قاله الكَفوي[(٤)].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي: جعلت محكمة كُلّها، لا خلل فيها ولا باطل[(٥)].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: أتقنت وأحسنت، صادقة أخبارها، عادلة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٩٧، ٥٩٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٢).
(٣) هذا التقسيم مُستفاد من شرح أصول في التفسير لابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) الكليات (٣١٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٦).

أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه، بهية معانيه[(١)]. انتهى.

فالقرآنُ كُلّه وُصف بهذا النوع من الإحكام.

النوع الثاني: المتشابه العام:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُشبه بعضه بعضًا في الحسن، ويُصدق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف، مثاني: يثني فيه ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والأخبار والأحكام[(٢)].

فالقرآن بهذا المعنى كُلّه مُتشابه.

النوع الثالث: الآيات المحكَمات والآيات المتشابهات:

قال جلّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران].

الآيات المحكمات: هي الآيات الواضحات المعنى، فلا شُبهة فيها ولا إشْكال، كالأمر بتوحيد الله تعالى وطاعته طاعة مُطلقًا، والأمر بالبر وحسن الخلق، والنهي عن اقتراف الذنوب والمعاصي على اختلاف أنواعها، إلى

---

(١) تفسير السعدي (٣٧٦).

(٢) معالم التنزيل (٧/ ١١٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٢).

غير ذلك، وهو كثير في القرآن.

أما المتشابهات: فهي التي يلتبس معناها على عوام الناس.

وقيل: المتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه وتأويله.

وسببُ الاختلاف: هل نقف على اسم الجلالة أم لا؟

للعُلماء في الوقوف عند اسم «الله» في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قولان:

الأول: المتشابه هو الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى، مثل: كيفية الصفات، وقت الساعة، وقت طلوع الشمس والدجال، وما أشبه ذلك، وهذا عند مَن جعل الوقف عند اسم الجلالة، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا القول هو الراجح عند أكثر أهل العلم في معنى ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

الثاني: عطف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ على اسم الجلالة «الله» عند مَن جعل الوقف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، فبعضُ الآيات لا يعلم معناها إلا الله والراسخون في العلم، ولا يعلم معناها عوامّ الناس، وإذا اعتمد على فهمه قد يضل، ويقول على الله ما لا يليق، كمن وقع من أهل البدع في تحريف وتعطيل صفات الله تعالى، وغير ذلك، فالجاهل والمبتدع يتبع المتشابه ابتغاء الفتنة، كما قال سبحانه.

فالواجب: أن يُرد المتشابه إلى المحكم من الآيات، لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، فالقرآنُ ليس فيه تعارُض ولا اختلاف، قال جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض تفسيره للآية: والمعنى أن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه، وإنما يقولون: آمنا به على وجه التسليم والانقياد والاعتراف بالعجز عن معرفته.

وقيل: إنه معطوفٌ على ما قبله، وأن المعنى: أنهم يعلمون تأويله. وكلا القولين مروي عن ابن عباس...[(١)].

قال ابنُ عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المتشابه نوعان: نوعٌ انفرد الله بعلمه، ونوعٌ يمكن وصول الخلق إليه، فيكُون الراسخون ابتداء بالنظر إلى الأول وعطفًا بالنظر إلى الثاني ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي المحكم والمتشابه من عند الله[(٢)].

قال جابرُ بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا – وهو مُقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما –:

المحكماتُ من آي القرآن: ما عُرف تأويله، وفُهم معناه وتفسيره.

والمتشابه: ما لم يكن لأحَد إلى علمه سبيل، مما استأثر الله تعالى به دون خلقه. قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا أحسنُ ما قيل في المتشابه[(٣)].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: للمُفسرين في الوقوف على لفظ «الله» من قوله:

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ١٣-١٤)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٦)، وفتح الباري (٨/ ٥٨)، ومحاسن التأويل (٢/ ١٠).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قولان: جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك كُلّه محتمل، فإنّ التأويلَ إن أريد به علم حقيقة الشيء وكُنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كُنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله تعالى وكيفيتها... وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح كان الصوابُ عطف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ على ﴿ٱللَّهُ﴾ فيكون الله قد أخبر أنّ تفسير المتشابه وردّه إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى، والراسخون في العلم يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها، ويَردونها للمُحكم، ويقولون: ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو مُتفق يُصدق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض[1].

وقوله: «كلامُهُ سُبحانه قديم»:

سبق بيانُ أنّ الكلامَ صفة من صفات الله، لم يزل ولا يزال متكلمًا، أما آحاد الكلام- باعتباره أنه من صفات الأفعال- فيتجدّد، إن شاء تكلم، وإن شاء لم يتكلم، وقد ذكرتُ المسألة باستيفاء يغني عن الإعادة، أما الكلام عن «لفظ القديم» فقد سبق بيانه أول الكتاب.

مسألة: هل القرآنُ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ؟

نعم، القرآنُ كلامُ الله، تكلّم به بمشيئته، وكتب في اللوح المحفوظ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ١٢٢).

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ يقول تعالى ذكره: هو قرآن كريم مُثبَت في لوح محفوظ[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي مكتوبٌ في لوح، وهو محفوظٌ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أم الكتاب، ومنه انتسخ القرآنُ والكتب[٢].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوحُ المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كُلّ شيء[٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اللوحُ المحفوظ منه نسخ القرآن وسائر الكتب، فهو محفوظ عند الله، محروس من الشياطين، ومن الزيادة والنقصان[٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السَّلفُ قالوا: القرآنُ كلامُ الله مُنزّل غير مخلوق. وقالوا: لم يزل متكلمًا إذا شاء، فبيَّنوا أنّ كلامَ الله قديم، أي جنسه قديم لم يزل، ولم يقل أحد منهم: إنّ نفسَ الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم: القرآنُ قديم، بل قالوا: إنه كلام الله مُنزّل غير مخلوق، وإذا كان الله قد تكلّم بالقرآن بمشيئته كان القرآنُ كلامه، وكان مُنزّلًا منه غير مخلوق، ولم يكن مع ذلك أزليًّا قديمًا بقدم الله، وإن كان اللهُ لم يزل متكلمًا إذا شاء، فجنس كلامه قديم، فمَن فهم قول السلف وفرّق بين هذه الأقوال زالت عنه

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨٤).

(٣) تفسير السعدي (٩١٩).

(٤) زاد المسير (٩/ ٧٩).

الشُّبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض... إلى أنْ قال: والقرآنُ المكتوبُ في المصاحف غير مخلوق، وكذلك المكتوبُ في اللوح المحفوظ وغيره.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج][1].

وقوله: «أعيا الورى بالنص يا عليم...»:

أي أعجز الجنَّ والإنس أن يأتوا بمثله؛ لأنه كلامُ الله تعالى، فليس في وسع أحد من الخلق أن يأتي بسُورة من مثل القرآن، فضلًا عن أن يأتي بمثل القرآن كُلّه، على أن القرآن نزل على نبينا محمد ﷺ وسمعته منه قريش والعرب، وهم أهل البلاغة، مع شدة العداوة للنبي ﷺ، ما استطاع أحد منهم أن يأتي بسورة، كما تحداهم ربنا جل في علاه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

فقوله: «بالنص»:

هو ما ذكرناه من الآيات.

وقوله: «وليس في طوق الورى من أصله أن يستطيعوا سورة من مثله»:

أي: ليس في استطاعة الخلق أن يأتوا بسورة من مثله، أي: القرآن.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٤ – ٥٦).

فصل
في ذكر الصفات التي يثبتها لله أئمةُ السلف
دون غيرهم من الخلف وأهل الكلام

يقول الناظم رحمه الله تعالى:

٤٣ - وَلَـيْسَ ربُّنَـا بِجَـوْهَرٍ وَلَا عَـرَضٍ ولا جِسْـمٍ تَعَـالى ذُو الْعُلَـى

٤٤ - سُـبْحَانَهُ قَـدِ اسْـتَوَى كَمَـا وَرَدْ مِـنْ غَيْـرِ كَيْـفٍ قَـدْ تَعَـالَى أَنْ يُحَـد

الشرح

معنى الجوهر لغة: الجَوْهَرُ معروف، والواحدة: جوهَرةٌ.

والجوهرُ: كُلّ حَجَر يُستخرج منه شيء يُنتفع به، وجوهرُ كُلّ شيء: ما خُلقت عليه جبلته[1].

والجسمُ لغة: جماعةُ البدن أو الأعضاء من الناس والإبل والدواب وغيرهم من الأنواع العظيمة الخَلْق[2].

قال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والجسمُ والجوهر في اللغة بمعنى، وإن كان الجسمُ أخص من الجوهر اصطلاحًا؛ لأنه مُؤلَّفٌ من جَوهرين أو أكثر، على الخلاف في أقلّ ما يتركب منه الجسم[3].

وللفلاسفة والمناطقة كلامٌ آخَر، أعرضتُ عن ذكره؛ لأنّ ضرره أكبر

(١) اللسان (٢/ ٢٤٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكليات (ص: ٢٨٧).

من النفع بمعـرفته، إن كان فيه نفع.

والعَرَضُ لغة: ما لا يكونُ له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلمون العَرض لما لا ثبات له إلا بالجوهـر، كاللون والطعم[١]، انتهى.

اعلم أنّ اعتقادَ أهل السنة والجماعة قاطبة هو إثبـاتُ مـا أثبته الله تعـالى لنفسه، وأثبته له نبيه ﷺ كما جاء في الكتاب والسنة، ونفي ما نفاه الله تعـالى عن نفسه، ونفـاه عنه نبيه ﷺ. وقـد نفي المؤلـف عـن الله تعـالى أن يكـون جسمًا أو عَرضًا أو جوهرًا؛ ليرد بذلك على الفلاسفة وأهل الكلام. أما أهلُ السنة فلا يُطلقون هذه الألفاظ، لا بالإثبات، ولا بـالنفي؛ لأنَّ هـذه الألفـاظ لم يأت فيها نص، لا من كتاب ولا سُنة.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: القولُ الثابت عن أئمة السـنة المحضة كالإمـام أحمد وذويه، فلا يُطلقون لفظ «الجسم» لا نفيًا ولا إثباتًا؛ لوجهين:-

أحـدهما: أنـه لـيس مـأثورًا لا في كتـاب، ولا في سُـنة، ولا أثـر عـن أحـد الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، ولا غيرهم مـن أئمـة المسـلمين؛ فصـار مـن البدع المذمومة.

الثاني: أنّ معناه فيه حَق وباطـل، فالـذين أثبتـوه أدخلـوا فيـه مـن الـنقص والتمثيل ما هو باطل، والذين نفوه أدخلوا فيه من التعطيل والتحريف ما هو باطل[٢].

قال رَحِمَهُ اللهُ **في موضع آخر**: وأما الألفـاظ التي تنـازَع فيهـا مَـن ابتـدعها مـن

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٦٤).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٢٥).

المتأخرين، مثل لفظ «الجسم» و«الجوهر» و«المتحيِّز» و«الجهة» ونحو ذلك، فلا تطلق نفيًا ولا إثباتًا حتى يُنظر في مقصود قائلها، فإن كان قد أراد بالنفي والإثبات معنًى صحيحًا موافقًا لما أخبر به الرسول ﷺ صُوِّب المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغي أن يُعبر عنه بألفاظ النصوص، لا يعدل إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المرادُ بها، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع مَن لا يتم المقصودُ معه إن لم يخاطب بها، وأما إن أُريد بها معنى باطل نُفي ذلك المعنى، وإن جُمع بين الحق والباطل أثبت الحق وأبطل الباطل(١).

وقوله: «سبحانه» أراد به التنزيه، أي أنّ الله تعالى ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم، وهذا كما سبق بيانه ليس تنزيهًا لله، وذلك لثلاثة أوجه:-

أحدها: أن النفي المحض ليس تنزيهًا، ولا مدحًا ولا كمالًا؛ فلا بد من إثبات كمال الضد، وهذا خطابُ القرآن، وقد سبقت المسألة(٢).

الثاني: اعتقادُ أهل السنة قاطبة هو الإثباتُ المفصّل لصفات الله، والنفي المجمل، كما جاءت النصوصُ بذلك، وقد سبق بيان ذلك أيضًا(٣).

الثالث: كما تقدم في شرح البيت السابق، أنه ليس في هذه الكلمات التي استعملها الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلٌ من الكتاب أو السنة.

وقوله: «قد استوى كما ورد»:

ذكر صاحبُ النظم في هذا البيت صفة من صفات الله الفعلية، ألا وهي

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٢) راجع شرح البيت السابع والعشرين.

(٣) راجع شرح البيت السابع والعشرين.

الاستواء، وبيّن اعتقاد أهل السنة والجماعة في ذلك، وهو إثباتُ الصفة وفهم المعنى من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

ومن أجود ما قيل في إثبات هذه الصفة، قول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] كيف استوى؟ فقال: الكيفُ غير معقول، والاستواءُ غير مجهول، والإيمانُ به واجب، وأمر به فأخرج(١).

ذكر الآيات التي جاء فيها الاستواء على العرش:

ذكر الله تعالى الاستواء على العرش في سبعة مواضع من القرآن.

قال جل ذكره: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] [يونس: ٣].

وقال جلّ في علاه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الرعد: ٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [السجدة: ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ۝٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال تعالى ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الحديد: ٤].

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه في ثنايا شرح البيت الخامس والعشرين.

ذكرُ أقوال بعض السلف في إثبات صفة الاستواء:

أقوالُ السَّلف في هذه المسألة كثيرة جدًّا، يصعُب استيفاؤها، نذكر بعضًا منها هاهنا.

قال الإمامُ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وحذر يزيد بن هارون عن الجهمية، قال: من زعم (أن الرحمنَ على العرش استوى) على خلاف ما يَقِرُّ في قُلوب العامة، فهو جَهْمي[(١)].

قال ابن خُزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فنحن نُؤمن بخبر الله جلّ وعلا، أنّ خالقنا مستو على عرشه، لا نبدل كلامَ الله، ولا نقولُ قولًا غير الذي قيل لنا، كما قالت المعطلة الجهمية: إنه استولى على العرش، لا استوى عليه، فبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، كفعل اليهود... قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ- أُرَاهُ- وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»[(٢)(٣)].

قال أبو مطيع البلخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الفقه الأكبر: سألتُ أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض؟ قال: كَفر؛ لأنّ الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، وعرشه فوق سمواته، فقلتُ: إنه يقول على العرش، ولكن لا أدري العرش في السماء أو في الأرض؟ فقال: إنه إذا أنكر أنه في السماء كَفر؛ لأنه تعالى في أعلى عليين، وأنه يُدعَى من أعلى لا

(١) خلق أفعال العباد (٦٣) والسنة لعبد الله بن أحمد (٤٨).
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) وغيره.
(٣) التوحيد (ص: ٨٩-٩١) باختصار.

من أسفل(١).

قال أبو عمر الطَّلمنْكيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أحد أئمة المالكية- وهو شيخ أبي عمر يوسف بن عبد البر- في كتابه الكبير الذي سماه «الوصول إلى معرفة الأصول» فذكر فيه من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأقوال مالك وأئمة أصحابه، ما إذا وقف عليه الواقف علم حقيقة مذهب السلف.

قال في هذا الكتاب: أجمع أهلُ السنة على أنّ الله تعالى على عَرشه على الحقيقة، لا على المجاز(٢).

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ: ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله- سبحانه- فوق سبع سماواته، وعلى عرشه مستو، كما نطق به كتابه... وذكر الآيات كما تقدم، ثم قال: وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف- رحمهم الله- لم يختلفوا في أن الله تعالى على عرشه، وعرشه فوق سماواته(٣).

قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد سئل عن تفسير ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ؛ هو على عرشه، وعلمه في كل مكان، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله(٤).

قال إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى، ويعلم كل شيء في

---

(١) من مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية (١/ ١٨٣).
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٥٣).
(٣) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ١٧٥، ١٧٦).
(٤) أورده الذهبي في العلو (ص: ١٨٨).

أسفل الأرض السابعة. قال الذهبي: اسمع، ويحك إلى هذا الإمام كيف نقل الإجماع على هذه المسألة، كما نقله في زمانه قتيبة المذكور[١].

أقوالُ السلف في معنى الاستواء:

ذكر أهل العلم عن السلف أربعة أقوال في تفسير الاستواء:

الأول: وهو قول أبي العالية، والحسن البصري، والربيع بن أنس، أن معناه: ارتفع.

الثاني: وهو قول مجاهد، والحسن، وأبي العالية، والربيع، وأبي عبيد، أن معناه: علا.

الثالث: وهو قول ابن المبارك، وكثير من أهل العلم ممن تابعه، على أن معناه: استقر.

الرابع: وهو قول أبي عبيدة مَعمر بن المثنى، أن معناه: صعد.

وقد جمع هذه المقالات ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية»، فقال:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حُصِّلت للفارس الطَّعَّان

وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القولَ في تفسيره ... أدرَى من الجهمي بالقرآن[٢]

---

(١) أورده الذهبي في العلو (ص: ١٧٩) وعزّاه للخلال.

(٢) القصيدة النونية (٢/ ٢٠٠).

مسألة: إبطالُ تأويل استوى بمعنى استولى:

رُوي عن أبي سليمان- داود بن عليّ- قال: كنا عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل، فقال له: ما معنى قول الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه] فقال: هو على عرشه، كما أخبر عز وجل، فقال: يا أبا عبد الله، ليس هذا معناه، إنما معناه: استولى. قال: اسكت، ما أنت وهذا؟ لا يقال: استولى على الشيء إلا أن يكون له مُضاد، فإذا غلب أحدهما قيل: استولى(١).

قال أبو سليمان- داود بن علي- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنا عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل، فقال له: ما معنى قول الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]؟

فقال: هو على العرش كما أخبر- عز وجل- فقال: يا أبا عبد الله، ليس هذا معناه، إنما معناه: استولى على الشيء. فقال: اسكت، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد، فإذا غلب أحدهما قيل استولى، أما سمعت النابغة:

أَلا لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ ... سَبْقَ الجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الأَمَدِ(٢)

وقال أبو العباس ثعلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من أئمة اللغة:

استوى: أقبل عليه، وإن لم يكن معوجًا ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]: أقبل، و﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الفرقان: ٥٩]: علا، واستوى

---

(١) أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (٦٦٦) والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٧٨).

(٢) المصدر السابق.

وجهه: اتصل، واستوى القمر: امتلأ، واستوى زيد وعمرو: تشابها، واستوى فعلاهما، وإن لم تتشابه شخوصهما. هذا الذي يعرف من كلام العرب(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده على مَن قال استوى بمعنى استولى: هذا الذي قاله باطل من اثنين وأربعين وجهًا: -

أحدها: أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم، وأنزل بها كلامه، نوعان: مُطلق، ومُقيد، فالمطلق ما لم يوصل معناه بحرف، مثل قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، وهذا معناه: كمل وتم، يقال: استوى النبات واستوى الطعام.

أما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها: مقيد بـ «إلى»، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، واستوى فلان إلى السطح وإلى الغُرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعدَّى بـ «إلى» في موضعين من كتابه في البقرة؛ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[البقرة: ٢٩]، والثاني في سُورة فصلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف.

الثاني: مُقيَّد بـ «على»، كقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾[هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا أيضًا معناه: العلو، والارتفاع، والاعتدال، بإجماع أهل اللغة.

---

(١) أخرجه اللالكائي (٦٦٦).

الثالث: المقرون بواو «مع» التي تُعدي الفعل إلى المفعول معه، نحو: استوى الماء والخشبة، بمعنى ساواها.

وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنى استولى ألبتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يُعتمَد قولهم(١).

فائدة جليلة:

خلق الله تبارك وتعالى العرشَ لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه، ولم نُكلف بمعرفة الحكمة من ذلك، ولكن ما كُلفنا به هو الإيمان بأنّ الله تعالى خالقُ كُلّ شيء، وهو سبحانه مُستغنٍ عن مخلوقاته، فالعرش وحملته، والسموات وما فيها، والأرض وما عليها، وكُلّ ما في الكون مفتقر إليه، محتاج إليه، لأنه كان ولا شيء معه، فهو الخالق قبل الخلق، خلقهم لحكمة، وهو مُستغن عنهم، سبحانه وتعالى وعز وجل.

قوله: «من غير كيف قد تعالى أن يحد»:

سبق وأن أصّلنا وفصلنا اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفات الله تعالى.

فقوله: «من غير كيف»:

هذا اعتقادُ أهل السنة قاطبة، إثباتُ الصفة وإثبات المعنى من غير كيف.

وقوله: «قد تعالى أن يحد»:

ابتداءً لا بُدَّ أن نعلم أن الحدَّ ليس من صفات الله التي جاءت في الكتاب

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٤٩) باختصار.

والسنة.

والقول في الحد، كالقول في الصفات، نثبت الصفة والمعنى، ولا نعلم كيفيتها، وكذلك الحد؛ نثبت لله الحد، ونثبت أن لحده غاية، ولكن لا نعلمها، بل نكل هذا لله، لذلك قال المصنف: «تعالى الله أن يحد»؛ أي: تعالى الله أن يحده العباد.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: قال أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه الذي سمَّاه «نقض عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله في التوحيد» قال في باب الحد والعرش: وادعى المعارض أيضًا أنه ليس له حد ولا غاية ولا نهاية، قال: وهذا الأصل الذي بنى عليه جهم جميع ضلالاته، واشتق منه أغلوطاته، وهي كلمة لم يبلغنا أنه سبق جهمًا إليها أحد من العالمين، فقال له قائل ممن حاوره: قد علمت مرادك أيها الأعجمي، تعني أن الله- تعالى- لا شيء؛ لأن الخلق كلهم علموا أنه ليس شيءٌ يقع عليه اسم الشيء إلا وله حد وغاية وصفة، وأنه لا شيء ليس له حد ولا غاية ولا صفة؛ فالشيء أبدًا موصوف لا محال، ولا شيء يوصف بلا حد، ولا غاية، وقولك «لا حَدَّ له» تعني أنه لا شيء[1].

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ: والله تعالى له حد لا يعلمه غيره، ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده غاية في نفسه، ولكن نؤمن بالحد، ونكل علم ذلك إلى الله تعالى، ولمكانه أيضًا حدٌّ، وهو على عرشه فوق سماواته؛ فهذان حدَّان اثنان.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٦).

قال: وسئل ابن المبارك: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على عرشه بائن من خلقه. قيل: بحد؟ قال: بحد. حدثناه الحسن بن صالح البزار، عن علي بن الحسين بن شقيق، عن ابن المبارك؛ فمن ادعى أنه ليس لله حد، فقد رد القرآن، وادعى أنه لا شيء؛ لأن الله تعالى وصف حد مكانه في مواضع كثيرة من كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل] ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

فهذا كله وما أشبهه شواهد ودلائل على الحد، ومن لم يعترف به، فقد كفر بتنزيل الله تعالى، وجحد آيات الله تعالى.

ثم ذكر جملة من الأحاديث الدالة على أن الله -تعالى- مستو على عرشه فوق سبع سماوات، ثم قال: لقد اتفقت الكلمة بين المسلمين والكافرين أن الله في السماء، وحدوده بذلك، إلا المريسي الضال وأصحابه(١).

وقال أبو يعقوب ابن العباس: كنا عند أبي عبد الله، قال: فسألناه عن قول ابن المبارك؛ قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه بحد. فقال أحمد: هكذا على العرش استوى بحد. فقلنا له: ما معنى قول ابن المبارك بحد؟ قال: لا أعرفه، ولكن لهذا شواهد من القرآن في خمسة مواضع... وذكر الآيات المذكورة آنفًا...(٢).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/ ٤٢٨، ٤٢٩).

وقال الخلال رَحِمَهُ اللَّهُ: أخبرنا حرب بن إسماعيل قال: قلت لإسحاق -يعني ابن راهويه-: الله على العرش بحدٍّ؟ قال: نعم بحد. وذكر عن ابن المبارك؛ قال: هو على عرشه بائن من خلقه بحد.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد ذكر أيضًا حرب بن إسماعيل في آخر كتابه في المسائل كلها: هذا مذهب أئمة العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، وأدركت من علماء العراق والشام والحجاز وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها، فهو مبتدع خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة، وسبيل الحق، وهو مذهب: أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم[(١)].

قال حنبل بن إسحاق: قال عمي[(٢)]: نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء، بلا حد، ولا صفة يبلغها واصف، أو يحده أحد، فصفات الله له ومنه، وهو كما وصف نفسه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ بِحَدٍّ ولا غَايَةٍ ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] [(٣)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعقيبًا على قول أحمد بن حنبل المتقدم: قوله: «بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد» نفى به إحاطة علم الخلق به، وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه، إلا بما أخبر عن نفسه؛ ليبين أن

(١) تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٨، ٤٢٩).
(٢) أي: الإمام أحمد بن حنبل.
(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٣٠).

عقول الخلق لا تحيط بصفاته... ولهذا قال أحمد: «لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية» فنفى أن يُدرك له حد أو غاية، وهذا أصح القولين في تفسير الإدراك...

وما في هذا الكلام من نفي تحديد الخلق وتقديرهم لربهم وبلوغهم صفته، لا ينافي ما نص عليه أحمد وغيره من الأئمة، كما ذكره الخلال أيضًا.

قال: حدثنا أبو بكر المروزي، قال: سمعت أبا عبد الله لما قيل له: روى علي بن الحسن بن شقيق، عن ابن المبارك أنه قيل له: كيف نعرف الله عز وجل؟ قال: على العرش بحد. قال: قد بلغني ذلك عنه. وأعجبه، ثم قال أبو عبد الله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ثم قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

قال الخلال: وأنبأنا محمد بن علي الوراق، حدثنا أبو بكر الأثرم، حدثني محمد بن إبراهيم القيسي، قال: قلت لأحمد بن حنبل: يُحكى عن ابن المبارك أنه قيل له: كيف تعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه بحد. فقال أحمد: هكذا هو عندنا[1].

---

(١) المصدر السابق، وانظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٩)، وما بعدها، والرد على الجهمية للدارمي (١٦٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (٩٠٢)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ١٨٧، ١٨٨).

يقول الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٥ - فَـلَا يُحِـيطُ عِلْمُنَـا بِذَاتِـهِ   كَـذَاكَ لَا يَنْفَـكُّ عَـنْ صِفَاتِهِ

٤٦ - فَكُلُّ مَا قَدْ جَاءَ فِي الدَّلِيلِ   فَثَابِـتٌ مِـنْ غَيْـرِ مَـا تَمْثِيـلِ

٤٧ - مِـنْ رَحْمَةٍ وَنَحْوِها كَوَجْهِهِ   وَيَـدِهِ وَكُـلِّ مَـا مِـنْ نَهْجِـهِ

الشرح

قوله: «فلا يحيط علمنا بذاته   كذاك لا ينفك عن صفاته»:

أي: أن الخلق جميعًا بكُلّ ما أوتوا من علم وقُدرة وفَهْم، لا يستطيعون معرفة كيفية الذات، وكذلك الصفات. وقد تقرّر أنّ الذاتَ لا تنفك عنها الصفات- الصفات الذاتية والصفات الفعلية- إلا أنّ آحاد الأفعال مُتجددة، وقد سبق تفصيل المسألة(١).

قال تعالى ذِكْره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول جل ذكره: ولا يحيط خلقه به علمًا. ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده علمًا، ولا يحيط عباده به علمًا. وقد زعم بعضهم أن معنى ذلك: أن الله يعلم ما بين أيدي ملائكته وما خلفهم، وأن ملائكته لا يحيطون علمًا بما بين أيدي أنفسهم وما خلفهم(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد اختلف في تفسير الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ فقيل هو

---

(١) راجع شرح البيت الرابع والثلاثين.
(٢) جامع البيان (١٨/ ٣٧٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣١٨).

الله سبحانه، أي: ولا يحيطون بالله علمًا.

وقيل: هو ما بين أيديهم وما خلفهم، فعلى الأول يرجع إلى العالم، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم.

وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس؛ لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فأن لا يحيطوا علمًا به سبحانه أولى»[(١)].

وقد تكرر مرارًا أننا نثبت الصفات لله تعالى التي أثبتها لنفسه، ونثبت معناها، وأما كيفية الصفة فلا نعلمها.

وقوله: «فَكُلُّ مَا قَدْ جَاءَ فِي الدَّلِيلِ فَثَابِتٌ مِنْ غَيْرِ مَا تَمْثِيلِ»:

وهذا اعتقادُ أهل السنة والجماعة قاطبة، إثباتُ ما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ، من غير تمثيل ولا تأويل ولا تحريف، ومن غير تكييف ولا تعطيل.

والوصولُ إلى ذلك بأدلة الكتاب والسنة، وفَهم سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم ومَن تبعهم من الأئمة، وقد تقرّر هذا الأصلُ في غير موضع من الكتاب.

وقوله: «من رحمة»:

الرحمةُ صفة من صفات الله تعالى، وهذا اعتقاد أهل السنة؛ لأنه وصف نفسه بها، ووصفه نبيه ﷺ، وأنكرها الأشاعرة والجهمية والمعتزلة، كغيرها من الصفات؛ لأنهم لا يثبوت إلا الصفات التي تُوافق عقولهم، وغفلوا عن

(١) بدائع التفسير (٣/ ١٦٩)، وانظر: فتح البيان لصديق خان (٨/ ٢٨٠).

وظيفة العقل، وهي فهم الشرع، لا الحكم عليه.

إثبات صفة الرحمة لله - جلّ في علاه - من الكتاب والسنة:

قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [القصص].

وقال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف]، وغيرها من الآيات.

وأما السنة:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**»[(١)].

وقوله ﷺ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[(٢)].

إلى غير ذلك من الأدلة، وهي كثيرة.

وقوله: «ونحوها»:

أي نحو الرحمة، يعني من الصفات الثابتة لله تعالى بنص الكتاب والسنة، كالعزة، والقوة، والحكمة، والغضب، والرضا، واليد، والوجه،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٥٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

وغيرها.

وقوله: «كـ وجهه...»:

بعد أنْ قال إنَّ الرحمة صفةٌ من صفات الله كسائر صفاته، لم يزل ولا يزال مُتصفًا بها، وهي من الصفات الخبرية، وليس وجهُ الله هو ثوابُ الله، كما ادّعى أهلُ التعطيل.

فاعتقادُ أهل السنة والجماعة أنّ لله -جل وعلا- وجهًا يليقُ بجلاله وعظمته، فليس كمثله شيء.

ذكرُ الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفة الوجه لله تعالى:

قال جلّ ذكره: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال جل ثناؤه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل].

وغير ذلك من الآيات.

وأما السنة:

لما زار النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في مرضه، قال له: «**إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي فَتَعْمَلَ عَمَلًا تُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ، إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ رِفْعَةً وَدَرَجَةً**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٣) ومسلم (١٦٢٨).

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فحبستهم في الغار، قال كُلُّ واحد منهم: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ»(١).

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ -»(٢).

وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ(٣) وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(٤).

قال الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: قال محمد بن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن] دلالة أنّ وجه الله صفة من صفات

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢) ومسلم (٢٧٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٨، ٧٤٠٦، ٧٣١٣).
(٣) سبحات وجهه: بضم السين والباء: أنواره وجلاله وعظمته- اللسان (٤/ ٤٦٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٩).

الذات، لا أن وجه الله هو الله، ولا أن وجهه غيره؛ لأنّ وجه الله لو كان الله لقُرئ: ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام[١][٢].

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفقه الأكبر»: له يد، ووجه، ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن، من ذكر اليد، والوجه، والنفس، فهو له صفة بلا كيف؛ لا يقال: إن يده قدرته ونعمته؛ لأن فيه إبطالًا للصفة[٣].

قال قوّام السنة رَحِمَهُ اللَّهُ: ونحن نقول وعلماؤنا جميعًا: أن لمعبودنا عزّ وجل وجهًا، كما أعلمنا الله في محكَم تنزيله، ووصفه بالجلال والإكرام، وحَكم له بالبقاء، وهو مَحْجوب عن أبصار أهل الدنيا، لا يراه بشر ما دام في الدنيا، ووجهُ ربنا قديم، لم يزل باقيًا ولا يزال، فنفى عنه الفناء، ووجُوه بني آدم محدثة مخلوقة، لم تكن فكوَّنها الله، فانية غير باقية، فهل في هذا تشبيه وجه ربنا عز وجل بوجوه بني آدم غير اتفاق اسم الوجه، وإيقاع اسم الوجه على بني آدم، كما سمى الله تعالى وجهه وجهًا[٤]؟

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: والوجهُ صفة من صفات الله تعالى، وصَف بها نفسه، فعلينا أن نُصدق ربنا، ونؤمن بما وصف به نفسه، مع التنزيه التام عن

---

(١) كقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن: ٧٨]، فذي في هذه الآية صفة لله تعالى، أي أنه موصوف بالجلال والإكرام.

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة (ص:٨٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص:١٨٨).

(٤) الحجة في بيان المحجة (ص: ٨٥).

مشابهة صفات الخلق(١).

وقوله: «ويده»:

كذلك اليد صفة من صفات الله الخبرية، ثابتة بالنص، وبإجماع أهل السنة. وأما أهلُ التعطيل فقالوا: اليدان هما: النعمة أو القوة أو القُدرة، وهذا بلا شك من التأويل الفاسد المخالف للكتاب والسنة.

ذكر الأدلة من القرآن على أن الله تعالى له يدان:

قال الله عز وجل لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، فقال تكذيبًا لهم: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]. وغير ذلك من الآيات.

ذكر الأدلة من السنة:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ**»(٢).

وعَنْ طَاوُسٍ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ**

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٥٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٢) ومسلم (٢٧٨٨) واللفظ للبخاري.

آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟! فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، ثَلَاثًا»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»(٢).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ - أَوِ القَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»(٣).

وفي حديث الشفاعة الطويل: «...فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»(٤).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَدَيْكَ»[١].

وحديث الْمُغِيرَة بْنَ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟... وفيه: قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[٢].

قال أبو الحسَن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ: وأجمعوا على أنه عزّ وجَلّ يسمع ويرى، وأنّ له تعالى يدين مبسوطتين[٣].

قال الآجري رَحِمَهُ اللهُ: يُقال للجهميِّ - الذي يُنكر أنَّ الله عز وجل خلق آدم بيده - كفرتَ بالقرآن، ورددت السنة، وخالفت الأمة... وساق الأدلة التي تدلّ على إثبات صفة اليد لله تعالى من الكتاب والسنة، كما تقدم[٤].

قال الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ: فصلٌ في إثبات اليد لله تعالى صفة له... وذكر الآيات، ثم قال: ذكر البيان من سُنة النبي ﷺ على إثبات اليد مُوافقًا للتنزيل... وساق حديث موسى مع آدم عليهما السلام[٥].

مسألة: الردُّ على مَن تأول اليد على أنها القوة أو النعمة:

قال ابنُ خزيمة رَحِمَهُ اللهُ: فزعموا أنّ اليد هي القوة، وهذا من التبديل أيضًا،

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٩).
(٣) رسالة لأهل الثغر (٢٢٥).
(٤) الشريعة (ص: ٢٦٢).
(٥) الحجة في بيان المحجة (ص: ٧٦، ٧٧).

وهو جهلٌ بلغة العرب، والقوة إنما تُسمّى الأيد في لغة العرب لا اليد، فمن لا يُفرّق بين اليد والأيد فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوَج منه إلى الترؤس والمناظرة(١).

وأما كلمة ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

فهي مصدر «فِعْلَهُ» آد- يئد- أيدًا، ومعناه: القُوة(٢).

ويُضاف، فيُقال: أيده تأييدًا، ومعناه: قوّاه، وليس جمعًا ليد(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. قالت الجهمية: مجازًا في النعمة أو القدرة، وهذا باطلٌ من وجوه:-

أحدها: أنَّ الأصلَ الحقيقة، فدعوى المجاز مخالفة للأصل.

الثاني: أن ذلك خلاف الظاهر، فقد اتفق الأصل والظاهر على بُطلان هذه الدعوى.

الثالث: أن مُدعي المجاز المعين يلزمه أمور: أحدها: إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة.

الوجه الرابع: أنّ اطّراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوّع ذلك، وتصريف

---

(١) التوحيد (٧٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١) وتفسير القرطبي (١٧/ ٥٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٤) وتفسير البغوي (٧/ ٣٧٩) وتفسير السعدي (٨١١).

(٣) فتاوى اللجنة الدائمة في الأسماء الحسنى – فتوى رقم (١١٨٦٥).

استعماله يمنع المجاز، ألا ترى قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]؟ فلو كان مجازًا في القدْرة لم تُستعمَل منه لفظ يمين، وقوله في الحديث الصحيح: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ...» وساق الحديث كما تقدم أول المسألة، وأطال النفَس في الردِّ عليهم من عشرين وجهًا... إلى أنْ قال: ورَدَ لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوعًا مُتصرفًا فيه، مقرونًا بما يدل على أنها حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط[(١)].

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: فقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لا يجوز أن يُراد به القدرة؛ لأنّ القدْرة صفة واحدة، ولا يجوز أنْ يُعبر بالاثنين عن الواحد.

ولا يجوز أنْ يُراد به النعمة، لأنّ نِعَم الله لا تحصى؛ فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية[(٢)].

وقوله: «وكُلّ ما من نَهْجِهِ»:

النهج لغة: نَهجَ الطريق، أبانَهُ وأوضحه، ونَهجَهُ: أيضًا سَلكَهُ[(٣)].

أي: أنّ كُلّ شيء ورَدَ في صفات الله عز وجل، فالطريق الواضح الإقرار بما جاء في القرآن، وبما صح عن رسول الله ﷺ، من غير تمثيل ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تحريف.

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٦٦-٣٨١) باختصار.
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦٥، ٣٦٦).
(٣) مختار الصحاح (ص: ٢٨٤).

ويتابع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلًا:

٤٨ - وَعَيْنِـهِ وَصِـفَةِ النُّـزُولِ   وَخَلْقِـهِ فَاحْـذَرْ مِـنَ النُّـزُولِ

الشرح

قوله: «وعينه»: أي: نُؤمن بالأدلة الصحيحة التي جاء فيها إثبات صفة العين لله تعالى، مع اليقين الجازم أنها عين ليست كعين المخلوقين، فأهلُ السنة يُثبتون العينَ لله تعالى، بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تحريف، كمَن نفى هذه الصفة الثابتة لله عز وجل.

ذكر الأدلة من الكتاب والسنة على أنّ العين من صفات الله التي وصف بها نفسه:

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

وقال جل ثناؤه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وأما السنة:

فعن عبد الله بن عُمر أنه قال: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**»(١).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ - وَإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى،**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٩) ومسلم (١٦٩).

كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[(١)].

بعضُ السلف حمل «العين» في الآيات على الرؤية، أي بمرأى مني، ومنهم من حملها على الحفظ والكلاءة، وليس معنى هذا نفي العين، فإن الله سبحانه وتعالى إذا كان يكلؤه بعينه لزم من ذلك أن يراه؛ فنُثبت العين لله تعالى بدلالة اللزوم وبدلالة النص، وبمقتضى لغة العرب التي نزل بها القرآن.

قال اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سياقُ ما دل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ على أنّ من صفات الله عز وجل الوجه والعينين واليدين...

ثم استدل بقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. قال: روي عن ابن عباس في تفسير «أعيننا» أنه أشار إلى عينيه. واستدل أيضًا بحديث الدجال على إثبات صفة العين لله تعالى[(٢)].

قال عبد الله بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب الصفات: إثباتُ العينين لله عز وجل... واستدل بحديث الدجال المتقدِّم[(٣)].

قال ابنُ خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثباتُ العين لله – جلا وعلا- على ما أثبته الخالق البارئ لنفسه في مُحكم تنزيله، وعلى لسان نبيه ﷺ... – وذكرَ الآيات كما تقدّم-، ثم قال: فواجبٌ على كُلّ مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه من العين، وغير مؤمن مَن ينفي عن الله تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٧).

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٦٥-٧٧) باختصار.

(٣) السنة (٤٠٦).

ما قد أثبته الله في محكم تنزيله، ببيان النبي ﷺ، الذي جعله الله مبينًا عنه عز وجل، في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيَّن النبي ﷺ أنّ لله عينين، فكان بيانه مُوافقًا لبيان محكم التنزيل، الذي هو مسطور بين الدفتين، مقروء في المحاريب والكتاتيب...(١).

فائدة:

أهلُ السنة والجماعة يثبتون لله عينين بنص حديث الدجال المتقدم، وفيه: «**إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ - وَإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**»(٢).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقولُ النبي ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(٣) صريحٌ بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة، فإن ذلك عَوَر ظاهر- تعالى الله عنه- وهل يُفهم من قول الداعي: «**اللهُمَّ احْرُسْنَا بِعَيْنِكَ الَّتِي لا تَنَامُ**» أنها عين واحدة ليس إلا- إلا ذهن أقلف وقلب أغلف؟... إلى أن قال:

لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجَمعه، بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحدَ المتصل إلى مُفرد أفردوه وإن أضافوا إلى اسم جمع ظاهرًا أو مضمرًا جمعوه، وإن أضافوا إلى اسم مُثنى فالأصح في لغتهم جمعه، كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، وإنما هما قلبان، وكقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وهذا

(١) كتاب التوحيد (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) البخاري (٤٤٠٢) ومسلم (١٠١/ ٢٩٣٣).

أفصح استعمالهم، وتارة يُفردون المضاف، فيقولون: لسانهما وقلبهما... القرآنُ إنما نزل بلغة العرب لا بلغة العجم والطِّماطم(١) والأنباط(٢) الذين أفسدوا الدين وتلاعبوا بالنصوص؛ فجعلوها عرضة لتأويل الجاهلين.

وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية؛ لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين تثنيتين، فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه تثنية أولى بالجواز، يدل على ذلك أنك لا تكاد تجد في كلامهم عينان ويدان ونحو ذلك، ولا يَلتبس على السامع قول المتكلّم: نراك بأعيننا، ونأخذك بأيدينا، ولا يَفهم منه بشرٌ على وجه الأرض عيونًا كثيرة على وجه واحد(٣).

وقوله: «وصفة النزول»:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(٤).

صفةُ النزول ثابتة لله تعالى بنص السنة، وذلك في الأحاديث التي رُويت بأسانيد صحيحة عن رسول الله ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهوَى، والنزولُ

---

(١) رجلٌ طِمْطِمٌ بالكسر، أي في لسانه عُجمة لا يُفصح – الصحاح (ص: ٦٤٨).

(٢) يُقال رجُلٌ نَبَطِيٌّ ونباطِيٌّ ونباط: مثل يمني ويماني ويمان. وفي كلام أيوب ابن القِرِّيَّة: أهلُ عُمان عَربٌ استنبطوا، وأهل البحرين نبيطٌ استعربوا- الصحاح (ص: ١٠١٦).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٣٧، ٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٢١) ومسلم (٧٥٨) وغيرهما.

صفةٌ من صفات الأفعال يجب الإيمان بها بلا كيف، نُؤمن بأنّ الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كُلّ ليلة نُزولًا يليق بجَلاله وكَماله، وهذا مذهبُ الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة السلف الصالح، ويَسعنا ما وسع الصحابة رضوان الله عليهم، فقد سمعوا من رسول الله ﷺ أنَّ ربنا ينزل إلى السماء الدنيا، ولم يسأل أحدٌ منهم كيف؟ فاحذر كلام أهل التأويل والتعطيل الذين يقولون: تنزل الملائكة، فهذا مخالفٌ لمنطوق الحديث ومفهومه، فانتبه.

قال أبو سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذه الأحاديث قد جاءت كُلّها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها، حتى ظهرت هذه العصابة، فعارضت آثار رسول الله ﷺ بردٍّ، وتشمروا لدفعها بجد، فقالوا: كيف نزوله هذا؟ قلنا: لم نُكلَّف معرفة كيفية نزوله في ديننا، ولا تعقله قُلوبنا، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلًا أو صفة بفعالهم وصفتهم، ولكن ينزل بقُدْرته ولطف ربوبيته كيف يشاء، فالكيفُ منه غير معقول، والإيمانُ بقول رسول الله ﷺ في نزوله واجبٌ، ولا يُسأل الرب عما يفعله كيف يفعل؟ وهم يُسألون؛ لأنه القادر على ما يشاء أن يفعله كيف يشاء، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف الذي لا قدرة له إلا ما أقدره الله تعالى عليه: كيف يضع؟ وكيف يقدر؟[١].

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها

(١) الرد على الجهمية (ص: ٩٠).

علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب- جل وعلا- إلى السماء الدنيا كل ليلة.

نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل.

والله- جل وعلا- لم يترك ولا نبيه- عليه السلام- بيانًا ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم[(١)].

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب- سبحانه وتعالى- كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل، ولا تكييف، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله[(٢)].

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الفُضيلُ بن عياض: إذا قال لك الجهْمي: أنا أكفُر برب يزولُ عن مكانه، فقل أنت: أؤمن برب يفعلُ ما يشاء[(٣)].

قال الخلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبرني علي بن عيسى، أن حنبلًا حدّثهم قال: سألتُ أبا عبد الله عن الأحاديث التي تُروى: أنَّ الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا، وأنّ الله يرى، وأنَّ الله يضع قدمه، وما أشبه ذلك.

---

(١) التوحيد (ص: ١٠٦).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ١٩١).

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٦١).

فقال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: نُؤمن بها، ونُصدِّق بها، لا كيف ولا معنى[(١)]، ولا نَرُد منها شيئًا، ونعلم أنّ ما جاء به الرسولُ حَق إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا نرُد على الله قوله، ولا نصفه بأكثر مما وصَف به نفسه، بلا حَد ولا غاية، ليس كمثله شيء.

وهذا الكلامُ وكلام الشافعي من مشكاة واحدة[(٢)].

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر قول مالك المشهور عندما سُئل عن كيفية الاستواء؟:

وهكذا سائر الأئمة، قولهم يوافق قول مالك؛ في أنّا لا نعلم كيفية استوائه، كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم معنى النزول، ولا نعلم كيفيته، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدْرة، ولا نعلم كيفية ذلك[(٣)].

قال الآجُري رَحِمَهُ اللَّهُ: بابٌ: الإيمانُ والتصديق بأنّ الله عزّ وجلّ ينزل إلى السماء الدنيا كُلّ ليلة: الإيمانُ بهذا واجبٌ، ولا يسع المسلم العاقل أن يقول: كيف ينزل؟ ولا يردُّ هذا إلا المعتزلة.

وأما أهلُ الحق فيقولون: الإيمان به واجب، بلا كيف؛ لأن الأخبار

---

(١) يعني أن لا نسأل عن المعنى الذي يفضي إلى التكييف وإلا فالمفوضة هم الذين يقولون: نثبت الصفة ولا نعلم المعنى، والإمام مالك لما سُئل عن الاستواء، قال: الاستواء معلوم. فأثبت المعنى ثم قال: والكيف مجهول. فانتبه لكلام الأئمة فهذا هو الذي يفهم من كلام الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة، وسأذكر كلام شيخ الإسلام قريبًا.

(٢) انظر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٤٢-٤٤٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥).

صحت عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ الله عَزّ وجَلّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ»(١).

والذين نقلوا إلينا هذه الأخبار هم الذين نقلوا إلينا الأحكامَ، من الحلال والحرام وعلم الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد؛ فكما قبل العُلماء عنهم ذلك، كذلك قبلوا منهم هذه السُّنة، وقالوا: مَن ردها فهو ضالٌّ خبيث، يحذرونه ويحذرون منه (٢).

قال ابن منده رَحِمَهُ اللهُ: إياك أن تكون فيمَن يقول: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء، ثم تنفي ما في الكتاب والسنة مما شاء الله وأوجَب على خلقه الإيمانَ به(٣).

وقوله: «وخلقه..»: أي: ومما يجب إثباته لله- جل جلاله- الخلق، وهي من صفات الله تعالى الفعلية، من حيث آحادها، وأنواعها، أما من حيث الأصل فهي صفة ذاتية؛ فالله- سبحانه وتعالى- لم يزل ولا يزال خالقًا؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) الشريعة (٢٤٧).

(٣) نقله ابن تيمية في الفتاوى (٥/ ٣٩٤) وذكر ابن منده في كتابه «التوحيد» (٥١٢-٥٢٠) ستة عشر حديثًا في إثبات صفة النزول.

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا، وأما الأحاديث فهي أيضًا كثيرة، منها حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً**»(١). وقال ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ**»(٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: مذهب أهل السنة والمعرفة- وهو المشهور عن أصحاب الإمام أحمد وأبي حنيفة وغيرهم من المالكية والشافعية والصوفية وأهل الحديث وطوائف من أهل الكلام من الكرامية وغيرهم- أن كون الله- سبحانه وتعالى- خالقًا ورازقًا ومحييًا ومميتًا وباعثًا ووارثًا... وغير ذلك من صفات فعله، وهو من صفات ذاته، ليس من يخلق كمن لا يخلق، ومذهب الجمهور أن الخلق غير المخلوق؛ فالخلق فعل الله القائم به، والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه(٣).

وقال في موضع آخر رَحِمَهُ اللهُ: معلوم بالسمع اتصاف الله تعالى بالأفعال الاختيارية القائمة به، كالاستواء إلى السماء، والاستواء على العرش، والقبض، والطي، والإتيان، والمجيء، والنزول، ونحو ذلك، بل والخلق والإحياء والإماتة؛ فإن الله تعالى وصف نفسه بالأفعال اللازمة؛ كالاستواء، وبالأفعال المتعدية؛ كالخلق.

والفعل المتعدي مستلزم للفعل اللازم؛ فإن الفعل لا بد له من فاعل؛ سواء كان متعديًا إلى مفعول، أو لم يكن، والفاعل لا بد له من فعل، سواء

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٩٢- ٢١٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٣٥، ٤٣٦).

كان فعله مقتصرًا عليه، أو متعديًا إلى غيره، والفعل المتعدي إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله؛ إذ كان لا بد له من الفاعل. وهذا معلوم سمعًا وعقلًا [(١)].

قوله: «فاحذَر من النزول»:

النزول لغة: النُّزُول، في الأصل، هو انحطاط من علو، يُقال: نَزَلَ عن دابته، ونزل في مكان كذا: حَطَّ رَحْله فيه، وأنزَلَه غيرُه. قال: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون]. ونَزَلَ بكذا وأنزله بمعنى [(٢)].

والمؤلف هاهنا كأنه أراد أن يقول: احذر من الانحطاط من علو الإيمان والاتباع للنبي ﷺ والفهم الصحيح عن أئمة السلف من الصحابة ومَن تبعهم بإحسان إلى حضيض الابتداع في دين الله؛ بالتحريف والتأويل، أو بالتمثيل والتشبيه، وغير ذلك، مما نهجه أهل البدع والأهواء، فاحذر من هذا النزول.

مبحث: هل في اللغة العربية مجاز؟ وهل يصح أن يُقال: إن في القرآن مجازًا؟

اعلم أنّ وقوعَ المجاز في اللغة العربية مختلفٌ فيه، أما القرآنُ فليس فيه مجاز؛ لأنَّ المجاز عند مَن قال به: هو كُلّ ما يجوز نفيه، ولا ريب أن القرآنَ كلامُ الله، فلا يجوز نفي شيء منه، والذين قالوا بجواز المجاز في القرآن اتخذوا ذلك ذريعة لتعطيل ونفي صفات الله عز وجل، وإنكار ما دلّت عليه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢١٩، ٢٢٠).
(٢) المفردات (٥٤١) مادة (نزل).

نصوصُ الكتاب والسنة، وما أجمع عليه السلف الصالح من الصحابة ومَن تبعهم من أئمة أهل السنة والجماعة.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن حَق الكلام أن يُحمَل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أُنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يُوجَّه كلامُ الله عز وجل إلى الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يَمنع ذلك مما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكُلّ مُدَّعٍ ما ثبت شيء من العبارات، وجلَّ الله عز وجل عن أن يُخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهودِ مخاطباتها، مما يصح معناه عند السامعين(١).

قال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أهلُ السُّنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كُلّها في القرآن والسُّنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة، لا على المجاز(٢).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أولًا: أن المجازَ اختلِف في أصل وقوعه. قال أبو إسحاق الإسفراييني، وأبو عليٍّ الفارسي: إنه لا مجاز في اللغة أصلًا، كما عزاه لهما ابن السُّبكي في جمع الجوامع.

وإن نَقل عن الفارسي تلميذه أبو الفتح: أنّ المجازَ غالب على اللغات، كما ذكره عنه صاحب الضياء اللامع، وكُلّ ما يُسميه القائلون بالمجاز مجازًا فهو- عند مَن يقول بنفي المجاز- أسلوبٌ من أساليب اللغة العربية.

فمن أساليبها: إطلاق الأسَد مثلًا على الحيوان المفترس المعروف،

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣١).

(٢) المصدر السابق.

وأنه ينصرف إليه عند الإطلاق وعدم التقييد بما يدل على أنَّ المرادَ غيره.

ومن أساليبها: إطلاقه على الرجل الشجاع، إذا اقترن بما يدل على ذلك.

ولا مانع من كون أحد الإطلاقين لا يحتاج إلى قيد، والثاني يحتاج إليه؛ لأنّ بعضَ الأساليب يتضح فيها المقصود فلا يحتاج إلى قيد، وبعضها لا يتعين المراد فيه إلا بقيد يدل عليه، وكُلّ منهما حقيقة في محله، وقس هذا على جميع أنواع المجازات.

وعلى هذا، فلا يمكنُ إثبات مجاز في اللغة العربية أصلًا، كما حَقّق العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصواعق...

والذي ندين الله به ويلزم قبُوله كُلّ مُنصف محقق: أنه لا يجوز إطلاق المجاز في القرآن مُطلقًا على كلا القولين...

وأوضح دليل على منعه في القرآن: إجماعُ القائلين بالمجاز على أنّ كُلّ مجاز يجوز نفيه، ويكون نافيه صادقًا في نفس الأمر، فتقول لمن قال: رأيتُ أسدًا يرمي، ليس هو بأسد، وإنما هو رجل شجاع، فيلزم على القول بأنّ في القرآن مجازًا أنَّ في القرآن ما يجوز نفيه.

ولا شك أنه لا يجوز نفي شيء من القرآن، وهذا اللزوم اليقيني الواقع بين القول بالمجاز في القرآن وبين جواز نفي بعض القرآن قد شوهدت في الخارج صحته، وأنه كان ذريعة إلى نفي كثير من صفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن العظيم.

وعن طريق القول بالمجاز توصل المعطلون لنفي ذلك، فقالوا: لا يد،

ولا استواء، ولا نزول، ونحو ذلك في كثير من آيات الصفات [١].

وقد أطال النفَس في المسألة، فأفاد وأجاد، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمعلومٌ أنّ أول مَن عُرف أنه جرّد الكلامَ في أصول الفقه هو الشافعي، وهو لم يُقسم الكلام إلى حقيقة ومجاز، بل لا يُعرَف في كلامه مع كثرة استدلاله وتوسعه ومعرفته الأدلة الشرعية أنه سمى شيئًا منه مجازًا، ولا ذكر في شيء من كتبه ذلك، لا في «الرسالة» ولا في غيرها.

وحينئذ فمَن اعتقد أنَّ المجتهدين المشهورين وغيرهم من أئمة الإسلام وعلماء السلف قسَّموا الكلامَ إلى حقيقة ومجاز -كما فعله طائفة من المتأخرين- كان ذلك من جهله وقلة معرفته بكلام أئمة الدين وسلف المسلمين، كما يظن طائفة أخرى أن هذا مما أخذ من الكلام العربي توقيفًا، وأنهم قالوا: هذا حقيقة، وهذا مجاز، كما ظن طائفة من المتكلمين في أصول الفقه، وكان هذا من جهلهم بكلام العرب... وكما يظن بعضهم أن ما يوجد في كلام بعض المتأخرين؛ كالرازي، والآمدي وابن الحاجب هو مذهب الأئمة المشهورين وأتباعهم، ولا يعرف ما ذكره أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من أصول الفقه الموافق لطريق أئمتهم، فهذا - أيضًا- من جهله وقلة علمه.

وإن قال الناقلُ عن كثير من الأصوليين: مرادي بذلك أكثر المصنفين في أصول الفقه من أهل الكلام والرأي؛ كالمعتزلة، والأشعرية، وأصحاب

---

(١) منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز (٣٤-٣٧) باختصار.

الأئمة الأربعة، فإنّ أكثر هؤلاء قسّموا الكلامَ إلى حقيقة ومجاز.

قيل له: لا ريب أنّ هذا التقسيمَ موجودٌ في كتب المعتزلة ومَن أخذ عنهم وشابههم، وأكثر هؤلاء ذكروا هذا التقسيم، وأما مَن لم يكن كذلك فليس الأمر في حقه كذلك.

ثم يُقال: ليس في هؤلاء إمام من أئمة المسلمين الذين اشتغلوا بتلقي الأحكام من أدلة الشرع، ولهذا لا يَذكُرُ أحدٌ من هؤلاء في الكتب التي يَحكي فيها أقوال المجتهدين ممن صنف كتابًا وذكر فيه اختلاف المجتهدين المشتغلين بتلقي الأحكام عن الأدلة الشرعية، وهم أكملُ الناس معرفة بأصول الفقه، وأحق الناس بالمعنى الممدوح من اسم الأصولي، فليس من هؤلاء من قسَّم الكلامَ إلى الحقيقة والمجاز.

وإن أراد مَن عُرف بهذا التقسيم من المتأخرين المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام ومَن سلك طريقتهم من ذلك من الفقهاء.

قيل له: لا ريب أن أكثر هؤلاء قسموا هذا التقسيم، لكن ليس فيهم إمام في فن من فنون الإسلام، لا التفسير، ولا الحديث، ولا الفقه، ولا اللغة، ولا النحو، بل أئمة النحاة أهلُ اللغة - كالخليل، وسيبويه، والكسائي، والفرّاء، وأمثالهم، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وأبي عمرو الشيباني، وغيرهم - لم يقسموا تقسيم هؤلاء[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: وبكُلّ حال، فهذا التقسيم هو اصطلاحٌ حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٠٣- ٤٠٥) باختصار وتصرف يسير.

التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم؛ كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو، كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم...

كذلك سائر الأئمة لم يُوجَد لفظ المجاز في كلام أحد منهم، إلا في كلام أحمد بن حنبل، فإنه قال في كتاب «الرد على الجهمية»[1] في قوله: (إنا ونحن) ونحو ذلك في القرآن: هذا من مَجاز اللغة، يقول الرجل: إنا سنعطيك، إنا سنفعل، فذكر أنّ هذا مَجاز اللغة.

وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه مَن قال: إنَّ في القرآن مجازًا، كالقاضي أبي يعلي، وابن عقيل، وأبي الخطاب، وغيرهم.

وآخرون من أصحابه منعوا أن يكون في القرآن مجازٌ؛ كأبي الحسن الخرزي، وأبي عبد الله بن حامد، وأبي الفضل التميمي بن أبي الحسن التميمي... وذكر آخرين، ثم قال:

وحكى بعض الناس عن أحمد في ذلك روايتين. وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم، ولا من قدماء أصحاب أحمد: إنّ في القرآن مجازًا، إنما اشتهر في المائة الرابعة...

والذين أنكروا أن يكون أحمد وغيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا: إنَّ معنى قول أحمد: من مجاز اللغة، أي: مما يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم

---

(١) حكم شيخ الإسلام الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ على هذا الكتاب بالوضع وشكك في نسبته للإمام أحمد – راجع سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٨٦، ٢٨٧) وتعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط على ذلك.

الذي له أعوان: نحن فعلنا كذا، ونفعل كذا، ونحو ذلك، قالوا: ولم يُرد أحمد بذلك أنَّ اللفظ استعمل في غير ما وضع له...»[١].

معنى المجاز عند مَن قال: إنّ في اللغة مَجازًا:

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الذين قسّموا اللفظ حقيقة ومجازًا، قالوا: الحقيقة: هو اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له؛ كلفظ الأسد والحمار إذا أريد بهما البهيمة، أو أريد بهما الشجاع والبليد، وهذا التقسيم والتحديد يستلزم أن يكون اللفظ قد وضع أولًا لمعنى، ثم بعد ذلك قد يُستعمل في موضوعه، وقد يُستعمل من غير موضوعه...

وهذا كُلّه إنما يصح لو عُلم أنَّ الألفاظ العربية وضعت أولًا لمعان، ثم بعد ذلك استعملت فيها، فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال، وهذا إنما يصح على قول مَن يجعل اللغات اصطلاحية، فيدعي أنَّ قومًا من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يُسموا هذا بكذا، وهذا بكذا، ويجعل هذا عامًّا في جميع اللغات، وهذا القول لا نعرف أحدًا من المسلمين قاله قبل أبي هاشم بن الجُبَّائي... والمقصودُ هنا أنه لا يمكّن أحدًا أن ينقل عن العرب، بل ولا عن أمة من الأمم، أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة، ثم استعملوها بعد الوضع، وإنما المعروفُ المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني، فإن ادَّعى مُدع أنه يعلم وضعًا يتقدم ذلك فهو مُبطلٌ، فإنَّ هذا لم ينقله أحد من

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٧، ٨٨) وانظر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٢٦٨).

الناس[١].

حُجة مَن قال: إنّ في القرآن مجازًا، والردُّ عليهم:

من أشهر ما استدل به القائلون بأنّ في القرآن مجازًا، هو قول الله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧].

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: لما ادّعى كثير من المتأخرين أنّ في القرآن مجازًا، وذكروا ما يشهد لهم، رد عليهم المنازعون جميع ما ذكروه، فمن أشهر ما ذكروه قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، قالوا: والجدارُ ليس بحيوان، والإرادة إنما تكون للحيوان، فاستعمالها في ميل الجدار مجاز.

فقيل لهم: لفظ الإرادة قد استعمل في الميل الذي يكون معه شعور، وهو ميل الحي، وفي الميل الذي لا شعور فيه، وهو ميل الجماد، وهو مشهور في اللغة.

يُقال: هذا السقف يُريد أن يقع، وهذه الأرض تريد أن تُحرَث، وهذا الزرع يُريد أن يُسقى، وهذا الثمر يُريد أن يُقطف، وهذا الثوب يُريد أن يُغسَل، وأمثال ذلك[٢].

ومن حُجَجهم أيضًا:

قول الله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]، فإنَّ من الناس من يقول: الذوق حقيقة في الذوق بالفم، واللباس بما يلبس على البدن، وإنما استعير هذا وهذا، وليس كذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٨٩-٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٠٧) بتصرف يسير.

قال الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الذوقُ في لغة العرب هو: وجودُ طعم الشيء[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والاستعمالُ يدل على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان]، وقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩]، وقال: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال].

فلفظ «الذوق» يُستعمل في كُلّ ما يحس به ويجد ألمه أو لذته، فدعوى المدعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحَكُّم منه، لكن ذاك مُقيد، فيقال: ذقتُ الطعام، وذقتُ هذا الشراب، فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم، وإذا كان الذوقُ مستعملًا فيما يحسه الإنسان بباطنه، أو بظاهره، حتى الماء الحميم، يُقال: ذاقه، فالشرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يُقال: ذقتُ حَره وبرده.

وأما لفظ «اللباس» فهو مُستعمل في كُلّ ما يغشى الإنسان ويَلتبس به، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ]، وقال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ومنه يُقال: لَبِسَ الحقَّ بالباطل، إذا خلطه به حتى غشيه فلم يتميز، فالجوعُ الذي يشمل ألمه جميع الجائع؛ نفسه وبدنه، وكذلك الخوف الذي يلبس البدن.

فلو قيل: فأذاقها الله الجوعَ والخوفَ، لم يدلّ ذلك على أنه شامل

---

(١) المصدر السابق (٧/ ١٠٩).

لجميع أجزاء الجائع، بخلاف ما إذا قيل: لباس الجوع والخوف، ولو قال: فألبسهم، لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يُؤلمهم إلا بالعقل، من حيث إنه يعرف أنَّ الجائعَ الخائف يألم، بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف، فإن هذا اللفظ يدلُّ على الإحساس بالمؤلم، وإذا أضيف إلى الملذ، دَلَّ على الإحساس به، كقوله ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[(١)].

قال: ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

قالوا: المرادُ به أهلها، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

فقيل لهم: لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب، وأمثال هذه الأمور - التي فيها الحال والمحل- كلاهما داخل في الاسم، ثم قد يعود على الحال وهو السكان، وتارة يعود على المحل وهو المكان.

وكذلك في النهر، يُقال: حفرتُ النهر، وهو المحل، وجرى النهر، وهو الماء، ووضعتُ الميزاب، وهو المحل، وجرى الميزاب، وهو الماء، وكذلك القرية، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال في آية أخرى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف]، فجعل القرى هم السكان...

(١) أخرجه مسلم (٣٤) والترمذي (٢٦٣٢) من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقـال: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقـرة: ٢٥٩]، فهذا المكان، لا السكان [١]، انتهى.

الخلاصة في مسألة المجاز:

١- المجاز عند مَن قال به هو: كُلّ ما يجوز نفيه. قالوا: الحقيقة: هو اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له.

٢- أن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز هو اصطلاحٌ حادثٌ بعد انقضاء القرون الثلاثة.

٣- لم يُقسِّم الكلامَ إلى حقيقة ومجاز أحدٌ من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا أحدٌ من الأئمة الأربعة، ولا أئمة النحاة أهل اللغة؛ كالخليل، وسيبويه، والكسائي، والفرّاء، وأمثالهم.

٤- لا يجوزُ إطلاقُ القول بأنَّ القرآنَ فيه مجاز.

وبناء على هذا: فإنَّ أهلَ السنة والجماعة يثبتون صفات الله تعالى على الحقيقة لا على المجاز، فانتبه لهذا الأصل الذي ضلَّت فيه أفهام، وذلت فيه أقدام، فنفوا ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ بتأويل فاسد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٠٩-١١٢) باختصار.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٩ - فسائِرُ الصِّفاتِ والأَفْعَالِ قَدِيمَةٌ للهِ ذِي الجَلَالِ

٥٠ - لَكِنْ بِلَا كَيْفٍ وَلَا تَمْثِيلِ رغمًا لأهلِ الزَّيغِ وَالتَّعطِيلِ

الشرح

قوله: «فسائر الصفات والأفعال قديمة»: أي: أنَّ جميعَ الصفات قديمة، أزلية، أبدية، لا يسبقها عَدَم، ولا يلحقها فناء، وقد تقرر هذا المعنى مرارًا.

وهذا متعلق بالصفات الذاتية والخبرية.

أما صفات الأفعال التي ذكرها هاهنا بقوله (والأفعال) ففيها تفصيل كما سبق بيانه[1]، فصفات الأفعال من حيث الجنس، الله تعالى لم يزل ولا يزال مُتصفًا بها، أما باعتبار آحاد الأفعال، فهي مُتعلقة بمشيئته وقُدرته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها.

فالله سبحانه لم يزل ولا يزال خالقًا، أما أنواع الخلق وآحاده فهو متعلق بمشيئته وقدرته، إن شاء خلق، وإن شاء لم يخلق، يخلق ما يشاء كيف يشاء، وقد سبق توضيح ذلك باستيفاء[2].

فكلامُ المصنف فيه إجمال، فقد أجمع السَّلفُ أنَّ الله تعالى لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الأفعال، فجنس الأفعال قديمة، وآحاد الأفعال ليست قديمة، فانتبه.

---

(١) راجع شرح البيت الرابع والثلاثين.

(٢) راجع الباب الأول، شرح البيت الرابع والثلاثين.

وقوله: «لله ذي الجلال»:

ذي الجلال: صفة لله تعالى، والجلالُ: بمعنى الكبرياء والعظمة.

«إنه قريبٌ من الكبرياء فلا يُوصَف به غيره عز وجل، إذ لا جلالَ على الإطلاق ولا كمال بالاتفاق إلا له عز وجل، ولا كرامة أيضًا ولا مَكرمة إلا وهي صادرة عنه تعالى وتقدَّس، جلّ جلاله وعمَّ نواله» [(١)][(٢)].

وصفة الجلال من الصفات الذاتية لله تعالى، وقد دلت عليها نصوص الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، وقال جل في علاه: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيما يرويه عن ربه: «...**فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(٣)].

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا وقال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ**»[(٤)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**»[(٥)].

---

(١) النوال: العطاء، انظر اللسان (٨/ ٧٤٩).
(٢) شرح أسماء الله الحسنى (ص: ٣٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٠).
(٤) أخرجه مسلم (٥٩١).
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو الجليل فكل أوصاف الجلال لــــه محققـــة بــــلا بطـــلان[1]

قوله: «بلا كَيْفٍ»:

سبق أنْ بيَّنا هذا المعنى، أي إثبات صفات الله تعالى بلا كَيف، أي لا نسأل عن كيفية الصفة؛ لأنَّ هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، والسؤالُ عنه بدعة، كما قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فلا نسأل عن كيفية الصفات، ولا نُكيف الصفات، فنقع في التشبيه والتحريف والتمثيل، فنحن نعتقد بأنّ صفات الله لها كيف لا يعلمه إلا الله، ونعتقد أنه حرامٌ على العقل أن يُكيفها وعلى الألسن أن تصفها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: «ولا تمثيل»:

أي: نثبت الصفة، ولا نُشبِّه الخالقَ سُبحانه بأحَدٍ من خَلقه، وقد تقدَّم أنَّ استعمالَ لفظ «بلا تمثيل» أولى من «بلا تشبيه»؛ لأسباب، منها: أنه سبحانه ذكره في كتابه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، وقد سبق الكلام على نفي التمثيل، وذكرنا الأدلة وأقوالَ الأئمة.

(١) القصيدة النونية (٢/ ٦٤).

قوله: «رغمًا لأهل الزيغ والتعطيل»:

رغم في اللغة: الرَّغْم: التراب، والرَّغْم: الذل، وفي الحديث: «**وإنْ رَغِمَ أَنْفُهُ**» أي: ذَلَّ[(١)].

أي: نثبت صفات الله - جَلّ في عُلاه - من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تعطيل، أي من غير نفي الصفات التي أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها له رسوله ﷺ، وفي ذلك إذلالٌ لأهل البدع.

وأما التعطيل: فهو التفريغُ والتخلية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج: ٤٥]، وقد سبق بيان معنى التعطيل، وأقسامه[(٢)].

---

(١) اللسان (٤/ ١٨٨).

(٢) راجع شرح البيت الثالث والعشرين.

ويُوجه الناظم النصيحة قائلًا:

٥١ - فَمِرهَا كَمَا أَتَتْ فِي الذِّكرِ   مِنْ غَيرِ تَأوِيلٍ وَغَيرِ فِكْرِ

الشرح

أي: نُـمِر الصفات على ألسنتنا وقلوبنا وعقولنا كما جاءت «في الذكر»، أي في القرآن، وكذا ما جاء عن نبينا ﷺ في الأحاديث التي رويت عنه بأسانيد صحيحة، فنقر أنَّ لله تعالى صفات الكمال ونُعوت الجلال، ونعتقد أنَّ الصفات حقيقة لا مجازًا، (مِنْ غَيرِ تَأوِيلٍ) أي: تحريف ولا تعطيل، ومن غير (فِكْرِ) أي: لا نفكر في كيفية الصفات ولا نمثل، ونثبت معنى آيات الصفات والأحاديث التي جاءت فيها الصفات، ولا نُفوِّض المعنى كالمفوِّضة- نعوذ بالله من الضلال- فنثبت الصفة ومعناها، من غير تكييف، وقد سبق بيانُ ذلك.

قال المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ: سألتُ أبا عبد الله بن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الأحاديث التي تردُّها الجهمية في الصفات والإسراء والرؤية وقصة العرش، فصحّحها وقال: تلقتها العُلماءُ بالقبُول، تُسَلِّمُ الأخبارَ كما جاءت[1].

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق ذكره جملة من صفات الله تعالى: وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردَت بها الأخبار الصحاح؛ من السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقُدرة، والعزة، والعظمة، والإرادة، والمشيئة، والقول، والكلام، والرضا،

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٧٧١).

والسخط، والحب، والبغض، والفرح، والضحك، وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله ﷺ، من غير زيادة عليه، ولا إضافة إليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب، وتضعه عليه، بتأويل مُنكَر يُستنكَر، ويجرون على الظاهر، ويَكلون علمه إلى الله تعالى، ويُقرون بأنَّ تأويله لا يعلمه إلا الله، كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران][1].

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ١٦٥).

ثم قال صاحب النظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٢ - وَيَسْتَحِيلُ الْجَهلُ وَالعَجْزُ كَمَا قَـدِ اسْـتَحَالَ الْمَـوتُ حَقًّا وَالْعَمَـى

٥٣ - فَكُــلُّ نَقْــصٍ قَــدْ تَعَــالَى اللهُ عَنْــهُ فَيَــا بُشْــرَى لِمَــنْ وَالَاهُ

الشرح

قوله: «ويستحيل الجهل والعجز كما قد استحال الموت حقًّا والعمى»:

نفى المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض صفات النقص التي لا يجوز أن يتصوَّر عاقلٌ اتصافَ الله بها - تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا - ولكن سبق أنَّ النفي المحضَ ليس فيه مدحٌ ولا كمالٌ، فلا بُد من إثبات كمال الضد، وكذا النفي يكون مُجمَلًا، وإثباتُ صفات الكمال يكون تفصيلًا، وهذا هو خطابُ القرآن، وقد سبق بيانُ الأدلة على ذلك عقلًا ونقلًا[1]، منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه]، وقال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

وقوله: «فكُلّ نقص قد تعالى الله عنه..»:

بعد أنْ نفى الناظمُ جُملة من صفات النقص عن الله، ذكر قاعدة عامة،

---

(١) راجع شرح البيت السابع والعشرين.

ألا وهي: أنَّ كُلَّ نقص لا نصف به ربنا جَلّ وعلا، فهو مُنزَّه عن كُلِّ نقص، فله صفات الكمال ونُعوت الجلال، وقد ثبت ذلك بأدلة النقل والعَقل.

وقوله: «فيا بُشرَى لمن والاه»:

البشرَى لغة: بمعنى البشارة، والبشارة المطلقة لا تكونُ إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة به، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾[التوبة][1]. انتهى.

أي: فيا بُشرى لمن كان وليًّا لله عزَّ وجلَّ.

وإذا أردت أن تعرف مَن هو الولي؟ فاقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

ومن المعلوم عند عُلماء التفسير أنّ من طُرق التفسير وأعلاها أنْ يُفسَّر القرآن بالقرآن، فالله تعالى في الآية ذكر الأولياء وذكر صفتين لهم، وهما الإيمان والتقوى، وعطف التقوى على الإيمان من باب عَطف الخاص على العام لبيان أهميتها، فالمقصودُ أنَّ الولاية تتحقق بالإيمان والتقوى، أسأل الله أنْ يرزقنا الإيمانَ والتقوى حتى نصبح من أوليائه، وهذه هي الولاية الخاصة.

أما الولاية العامة: فهي لجميع الخلق، حتى الكافر، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) الصحاح (ص:٩٣).

ثمرات الولاية الخاصة:

الولي لا يخافُ ولا يحزن، أي لا يخافُ مما هو آت، من سُؤال الملكين حين يُوضَع في قبره، ومن أهوال يوم القيامة، ولا يحزن على ما مضى، فالولي له البشرى السارة من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآيات التي ذكرناها آنفًا: يخبر تعالى أنَّ أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فَسَّرهم ربُّهم، فكُلّ من كان تقيًّا كان لله وليًّا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

قال غيرُ واحد من السلف: أولياءُ الله الذين إذا رُءُوا ذُكِر الله.

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرى لَهُ**»(١).

وقيل: المرادُ بذلك: بُشرَى الملائكة للمُؤمنين -عند احتضارهم- بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

وفي حديث الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ الْمُؤمِنَ إذا حَضَرَهُ الموْتُ جَاءَتْهُ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ بِيضُ الثياب، فقالوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الروح الطَّيِّبَةُ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُج من فمه كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ**

---

(١) رواه مسلم (٢٠٧/ ٤٧٩) عن ابن عباس، ورواه أحمد بلفظه (٢٧٥٥٠)، ورواه الترمذي (٢٢٧٣، ٣١٠٦) عنه بنحوه، وحسَّنه.

السِّقَاءِ»[١].

أما بُشراهم في الآخرة: فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد][٢].

ومن ثمرات الولاية:

أنّ مَن عادى أولياء الله فقد عرَّض نفسه لوعيد الله بمحاربته، ومَن حاربه الله فهو مغلوب مهزوم مخذول.

قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ[٣] بِالحَرْبِ»[٤].

خاتمة في ذكر أهمية الاعتصام بالقرآن والسنة للنجاة من الضلال:

قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٨٧-٢٨٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه باختلاف، ورواه أبو داود (٤٧٥٣)، وابن ماجه (٤٢٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٥، ٣٧٦) باختصار.

(٣) آذنته: بالمد وفتح المعجمة، بعدها نون، أي: أعلمته. والإيذانُ: الإعلام، ومنه أُخِذ الأذانُ- فتح الباري (١١/ ٣٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ»[(١)].

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، وهذا مما اتفق عليه سَلفُ الأمة وأئمتها.

فالواجبُ أنْ يُنظر في هذا الباب، فما أثبته الله ورسُوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسُوله نفيناه، والألفاظُ التي ورَدَ بها النص يُعتصم بها في الإثبات والنفي، فنُثبت ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٨)، (١٣/ ٣٧١).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٥٤).

فصل
في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد
وفي جوازه وعدمه

قال المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥٤ - وكلُّ ما يُطلبُ فِيهِ الجزم فَمنعُ تقليدٍ بِذاكَ حتم

٥٥ - لأنهُ لا يُكتفى بالظَّنِّ لِذِي الْحِجَا في قَوْلِ أهلِ الفنِّ

٥٦ - وقِيلَ يَكفي الجزمُ إِجمَاعًا بما يُطلبُ فِيهِ عند بَعضِ العُلمَا

٥٧ - فالجازِمُون مِنْ عوامِّ البَشَرْ فمُسلمونَ عندَ أهلِ الأثرْ

الشرح

هذا الفصلُ في مسألة الاعتقاد، هل يجوزُ التقليدُ أو لا يجوز؟ وهذه المسألة مهمة جدًّا.

فعلماءُ الكلام يقولون: إنه لا يجوز التقليدُ في أمور العقيدة بل لا بد من النظر والاستدلال بالأدلة العقلية؛ لأنَّ الأدلة العقلية عندهم تُفيد اليقينَ، وأما الأدلة السمعية - وهي أدلة الشرع عندهم - فإنها لا تُفيدُ اليقينَ، ولذلك يُوجبون على الخلق النظرَ في الأدلة العقلية حتى يتوصلوا إلى الاعتقاد الجازم.

وهذا القولُ لا شك أنه باطلٌ؛ لأنَّ أمورَ العقيدة أغلبها أو كُلّها من أمُور الغيب التي لا يعلمها إلا الله سُبحانه وتعالى، والعقلُ لا يتوصَّلُ إلى أمور

الغيب، وإنما يَعتمد على أخبار الشَّرع التي نزلت بها الكتب، وجاءت بها الرسُل، وهي تفيدُ اليقينَ والجزم؛ لأنها من عند الله عز وجل، أو من عند رسل الله، وهم أعلم بالله سبحانه، فالاعتمادُ عند أهل العلم في العقيدة على أدلة الشرع، أما أدلةُ العقل فلا يُعتمَدُ عليها اعتمادًا كُليًّا، بل يُستفاد منها، لكن لا يُقتصَرُ عليها في إثبات العقيدة؛ لأنَّ العقلَ قاصرٌ وعاجزٌ عن إدراك الأمور كُلّها، وإنما يُعتمَدُ على كلام الله جلّ وعلا وكلام رسُوله في أمور العَقيدة.

وأما التقليد: فهو قَبُولُ قول الغير من غير دليل، يعني: من غير أنْ يَطلب المقلدُ الدليلَ؛ لأنَّ المقلدَ لا يعرفُ الدليلَ، وإنما يُقلد غيره.

والتقليد على قسمين:

تقليد بمعنى الاتباع والاقتداء: وهذا يكون اقتداء بأهل العلم والبصيرة الذين يجوز تقليدهم والاقتداء بهم، إذا كانوا علماء محققين؛ لأنَّ يوسُفَ عليه السلام قال: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [يوسف: ٣٨]، فالاقتداءُ والاتباع إذا كان على حَق فإنه صحيحٌ وحَقٌّ.

أما الاقتداء بعُلماء الضلال: فلا يجوز، لا في أمر العقيدة ولا في غيرها، بل هذا هو التقليدُ الأعمى.

أما التقليدُ الصحيح الذي يكون في اتِّباع أهل الحق وأهل العلم، فهذا لا بأس به.

ثم إنَّ العوام – أيضًا – لا يستطيعون معرفة تفاصيل العقيدة، وإنما هذا من شأن العُلماء، أما العوام فيُكتفى منهم بالاعتقاد المجمل، قاله الفوزان حفظه الله.

ودليل ذلك: أنَّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فعوام المسلمين لا يستطيعون معرفة تفاصيل العقيدة، فيَكفي عوام المسلمين الاعتقاد المجمَل، للآية المذكورة، وكذا كان الناسُ يدخلون في الإسلام بالنطق بالشهادتين.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الآتي بالشهادتين مُؤمنٌ حقًّا، وإن كان مُقلدًا، على مذهب المحققين والجماهير من السَّلف والخلف، وقد تظاهَرت بهذا الأحاديث الصحاح التي يحصل بمجموعها التواتر والعلم القطعي[(١)].

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنه وإنْ كان يظن طوائف من المتكلمين أو المتفلسفة أنَّ الشرعَ إنما يدلّ بطريق الخبر الصادق، فدلالته موقوفة على العلم بصدق المُخبِر، ويجعلون ما يُبنى عليه صدق المخبِر معقولات محضة، فقد غلطوا في ذلك غلطًا عظيمًا، بل ضلوا ضلالًا مُبينًا، في ظنهم أنَّ دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، بل الأمر ما عليه سَلف الأمة أهلُ العلم والإيمان، من أنَّ الله سُبحانه وتعالى بيَّن من الأدلة العقلية التي يُحتاجُ إليها في العلم بذلك ما لا يَقْدِرُ أحدٌ من هؤلاء قدْرَه، ونهاية ما

---

(١) نقلًا من لوامع الأنوار (١/ ٢٧٠).

يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجْه (١).

الخلاصة:

أنَّ قولَ الناظم «**وكُلّ ما يُطلبُ فيه الجزم فمنع تقليد بذاك حتم**» هذا ليس على الإطلاق؛ لأنَّ عوام المسلمين ليس لكُلّ واحد منهم القدرة وآلة الاجتهاد للتوصل إلى تفاصيل مسائل العقيدة، فيُكتفى منهم بالاعتقاد المجمَل؛ كالإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر وبالحساب والجنة والنار، وأنّ محمدًا ﷺ رسول الله، وفرض الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة.

أما تفاصيلُ هذه المسائل وغيرها فله أن يُقلد العلماءَ الربانيين – أهل السنة والجماعة – لأنَّ علمهم مُستقى من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة ومَن تبعهم بإحسان، وقد أمر الله تعالى بسُؤالهم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء].

أما تقديمُ العقل والاجتهاد على نُصوص الشرع، فهذا منهجُ أهل الكلام وأهل البدع، وهو مخالفٌ للعَقل والنقل معًا.

وقوله: «لأنه لا يُكتفَى بالظَّنِّ...»:

عَلّل منعَ التقليد بأنه «لا يُكتفَى بالظن» الذي هو ترجيحُ أحَد الطرفين على الآخر في أصول الدين.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٥).

قوله: «لذي الحِجا في قَوْلِ أهلِ الفنِّ»:

الحِجا: بكسر الحاء، أي: العَقل، في قول عُلماء المعقول.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإن كان طوائف من أهل الكلام يزعمون أنَّ المسائلَ الخبرية- التي يُسمّونها مسائل الأصول- يجب القطع فيها جميعها، ولا يجوزُ الاستدلالُ فيها بغير دَليل يُفيدُ اليقينَ...، خطأٌ مخالفٌ للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها[(١)].

وما يقوله كثير من الناس في باب أصول الدين والكلام والعلوم العقلية والحكمة يعلم كُلّ من تدبره أنه مخالفٌ لما جاء به الرسول أو أن الرسول لم يقل مثل هذا، وإن اعتقد من اعتقد أن هذا من أصول الدين... والفلاسفة الأولية صار كثير منهم يقول: إن الرسول لم يكن يعرف أصول الدين، أو لم يبين أصول الدين[(٢)].

وقوله:

«وقيل يكفي الجزم إجماعًا»...: ....

وهذا هو القولُ الثاني وهو الصحيحُ، الموافقُ للكتاب والسنة وإجماع الأئمة.

«وهذا قول ثانٍ في هذه المسألة، وهو أنه يكفي الجزمُ بما يُطلب فيه الجزم، ولو عن طريق التقليد، فالإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسُله واليوم

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٥٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤) باختصار.

الآخر هذا مما يجب فيه الجزم، ولكن العامي لا يدركُ ذلك بدليله، ومع ذلك نُصحِّح إيمانه، ونقول: إنه مُؤمنٌ، وإنْ كان لا يُدركُ ذلك بدليله.

ولهذا قال المؤلفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقيل يكفي الجزم إجماعًا»: يعني أنه إذا وجد الجزم حصل المقصودُ بالإجماع.

وقوله: «بما يطلب فيه عند بعض العلما»:

«بما يطلب فيه» نائب فاعل «يطلب» يعود على الجزم، يعني: يكفي الجزم بما يُطلب فيه الجزم بالإجماع، وقائلُ هذا بعض العلماء، ولهذا قال: «عند بعض العُلما».

«هذا القولُ هو الصحيح، والدليلُ على ذلك أنَّ الله أحال على سُؤال أهل العلم في مسألة من المسائل التي يجب فيها الجزم، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء].

وواضحٌ أننا نسألهم لنأخذ بقولهم، ومعلومٌ أنّ الإيمانَ بأنّ الرسلَ رجالٌ هو من العقيدة، ومع ذلك أحالنا الله فيه إلى أهل العلم.

وقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾ [يونس] وإنما يسألهم ليرجع إليهم، وإذا كان هذا الخطابُ للرسول ﷺ ولم يشك، فنحن إذا شككنا في شيء من أمور الدين، فنرجع إلى الذين يقرءون الكتاب، أي: إلى أهل العلم؛ لنأخذ بما يقولون، وهذا عامٌّ يشمل مسائلَ العقيدة.

ثم إننا لو ألزمنا العامي بترك التقليد والتزام الأخذ بالاجتهاد لألزمناه

بما لا يطيق، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون].

فالصوابُ المجزوم به: هو القولُ الثاني، وهو أنَّ ما يُطلب فيه الجزم يُكتفى فيه بالجزم، سواء عن طريق الدليل أو عن طريق التقليد»[١].

وقوله: «فالجازمون من عوام البشر»:

المقصودُ أنّ عوام المسلمين لا يُطلبُ منهم ما يُطلب من العُلماء.

وقوله: «فمسلمون عند أهل الأثر»:

أي: إيمانهم صحيح بما عندهم من مُجمَل الاعتقاد، وإسلامهم صحيحٌ عند أهل الأثر، الذين يرون أنه يجوز التقليد في الأمور التي يُطلب فيها الجزم، كما تقدم بيانه.

مسألة: هل بين أهل السنة والجماعة خلاف في مسائل الاعتقاد؟

اعلم أنّ أصولَ الاعتقاد ليس فيها خلافٌ بين أهل السنة، إنما وقع الخلاف بينهم في فروع بعض مسائل العقيدة.

على سبيل المثال: أهلُ السنة مجمعون على أنّ الله تعالى يُرَى في الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة].

وأجمعوا أيضًا على أن الله تعالى لا يُرَى في الدنيا، قال سبحانه لموسى

---

(١) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين (ص: ٣٠٥) وما بعدها.

عندما أراد رؤيته: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، والأدلة على ذلك كثيرة سنذكرها في موضعها إن شاء الله، فهذا أصلٌ من أصول اعتقاد أهل السنة، خلافًا للمعتزلة ومَن وافقهم.

ولكن وقع الخلاف في فرع عن هذا الأصل، ألا هو: هل رأى النبي ﷺ ربه يوم الإسراء والمعراج؟ على قولين للعلماء، وسنذكر أدلة ذلك في موضعه.

مسألة الصفات: أجمع أهلُ السنة على أنَّ صفات الله أزلية أبدية، لم يسبقها عَدَم، ولا يلحقها فناءٌ- مع أخذ التفصيل الذي ذكرناه في صفات الأفعال في الاعتبار- وأجمعوا أنّ صفات الله حقيقة لا مجاز.

ولكن اختلفوا في ثبوت «الساق» لله تعالى، فهذه مسألة فرعية عن أصل، وهو إثبات صفاته سبحانه من غير تعطيل ولا تمثيل، ومن غير تكييف ولا تحريف.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد طالعتُ التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفتُ من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار، أكثر من مائة تفسير، فلم أجد - إلى ساعتي هذه - عن أحد من الصحابة أنه تأوّل شيئًا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل عنهم من تقريرِ ذلك وتثبيته وبيانِ أنَّ ذلك من صفاتِ الله ما يُخالف كلامَ المتأوّلين ما لا يُحصيه إلا الله، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيئًا كثيرًا. وتمامُ هذا أني لم

أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم: ٤٢].

فروي عن ابن عباس وطائفة: أنّ المرادَ به الشدةُ، وأنَّ الله يكشف عن الشدة في الآخرة.

وعن أبي سعيد وطائفة: أنهم عدوها في الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين[(١)(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما اختلف أهلُ الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة، فلما دخلوا في البدع وقع الخلافُ... إلى أن قال: وهكذا الفقه، إنما وقع فيه الاختلاف لما خَفي عليهم بيانُ صاحب الشَّرع، ولكن هذا إنما يقع النزاعُ في الدقيق منه، أما الجليلُ فلا يتنازعون فيه، والصحابة أنفسهم تنازعوا في بعض ذلك، ولم يتنازعوا في العقائد[(٣)].

قال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولو اعتصموا بالكتاب والسنة لاتفقوا كما اتفق أهل السنة والحديث، فإنّ أئمة السنة والحديث لم يختلفوا في شيء من أصول

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٤).

(٢) هو ما أخرجه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديث الشفاعة، وفيه: «... فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ...» الحديث، واللفظ للبخاري.

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٧٤) وانظر: منهاج السنة (٦/ ٣٣٦).

دينهم[١].

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات» قال في آخر خطبته: فاتفقت أقوالُ المهاجرين والأنصار في توحيد الله عز وجل، ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولًا واحدًا، وشَرعًا ظاهرًا، وهم الذي نقلوا عن رسول الله ﷺ ذلك، حتى قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي...»[٢] وذكر الحديث...

فكانت كلمة الصحابة على الاتفاق، من غير اختلاف- وهم الذين أُمرنا بالأخذ عنهم، إذ لم يختلفوا بحمد الله تعالى في أحكام التوحيد وأصول الدين من «الأسماء والصفات» كما اختلفوا في الفروع، ولو كان منهم في ذلك اختلاف لنُقل إلينا، كما نُقل سائر الاختلاف- فاستقر صحة ذلك عند خاصتهم وعامتهم، حتى أدوا ذلك إلى التابعين لهم بإحسان، فاستقر صحة ذلك عند العُلماء المعروفين، حتى نقلوا ذلك قرنًا بعد قرن؛ لأنَّ الاختلافَ كان عندهم في الأصل كُفر، ولله المنة[٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما سُئل عن رجلين اختلفا في الاعتقاد؟ **قال**: الحمد لله، اعتقادُ الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واعتقادُ سلف الإسلام؛ كمالك، والثوري، والأوزاعي، وابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وهو اعتقادُ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٠٣).

(٢) حديث العرباض بن سارية وهو صحيح تقدم تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٧١).

المشايخ المقتدَى بهم؛ كالفُضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، وسهل بن عبد الله التستُري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاعٌ في أصول الدين.

وكذلك أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ فإنّ الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدَر ونحو ذلك، مُوافقٌ لاعتقاد هؤلاء، واعتقادُ هؤلاء ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو ما نطق به الكتابُ والسنة[1].

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٧).

الباب الثاني
في الأفعال المخلوقة

قال صاحب النظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٨ - وَسَائِرُ الأشْياء غيرَ الذاتِ وَغَيرَ ما الأسمَاء والصِّفَاتِ

٥٩ - مَخْلوقة لربِّنَا من العَدَمْ وَضلَّ منْ أَثْنى عَليهَا بالقِدَمْ

الشرح

أي: أنّ جميعَ الأشياء مخلوقة، أوجَدَها الله من العَدَم، فهو الخالق البارئ المصوِّر، وهو على كُلّ شيء قدير.

وقوله: «غير الذات..»:

أي: أنّ الذاتَ المقدَّسة والأسماء والصفات وأفعاله غير مخلوقة، وما عدا ذلك فهو مخلوقٌ، مُحدَث بعد أنْ لم يكن، فكُلّ ما سُوى الله تعالى مسبوقٌ بالعدم، وهذا مما أجمع عليه عُقلاء المسلمين.

قال رَسُولُ الله ﷺ: «اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»[1].

وقوله: «وضل مَن أثنى عليها بالقدم»:

أي: ضَلَّ وحاد عن الطريق المستقيم مَن أثنى على آحاد أفعال الله تعالى ووصفها بأنها قديمة؛ لأنّ أفعالَ الله قديمة النوع حادثة الآحاد- وقد سبق استيفاء المسألة[2] - فالحاصل أنَّ الله جلّ في عُلاه لم يزل ولا يزال مُتصفًا بصفات الكمال ونُعوت الجلال، صفاته لا يسبقها عَدَم، ولا يلحقها فناء، أوَّل بلا ابتداء، آخر بلا انتهاء.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) راجع شرح البيت الرابع والثلاثين.

أما صفات الأفعال- كما سبق- فجنس الفعل لم يزل ولا يزال الله تعالى مُتصفًا به، لا بداية لأفعاله، كما لا بداية لسائر صفاته، فهو سبحانه لم يكن مُعطلًا عن الفعل في وقت من الأوقات؛ لأنَّ الفعلَ صفة كمال؛ فلا تنفك عن الله، فلم يزل فعالًا لما يريد ولم يزل خلاقًا. أما آحاد الفعل- أي المفعول- فهو حادثٌ، ودليلُ ذلك أننا نرى الأشياء تحدث وتتجدد بعد أن كانت عَدَمًا، ولم تكن أزلية أبدية، فكُلّ ما في الكون- الإنس والجن، والملائكة، وما في السموات، وما في الأرض وغيرها من المخلوقات- مخلوقٌ مسبوقٌ بالعَدَم.

إذًا: أفعالُ الله تتجدّد أعيانها، وأما جنسها فهو قديمٌ لله عز وجلّ، أزلي أبدي، فأي عاقل لا بد أنْ يعلم ويُفرق بين المفعول وبين الفعل والفاعل.

أما الفلاسفة فقالوا: العالمُ قديم، وليس بمحدَث، وكيف لعاقل أن يتكلم بهذا الكلام؟! الذي إن دلّ على شيء فإنما يدل على ضلال صاحبه، إذ أنه ساوى بين الخالق سبحانه وبين المخلوق، وهذا شرعًا ضلالٌ وكُفر، وأما عقلًا: فكيف يكون المخلوق قديمًا؟ وكُلّ موجود- سُوى الله- كان عَدَمًا قبل وجوده، ثم أوجده الخالق سبحانه وتعالى، فأدلة العقل- والفطرة التي لم تنحرف- تشهد بذلك، فضلًا عن أدلة النقل التي يصعُب حصرها.

وقد أفاد وأجاد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في هذه المسألة(١).

---

(١) راجع- إن شئت- مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٤٤).

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٠ - وربّنـــا يخلُـــقُ باخْتِيَـــارْ مِــنْ غيــرِ حاجــة ولا اضْــطِرَارْ

٦١ - لكنَّهُ لا يخلُـق الخلْـقَ سُـدَى كمـا أتَـى في الـنصِّ فـاتبعِ الـهُـدَى

الشرح

قوله: «وربنا يخلق باختيار»: أي: أنَّ ربنا - تبارك وتعالى - يخلق ما يشاء من المخلوقات باختيار منه، فهو سبحانه لم يزل فعالًا لما يشاء، ويخلق ما يشاء متى شاء، قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريَّات، وانفراده باختيار مَن يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر، والأزمان والأماكن، وأنَّ أحَدًا ليس له من الأمر والاختيار شيء[1]. انتهى.

فالله سبحانه يخلق ويختار لحكمة قد نعلمها وقد لا نعلمها، فخلق الأرض، وجعل أفضل البقاع المساجد، وأفضل البلاد مكة، وخلق الزمان، فجعل أفضل الأشهر رمضان، وأفضل الليالي ليلة القدْر، وأفضل الأيام يوم الجمعة، وأفضل الساعات الثلث الأخير من الليل وساعة الإجابة يوم الجمعة.

وخلق الملائكة، واختار أفضلهم جبريل عليه السلام، وخلق البشر، وجعل سيدهم نبينا ﷺ، إلى غير ذلك، ولكُلّ ما ذكرت أدلة ثابتة بالكتاب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٢).

والسنة.

فالله تعالى يفعل ما يشاء كيف شاء، متى شاء، لا مكره له سبحانه وتعالى؛ قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحج]، وقال: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]، وغير ذلك من الآيات الدالة على ما ذكرنا.

وقوله: «من غير حاجة ولا اضطرار»:

أي: أنَّ الله تعالى خلق الخلقَ، وهو ليس في حاجة إلى شيء من مخلوقاته، فلا العرش يحمله، ولا الكرسي يُقِلُّه، ولا عبادةُ الخلق تنفعه، أو تزيد في مُلكه شيئًا، فهو سبحانه الخالق قبل الخلق، وكان ولم يكن شيءٌ معه، فجميعُ مخلوقاته في حاجة إليه، مُفتقرة لعطائه وإمداده، وهو الغني عن العالمين، فلا اضطرار ولا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للمخلوقات، ولا مُكره له عليها، بل جميع المخلوقات مأمُورة بأمره ومشيئته.

قال- جل ذكره- في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،

مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(١).

وقوله: «لكنه لا يخلُقُ الخلق سُدى»:

أي: أنّ الله تعالى لم يخلق الخلق سُدى، أي هَمْلًا، بلا أمر ولا نهي، ولم يخلق شيئًا بلا حِكمة، فالله تعالى العليم الحكيم، عَلِمنا الحِكَم أم لم نعلمها.

قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان].

وقال سُبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: لا يُؤمَر ولا يُنهَى.

وقال غيره: لا يُثاب، ولا يُعاقَب(٢).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والقولان واحد؛ لأنَّ الثوابَ والعقاب غايةُ الأمر والنهي، فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا، والثواب والعقاب في الآخرة، فأنكر سبحانه على مَن زعم أنه يُترك سُدى إنكارَ مَن جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، لا يليق أنْ يُنسب ذلك إلى أحكم

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) بدائع التفسير (٥/ ٨٨) لابن القيم.

الحاكمين(١). انتهى.

والحكمةُ من خلق العباد: هي عبادة الله الواحد الأحد. قال جل ثناؤه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات].

وقوله: «كما أتى في النص فاتبع الهدى»:

أي: كما أتى هذا المعنى «في النص»، أي: الكتاب والسنة، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا، وقد سبق بيان ذلك، «فاتبع الهدى» يعني: ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، ووعد الله تعالى مَن اتبع الهدى أن لا يَضلّ في الدنيا ولا يَشقى في الآخرة.

قال جَلَّ ذكره: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه].

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٦٢ - أفعالُنــــا مخلوقــــةٌ للهِ لكنَّهــا كســبٌ لنــا يَــا لَاهِــي

٦٣ - وَكُــلُّ مَــا يفعَلُــه العِبَــادُ مِــنْ طاعــةٍ أو ضــدِّها مُــرادُ

٦٤ - لِرَبِّنــا مِــن غَيــرِ مَــا اضْــطِرَارِ منــهُ لَنَــا، فــافْهَمْ ولا تُمَــارِ

الشرح

ذكر صاحبُ النظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الأبيات جملة من أصول الاعتقاد عند أهل السنة، نذكرها هنا مُفصَّلة بالأدلة.

قوله: «أفعالنا مخلوقة لله»:

وهذا من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث.

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا مَرْوَانُ بن مُعَاوِيَة، ثنا أَبُو مَالِكٍ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتِهِ»[1]. وتلا بعضهم عند ذلك: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات]، فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة...

وساق حديث ابن عُمَر، وفيه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ،

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (١١٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٧،٥٧٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٥٧-٣٥٨)، وابن منده في التوحيد (١١٥)، وابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٥٠٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٣٧)، والحديث يوافق الآية الكريمة.

حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ»[١].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعتُ عبيد الله بن سعيد يقول: سمعتُ يحيى بن سعيد يقول: ما زلتُ أسمع من أصحابنا يقولون: إنَّ أفعالَ العباد مخلوقة.

قال أبو عبد الله البخاري: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة[٢]، انتهى.

أما القدَرية النُّفاة من المعتزلة، ومَن وافقهم، فيقولون: إنّ الكفرَ والفسوقَ والمعاصي لا يحبها الله ولا يرضاها، وهذا حق، ثم استدلوا بهذا الحق على قولهم الباطل بأنَّ أفعالَ العباد- خيرها وشرها- لم يخلقها الله بقُدرته ومشيئته، بل العباد هم الخالقون لأفعالهم - تعالى الله عما يقول هؤلاء المبطلون- وقد سبق بيان الفرق بين المحبة والرضا، والمشيئة والإرادة[٣]، فالله تعالى خالقُ كُلّ شيء، خلق الخيرَ والشر، والطاعات والمعاصي، فكُلّ أقوال وأفعال وإرادات وحَركات وسَكنات العباد مخلوقة، خلقها الله بقُدرته، وأرادها وشاءها لحكمة، وأعطى للعبد القُدْرة والمشيئة على الاختيار والفعل، وبيَّن له طريقَ الخير وطريقَ الشر، وكُلّ ذلك تابع لمشيئته وإرادته ومُقتضى حِكمته، فهو أعلمُ بمن يستحق الهداية ومَن يستحق الغواية.

قال الله جل وعلا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥).

(٢) خلق أفعال العباد (ص: ٦٣-٦٦) باختصار.

(٣) راجع شرح البيت السادس والثلاثين.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩﴾ أي: طريقًا ومَسلكًا، أي مَن شاء اهتدى بالقرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾ [النساء].

ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: لا يقدر أحد أنْ يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعًا ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾، أي: عليمٌ بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويُقيض له أسبابها، ومَن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجَّة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾.

ثم قال: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾، أي: يهدي مَن يشاء، ويُضل مَن يشاء، فمَن يهده فلا مُضل له، ومَن يُضلل فلا هادي له[(١)].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه عن القدَر: من مراتب القضاء والقدر: وهي مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها.

وهذا أمر متفقٌ عليه بين الرسل - صلى الله تعالى عليهم وسلم- وعليه اتفقت الكتب الإلهية، والفطرة، والعقول، والاعتبار، وخالف في ذلك

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٣).

مجوس الأمة؛ فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسُله وعباده المؤمنين- وهي أشرف ما في العالم- عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم الخالقين لها، ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قُدرته، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية، فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أنْ يهدي ضالًّا ولا يضل مُهتديًا، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلمًا، والكافر كافرًا، والمصلي مُصليًا، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك، لا بجعله تعالى.

وقد نادى القرآن - بل الكتب السماوية كُلّها - والسنة وأدلة التوحيد والعقول على بُطلان قولهم، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض، وصنَّف حزب الإسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف في الرد عليهم، وهي أكثر من أن يحصيها إلا الله(١).

وقوله: «لكنها كسب لنا يا لاهي»:

أي: أن أفعالنا التي تصدُر عنا كسْبٌ لنا، والكسبُ هو الفعل(٢)، أي أنَّ العبدَ هو الذي يفعلها، وثوابها أو عقابها له.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) شفاء العليل (١٢٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٨٧).

وقوله: «يا لاهي» أي: يا غافل، واللهو محله القلب، واللعبُ محله البدن.

والمقصود هنا: التنبيه؛ لئلا يقع في ضلال القدَرية النفاة، ولا الجبرية الذين نفوا الفعل عن العبد، وأضافوه للرب تعالى، كما سيأتي بيانه.

وقوله:

وكُلُّ مَا يَفعلُهُ العِبَادُ مِن طَاعَةٍ أَو ضِدِّهَا مُرَادُ

سبق بيانُ أنَّ الإرادة - كما جاءت في القرآن- نوعان:

١- إرادة قدَرية كونية.

٢- إرادة دينية شرعية.

أي: أن ما يفعله العباد من طاعة وضدها - وهي المعصية - فهو مراد الله، وقع بقدَر الله وإرادته.

أما الطاعة: فتقع بالإرادة الدينية الشرعية، والإرادة القدَرية الكونية.

وأما المعصية: فتقع بالإرادة القدَرية الكونية، وتقع بمشيئته وإرادته - سبحانه وتعالى- لحكمة، ولكنه لا يحبها ولا يرضاها لعباده.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة].

وقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، فنفى حبه للفساد، ونفى رضاه عن الكفر، وقد سبق استيفاء المسألة[1].

واعلم أن الإرادة الدينية الشرعية قد يقع المرادُ منها، وقد لا يقع، فالعبد مأمور بفعل الطاعات، ولكن قد يفعلها، وقد لا يفعلها، ولا يخرج

---

(١) راجع شرح البيت السادس والثلاثين.

ذلك كُلّه عن مشيئته وإرادته وحِكمته.

أما الإرادة القدرية الكونية: فيلزم فيها وقوع المراد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وقوله:

لِرَبِّنَا مِنْ غَيْرِ مَا اضْطِرَارِ ... مِنْهُ لَنَا فَافْهَمْ وَلَا تُمَارِ

هذا أصلٌ من أصول اعتقاد أهل السنة، ردًّا على الجبرية، الذين قابلوا الباطل الذي قاله القدَرية النفاة بباطل مثله وأشد، فزعموا أنّ العبدَ ليس له قدْرة ولا مشيئة على فعل طاعة أو ترك معصية، وهذا عندهم كذلك في أمور الحياة التي لا تعلق لها بالشرع.

قالوا: العبدُ مُجْبَر على ما يفعله، فنفوا الفعل عن العبد، وأضافوه إلى الله، وهذا بهتانٌ عظيم، وضلالٌ مبين، يخالف العقل والنقل والفطرة السليمة.

فالعبدُ له إرادة وقدْرة واختيار وفعل، وهو الكسب، والله تعالى خلق أفعال العباد كما خلق العباد أنفسهم، ولكن ما يفعله العبد يكون منه هو حقيقة لا مجازًا، فالذي يصلي ويصوم ويحج ويفعل الخيرات أو يفعل المعاصي هو العبد، لا الرب تعالى.

والقرآنُ مملوءٌ بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد، وأنها وقعت بمشيئته وإرادته سبحانه، وباختيار العبد، ولا تعارضَ بين خلق الفعل واختيار العبد؛ فأفعالنا منسوبة إلى الله خلقًا وتقديرًا، ومنسوبة لنا فعلًا وكسبًا.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾: «بيَّن لها الخير والشر».

وقال ابنُ زيد: جعل فيها فُجورها وتقواها[1].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي زكّى نفسه وطهّرها من رجس النقائص والآثام، أو نماها بالعلم والعمل والوصول إلى الكمال، وبلوغ الفطرة الأولى ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله تعالى، وهذا ما قاله ابن جرير[2].

وقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي بيّنّا له طريقَ الهدى والضلال، والخير والشر، ببعث الرسل، فآمن أو كفر، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: بيَّنا له السبيلَ إلى الشقاء والسَّعادة[3].

قال المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ: قلتُ لأبي عبد الله: رجلٌ يقول: إنَّ الله جبَر العبادَ، فقال: هكذا لا تقُل، وأنكر هذا، وقال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣][4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٤٦).
(٢) محاسن التأويل (٧/ ٣٣١).
(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١١٩).
(٤) أخرجه الخلال في السنة (٩٢٠).

قال الخلالُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبرني محمد بن أبي هارون، أن إسحاقَ حدَّثهم قال: كنتُ يومًا عند أبي عبد الله، فجاء رجلٌ، فقال له: إنَّ فلانًا قال: إنَّ الله جبَرَ العبادَ على الطاعة، قال: بئس ما قاله(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومما اتفق عليه سلفُ الأمة وأئمتها – مع إيمانهم بالقضاء والقدَر – أنّ الله خالقُ كُلّ شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يُضل من يشاء ويَهدي من يشاء، وأنّ العبادَ لهم مشيئة وقُدْرة، يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدَرَهم الله عليه، مع قولهم إنّ العبادَ لا يشاءون إلا أنْ يشاء الله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]، وساق آيات أخَر كما تقدم.

ثم قال: والقرآنُ قد أخبر بأنَّ العبادَ يُؤمنون، ويكفرون، ويفعلون، ويعملون، ويكسبون، ويُطيعون، ويعصون، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة... ويأكلون ويشربون، ويقاتلون ويحاربون، فلم يكن من السلف والأئمة مَن يقول: إنَّ العبدَ ليس بفاعل، ولا مختار، ولا مُريد، ولا قادر، ولا قال أحَدٌ منهم: أنه فاعلٌ مجازًا، بل مَن تكلم منهم بلفظ الحقيقة والمجاز مُتفقون على أنَّ العبدَ فاعلٌ حقيقة، والله تعالى خالق ذاته وصفاته وأفعاله(٢).

---

(١) المصدر السابق (٩٢١).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٩-٤٦٠).

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥ - وَجَـازَ للمَـولَى يُعـذبُ الْـوَرَى مِـنْ غَيـرِ مَـا ذَنْـبٍ وَلَا جُـرم جَـرَى

٦٦ - فَكُـلُّ مَـا مِنْـهُ تَعَـالَى يَجمُـلُ لأَنَّـهُ عَـنْ فِعلِـهِ لَا يُسـأَلُ

٦٧ - فَـإِن يُثـب فَإِنَّـهُ مِـنْ فَضْـلِه وَإِن يُعـذِّب فَـبِمَحض عَدلِـهِ

٦٨ - فَلَمْ يَجِبْ عَلَيهِ فِعلُ الأَصلَحِ وَلا الصَّـلَاحِ وَيـحَ مَـنْ لَـم يُفْلِـحِ

٦٩ - فَكُـلُّ مَـن شَـاءَ هـدَاهُ يَهتَـدِي وَإِن يُـرد ضَـلَالَ عَبـدٍ يَعتَـدِي

الشرح

المولى: من أسماء الله عز وجل، وقد أثبته جماهيرُ العلماء الذين اعتنوا بجمع الأسماء.

وقد ورَد مُضافًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحج]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد].

وفي حديث البَرَاءِ الطويل لما قَالَ أَبُو سُفْيَانَ - وكان قبل إسلامه-: إن لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «أَلَا تجِيبُونَهُ» قال: قَالُوا: يا رَسُولَ الله: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»[1].

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٥٦١) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحَليميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى المولى: إنه المأمُولُ منه النّصر والمعونة؛ لأنه هو المالك، ولا مَفْزَعَ للمَملوك إلا مالِكُهُ (١).

وقد سبق بيان أقسام الولاية (٢).

وقوله:

وجاز للمولى يُعذِّبُ الورى ... من غير ما ذنبٍ ولا جُرْمٍ جَرى

أي: جاز للمولى – سُبحانه وتعالى – أنْ يُعذِّبَ «الورى» أي الخلق.

وهذا الكلامُ لا يجوز؛ لأنه غيرُ صحيح، وهو مما يُؤخَذ على الناظم، لأنَّ ما قاله يُخالف النصوصَ التي تثبت كمالَ عَدْل الله تعالى، وأنه لا يبخسُ الناسَ شيئًا، ومع كمال عَدْله فهو الحكيمُ الذي يضعُ الأشياءَ في مواضعها، ومن المحال على الحكَم العَدْل أنْ يُعذِّب مُطيعًا مُحسنًا، وأنْ يُثيب عاصيًا مُذنبًا أو كافرًا فاسقًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم].

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ١١٤).

(٢) راجع شرح البيت الثالث والخمسين.

وقولـه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت]. والآيات في ذلك كثيرة.

وفي الحديث القدسي أنَّ النبي ﷺ رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[(١)].

قال ابن عثيمين رحمه الله -في معرض شرحه لهذا البيت-: صار قول المؤلف قولًا باطلًا مخالفًا للكتاب والسنة، ومخالفًا لما تقتضيه أسماء الله وصفاته[(٢)].

قال صالح الفوزان حفظه الله: هذا كلام غير سليم، وهو يجري على مذهب الأشاعرة الذين ينفون الحكمة في أفعال الله جلَّ وعلا، فيقولون: إن الله يفعل لمجرد المشيئة، لا لحكمة، فيجوز أن يعذب المطيع، وأن ينعم على الكافر؛ لأنه يفعل ما يشاء[(٣)].

وأما أهل السنة فيقولون: هذا باطل في حق الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يليق به أن يُنعّم الكافر وأن يعذب المؤمن، لا يليق بحكمته سبحانه وتعالى، وبرحمته، وجاءت الأدلة في الكتاب والسنة في أنه أعدَّ للمتقين الجنات، وأعد للكافرين النار، هذا الذي جاء في الكتاب والسنة، فكيف

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) شرح السفارينية (ص: ٣٤٢).

(٣) شرح السفارينية لجمع من العلماء (ص: ٤٢٨-٤٢٩).

تقولون: يُعذب الورى من غير ما ذنب ولا جرم جرى.

وقوله:

فكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجمُلُ   لأَنَّهُ عَنْ فِعْلِهِ لا يُسْأَلُ

الله جلّ وعَلا له الجمالُ والكمالُ في الأسماء الصفات والأفعال، كُلّ شيء يَصدُر عنه حَسَنٌ ومحمودٌ، يستحق أن يُشكَر على إنعامه وإحسانه، ويستحق أن يُحمد عليها لذاته وصفاته، فله الحمد كُلّه، وبيده الخير كُلّه، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]؛ لتمام عدْله وحكمته وحمده، فلا يظلم أحدًا، بل يُضاعف الحسنات، ويمحو السيئات إذا تاب العبد وأناب، قال تعالى - بعد أن ذكر عذابَ العُصاةِ - ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

والقرآنُ مملوءٌ بالآيات التي تدلُّ على سعة عَفو الله تعالى وكرمه وإحسانه لعباده، ونفي الظلم عنه بأي وجه من الوجوه، وإنْ كان مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة].

فلك الحمد يا رب على ما تفضلت به وأعطيت، ولك الحمد يا رب حتى ترضى، ولك الحمد بعد الرضا، ولك الحمد إذا رضيت.

وقوله: «فَإِنْ يُثِبْ فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»:

أي: أن الله تعالى إن يُثب - مُطيعًا، محسنًا، قائمًا بأمره، تاركًا لنهيه - فإنه من فضله، وذلك لأنه الشكور، والشكورُ الذي يُعطي الكثير على العمل القليل، فسبحانه جعل الحسنة بعشر أمثالها، ويُضعِّفها إلى سبع مائة

ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله.

قال جلَّ ذكره: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة].

قوله: «وإن يُعذب فبمحض عَدْله»:

وقد تقدم أنَّ الظلمَ- بأي وجه من الوجوه- مَنفي عن الله.

ومن كرمه تعالى أنه يُجازي على السيئة مثلها، وقد يعفو ولا يُؤاخذُ العبدَ بالذنب، وهنا يكون العفو منه إحسانًا؛ لأنَّ المسيء يستحق العُقوبة، فإن عفى عنه فبفضله، وإن عذّبه فبعدْله.

قال جلّ في عُلاه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

وقوله:

فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِعْلُ الأَصْلَحِ ... وَلا الصَّلاحُ وَيْحَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ

ابتداءً لا بد أن نعلم يقينًا أنَّ الله تعالى مُنزه عن النقص وكُلّ فساد وشر، وأنَّ جميعَ البلاء الذي يُصيب الناس مخلوقٌ خلقه الله تعالى لحكمة.

على سبيل المثال: خلق الله تعالى إبليس، وهو شر محض، ولكن لحكمة، وهي امتحانُ العباد حتى يميز الخبيث من الطيب، والصادق من

الكاذب.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت].

وقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران].

وكذلك كُلّ مُصيبة تقع في الكون يكون حتمًا من ورائها خيرٌ كثير، فالأمراض والأوجاع والجدب وغير ذلك يُثاب عليه العبد إذا صبر واحتسب، وهذا هو الأصلح للعباد بلا شك، فالشر ليس إليه سبحانه، كما قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض شرحه للحديث: فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته - تبارك وتعالى - عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق].

وتأمّل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه، ومَن قام به، كقوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝١٠٨﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [النساء: ١٦٠].

وهو في القرآن أكثر من أن يُذكر هاهنا عُشر معشاره، وإنما المقصودُ التمثيل، وتارة بحذف فاعله، كقوله تعالى عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن]، فحذفوا فاعل الشر

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومُريده، وصرّحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

فذكر النعمة مُضافة إليه سُبحانه، والضلال منسوبًا إلى مَن قام به، والغضب محذوفًا فاعله...»(١).

فقوله: «فلَمَ يَجب عليه فعلُ الأَصْلح...»:

هذا ردٌّ على المعتزلة الذين يقولون: يجب على الله فعلُ الأصلح، وهذا باطلٌ؛ لأنه لا يجبُ على الله جل وعلا شيء، ولا أحدَ يُوجب على الله شيئًا، وإنما الله هو الذي يُوجبُ على نفسه رحمة منه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم]، هذا حَقٌّ أحقه الله على نفسه- سبحانه وتعالى- تفضلًا وإحسانًا منه.

وقول رَسُول الله ﷺ: «**حَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢).

وقوله: «وَيحَ مَن لم يُفلح»:

«ويحَ» كلمة تألُّم وتوجع، يتوجع على مَن ضلَّ من الأمة الإسلامية، كيف انحرفوا عن الصراط المستقيم. «مَن لم يُفلح» أي: مَن لم يفز بمتابعة

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٢، ١٨٣) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٤٩/ ٣٠).

الحق، والالتزام بالكتاب والسنة، والابتعاد عن الباطل، قاله الفوزان[١].

وقوله: «فكُلّ مَن شاء هُداهُ يَهتدي»:

الهداية نوعان، كما سبق بيانه[٢]: هداية دلالة وإرشاد، وهداية توفيق.

والمقصودُ هنا هداية التوفيق؛ لأنَّ هدايةَ الدلالة والإرشاد هي إرشادُ الخلق إلى الحق واتباع الصراط المستقيم، وهي وظيفةُ الأنبياء والرسل والمسلمين مِن بعدهم.

أما هداية التوفيق: فهي أن يعمل العبدُ بما عَلم، وهذه ليست لأحَدٍ من البشر، وإنما هي بيد الله، يَهدي مَن يشاء، ويُضل مَن يشاء، بمقتضى حكمته، فهو سبحانه الذي يعلم مَن يستحق الهداية ومَن يستحق الغواية.

قال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

فإذا علم الله تعالى من العبد الصدقَ في طلب الهداية يَسَّر له طريق الهداية، ويسر له الأسباب التي يُحقق بها الهداية؛ من انشراح الصدر لأوامره، والإقبال على الطاعة، والبعد عن المعاصي، ويُوفقه لصحبةٍ صالحة تُعين على الخير.

قال جَلَّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ

(١) شرح العقيدة السفارينية (٤٣١).

(٢) راجع شرح البيت الرابع.

﴿٧﴾ [الليل].

وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات].

وقوله: «وإن يرد ضلال عبد يعتدي»:

أي: وكذلك إضلاله للعبد، إذا علم الله تعالى من العبد أنه لا يُريد الهداية؛ سبَّب له أسبابَ الإضلال، وصرَفَ قلبه عن الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل].

وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥].

والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٠- والرزقُ ما ينفعُ من حلالِ أو ضدِّه فحُلْ عن المُحالِ
٧١- لأنهُ رازقُ كُلِّ الخَلْقِ وليسَ مخلوقٌ بغير رزقِ
٧٢- ومن يَمُتْ بقتلهِ من البَشرِ أو غيره فبالقَضاءِ والقَدَرِ
٧٣- ولم يَفُتْ منْ رزقهِ ولا الأجَلِ شيءٌ فدَعْ أهلَ الضَّلالِ والخَطَلِ

الشرح

الرزق: سبق تعريفه، هو: عطاء من الله، فهو الرزاق الذي يرزق البشر وجميع الخلق، يرزق النمل في جحورهم، والحوت في البحر، والطير في الهواء، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦﴾ [هود].

فإذا أيقن العبد أن الرزق مكتوب- وأن الله تعالى تكفل بأرزاق الخلق جميعًا، وليس مخلوقٌ بغير رزق كما قال صاحب النظم- ما سعى في طلب الرزق من الحرام.

ولذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرزق ما ينفع من حلالٍ أو ضده..»:

فقد يكون الرزق من حلال، وقد يكون العبد حصله من طريق غير مشروع فيكون حرامًا؛ كأموال الربا، والرشوة، والسرقة، والغش في البيع، وأكل أموال الناس بالباطل- وله صور كثيرة- إلى غير ذلك من أبواب الرزق الحرام.

وقوله: «فحُلْ عن المحال»:

أي: زُل عن المحال أي: الخطأ والحرام والباطل، فلا يبقى أحد في

ملك الله تعالى بغير رزق، فهذا من المحال؛ لأن الله سبحانه أقسم على ذلك، قال جل ذكره: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ أكد ما أخبر به من البعث، وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ ثم أكده بقوله: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وخص النطق من بين سائر الحواس؛ لأن ما سواه من الحواسّ يدخله التشبيه، كالذي يُرى في المرآة، واستحالة الذوق عند غلبه الصفراء ونحوها، والدويّ والطنين في الأذن، والنطق سالم من ذلك.

وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره[(١)]. انتهى.

فقمع النفس عن الحرام يكون بالخوف من الله، والرضى بالرزق- وإن كان قليلًا- يكون باليقين على موعود الله فتأمل.

فائدة:

الرزق يشمل كل عطاء من الله، فيشمل الرزق الدنيوي، والرزق الديني، وكل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ- وسيأتي الحديث قريبًا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٤٤، ٤٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ أما الرزق ففُسِر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة، ولا ريب أن المطر رحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة، فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو[1].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي[2].

وقوله:

ومن يمُت بقتله من البشر أو غيره فبالقضاء والقدر

القضاء لغة: الحُكم... والجمع: الأقضية، والقضية مثله، والجمع القضايا... وقضى: أي حكم، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣][3].

القدر لغة: قَدْرُ الشيء: مبلغُهُ، وقَدَرُ الله وقدرُهُ بمعنًى، وهو في الأصل مصدر، قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤] أي ما عظموا الله حق تعظيمه[4].

وشرعًا: قال ابن سيده: القَدْرُ، والقَدَرُ: القضاء، والحكم، وهو ما يقدره الله

---

(١) بدائع التفسير (٤/ ٢٣٤).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٠٩).
(٣) الصحاح للجوهري (ص: ٨٦٧).
(٤) الصحاح (ص: ٨٤١) مادة (قدر).

عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ أي الحُكم كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾(١).

قال الكرماني رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد بالقدر حكم الله (٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وقالوا- أي العلماء- القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفصيله (٣). انتهى.

والمعنى: أن من يموت من البشر بقتل (أو بغيره) احتمال أن تكون عائدة على البشر فيكون المعنى: أن من مات من البشر أو غيره من سائر الحيوانات، واحتمال أن تكون عائدة على القتل، فيكون المعنى أن من مات من البشر بقتل أو بغير قتل أي بأي سبب آخر، بمرض أو نحوه، أو من غير سبب كموت الفجأة فموته بقضاء الله وقدره.

قوله: «ولم يَفُت من رزقه ولا الأَجَل شيءٌ»:

أي لم يفت المقتول- وغيره شيء- من رزقه الذي كتبه الله تعالى له في الأزل، وأيضًا لم يمت قبل أجله؛ لأن بعض الناس يعتقد أن الذي مات مقتولًا أو غريقًا أو في حادث تصادم أو ما أشبه ذلك أنه مات من غير أن يستوفي أجله، وتراهم في العزاء يقولون: (البقية في حياتك) وهذا خطأ في الاعتقاد فليس للميت بقية حتى تجعلها لأقاربه، بل مات عندما استوفى

(١) اللسان (٧/ ٢٦٢).
(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٦).
(٣) المصدر السابق.

أجله ورزقه.

فالرزق والأجل والعمل والشقاء والسعادة كل شيء مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

وفي حديث عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ»(٢).

وفي الصحيحين من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصَّادِقُ المصدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).
(٢) أخرجه الطيالسي (٥٧٧)، والترمذي (٣٣١٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٤٧٠٠).

يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا»(٢).

درء التعارض بين الإيمان بأن الأرزاق والآجال مقدرة ومكتوبة، وبين الأخذ بالأسباب:

يجب أن نؤمن بأن الله تعالى خلق كل شيء وقدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما سبق بيانه، ونؤمن أيضًا بأن الله تعالى خلق الأسباب وأمر أن نأخذ بها لصلاح الدين والدنيا ولحصول المقصود فهو سبحانه الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل وشرع الشرائع وأمر العباد بفعل الطاعات وترك المنكرات ورتب الجزاء على فعل العبد سواء أكان طاعة أو معصية، فلا يجوز أن يُحتج بالقدر على ترك العمل بل لابد أن يأخذ بأسباب النجاة، وكذا أمور الدنيا إن لم يأخذ العبد بأسباب البقاء هلك، وهذه هي إرادة الله، أراد أن يربط الأسباب بالمسببات فاحذر ضلال الجبرية ولا تترك الأسباب بالكلية، مع اليقين الجازم أن الأسباب لا تنفع ولا تضر بذاتها، وإنما الذي ينفع ويكشف الضر هو الله،

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) صحيح لشواهده: رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان (٣٢٣٩)، والحاكم (٢/ ٦)، وصححه الألباني (٢٨٦٦).

والأدلة على ذلك كثيرة، قال جل ذكره: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ...﴾ الآية أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا، وأنه لا ينافي التوكل على الله جل وعلا، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة أن نأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا، لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما شاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو من شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف.

ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معان مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادًا من حرّها في الوقت الذي هي فيه كائنة بردًا وسلامًا على إبراهيم، فدل ذلك على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة

خالق السموات والأرض[(١)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومما ينبغي أن يعلم: ما قاله طائفة من العلماء، قالوا: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

ومَن تفقّه هذه المسألة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلًا منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعةً فيكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا بل الفقيه كل الفقه الذي يردُّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن لإنسان أن يعيش إلا بذلك فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رُشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وِزان القدر المخوف في الدنيا، وما يضاده سواء، فربُّ الدارين واحد،

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٩٧، ٣٩٨)، وانظر: تفسير القرطبي (١١/ ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٩).

وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا، فهذه مسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان[١].

تأويل حديث: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ...»:

أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعت رسُولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ[٢] لَهُ فِي أَثَرِهِ[٣]، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٤].

أشكل على البعض الجمع بين النصوص الدالة على أن الآجال والأرزاق مقدرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ، وبين هذا الحديث الذي ظاهره يدل على أن الزيادة في العمر والرزق جائزة بأسبابها، وللعلماء في ذلك أقوال، نذكرها ههنا.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وبسط الرزق توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه، وأما التأخير في الأجل: ففيه سؤال مشهور، وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ وأجاب العلماء بأجوبة، الصحيح منها:

---

(١) الداء والدواء (ص: ٢٦، ٢٧).
(٢) ينسأ: مهموز، أي: يؤخر- مسلم بشرح النووي (٨/ ٣٥٦).
(٣) أثره: الأجل- المصدر السابق.
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧).

أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

الثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك، وهو من معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره، ولا زيادة بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة، وهو مراد الحديث.

الثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت، حكاه القاضي، وهو ضعيف أو باطل، والله أعلم[1].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق أقوالًا للعلماء كالتي ذكرها النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وتوجيهه أن المعاملات على الظواهر والمعلوم الباطن خفي لا يعلق عليه الحكم فذلك الظاهر الذي أطلع عليه الملك هو الذي يدخله الزيادة والنقص والمحو والإثبات، والحكمة فيه إبلاغ ذلك إلى المكلف ليعلم فضل البر وشؤم القطيعة[2].

---

(١) مسلم بشرح النووي (٨/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) فتح الباري (٤/ ٣٥٤).

وقوله: «فدع أهل الضلال والخطل»:

الخَطَلُ لغة: المنطق الفاسد المضطرب، وقد خَطِلَ في كلامه بالكسر خطلًا وأَخْطَلَ: أي أفحش[(١)].

أي: اترك أقوال أهل الضلال من المعتزلة والقدرية والجبرية وغيرهم؛ لأن هؤلاء أصحاب بدعة ومنطق فاسد مضطرب فمن نظر في مقالات هؤلاء وجد فيها الاضطراب والتناقض الذي لا يوافق العقل ولا الشرع.

(١) الصحاح (ص: ٣٠٥).

الباب الثالث
في الأحكام

قال صاحبُ النظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧٤- وواجــبٌ علــى العبــادِ طُــرَّا أن يَعْبُــدوهُ طَاعَــةً وبِــرَّا

٧٥- ويفْعَلُوا الفِعْلَ الـذي بـه أَمَـرَ حَتمًـا ويترُكُـوا الـذي عَنْـهُ زَجَـر

الشرح

قوله: «وواجب»: الواجب عند عُلماء الأصول: إن فعله العبد امتثالًا لأمر الله يثاب عليه وإن تركه يأثم.

وقيل: يُذَم تاركه؛ لأنَّ الله تعالى قد يعفو عن العقاب، ولا يقدح ذلك في وجوب الفعل [(١)].

«وطُرًّا»: (طُرَّ): لغة: الرجل إذا طُرِد، وقولُهم جاءوا طُرًّا أي: جميعًا [(٢)].

قوله: «أن يعبدوه طاعة وبرًّا»: معنى العبادة: لغة: أصل العبودية الخضوع والتذلل... وتعبد الله العبد بالطاعة أي استعبده، والعبادة: الطاعة والخضوع، ومنه طريق مُعبد إذا كان مُذللًا بكثرة الوطء[(٣)].

وشرعًا: كما عرّفها شيخ الإسلام: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة [(٤)]. انتهى.

أي: يجب على جميع العباد أن يعبدوا الله تعالى ولا يشركوا به شيئًا،

---

(١) انظر: المحصول للرازي (١/ ١٥)، والمستصفى للغزالي (١/ ١٢٨) وغيرهما.

(٢) اللسان (٥/ ٥٨٢).

(٣) لسان العرب (٦/ ٤٨، ٥٠) مادة (عبد).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

فالعبادة هي الغاية التي من أجلها خلقنا وبها أمرنا، ومن أجلها أنزل الله الكتب وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات] قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء].

وقال ﷺ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»(١).

وكل ذلك يفعله العبد طاعة لله وامتثالًا لأمره، (وبرًّا): أي بالإحسان الناشئ عن المحبة؛ لأن العبادة لها ركنان: كمال الحب، وكمال الذل، ولا تكتمل العبادة بغيرهما.

أنواع العبادة:

العبادة كثيرة جدًّا، يصعب حصرها نذكر منها على سبيل المثال بعض العبوديات:

فمن عبادة الجوارح: كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقة وأداء الأمانة وبر الوالدين وطاعة الزوج، وصلة الأرحام إلى غير ذلك.

ومن عبادة القلب: كحب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، والإخلاص، والصبر والحمد، والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء والخوف، وغيرها.

ومن عبادة اللسان: الذكر وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠/ ٤٨).

المنكـر، والكلمـة الطيبـة، ونصـيحة المسـلمين وكـف اللسـان عـن الغيبـة والنميمة، وفحش القول، وغيرها.

أقسام العبادة:

اعلـم أن العبـادة كمـا في القـرآن قسـمان، عبوديـة اضـطرار، وعبوديـة اختيار.

أولًا: عبودية الاضطرار: وهـذه العبوديـة شـاملة لجميـع الخلـق، العـالم العلوي والعالم السفلي.

قـال جـل ذكـره: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم].

«أي: مملوكًا له، يأوي إليه بالعبودية والذل»[(١)]، «أي: ذليلًا منقادًا، غير متعاص ولا ممتنع: الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع مماليك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء»[(٢)].

ثانيًا: عبودية الاختيار: وهي التي جعل الله للعبد فيها مشيئة واختيار، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، وكل ذلك بعد مشيئة الله عز وجل، وقد تقرر هذا الأصل عند الرد على القدرية النفاة والجبرية.

وهـذا النـوع مـن العبوديـة هـو الـذي يرتـب عليـه الجـزاء، وهـو الـذي يُمحص به العباد، فإذا علم العبد أن العبادة هي الغاية التي من أجلها خلق، جاء الاختبار بالتكاليف ليبتليهم أيهم أحسن عملًا، وليجزيهم بأعمالهم،

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٥/ ٩٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٥٠١).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك].

وقال جل ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورات بأن حكمة خلقه للخلق هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا يفسر قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن(١).

حاجة العبد إلى العبادة:

اعلم أن العبد فقير إلى الله، يحتاج إلى أن يعبده ولا يشرك به شيئًا؛ لأن الإنسان حقيقته مركبة من جسد وروح، والجسد يستقيم بالطعام والشراب، وهو محتاج إليه وإلا هلك، وكذا الروح لا صلاح لها إلا بعبادة ربها، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وإن حصل لها بعض اللذات أو المتاع فقليل ثم يزول إما بالموت أو بتغير الأحوال، مع هذا هي كادحة إلى ربها ولابد لها من لقائه، ولا سعادة بلقائه إلا إذا حققت العبودية قبل اللقاء.

فالعبد بغير عبادة ميت، وإن كان حيًّا بالجسد، والعبادة تجعله يمشي بين الناس بنور البصيرة والطمأنينة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. أضواء البيان (٧/ ٤٤٦).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي في الضلالة هالكًا حائرًا فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رُسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به، والنور: هو القرآن وقيل: الإسلام، والكل صحيح: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه[1].

وقوله:

ويفْعَلُوا الفِعْلَ الذي به أَمَرَ حَتمًا ويترُكُوا الذي عَنْهُ زَجَرَ

الحَتْم في اللغة: اللازم الواجب الذي لا بد من فعله[2].

يعني: يجب على العباد أن يفعلوا الطاعة الذي أُمر بها على سبيل الإلزام والوجوب، وقد يكون الأمر على سبيل الاستحباب وهذا التفريق محله كتب الأصول والفقه، يُعرف بالأدلة التي بها يفرق بين الواجب والمستحب.

ويتركوا الشيء الذي عنه سبحانه وتعالى «زجر» أي: نهى الله عنه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٤).

(٢) النهاية (ص: ١٨٦).

فصل: في الكلام عن القضاء والقدر

٧٦- وكــلُّ مــا قــدّرَ أو قضــاهُ فواقــعٌ حَتمًــا كمــا قَضــاهُ

٧٧- وليس واجبًا على العبد الرِّضا بكُــلِّ مَقْضــيٍّ ولكــن بالقضــا

٧٨- لأنَّــه مــن فعْلــه تعــالى وذاك مــن فِعْــل الــذي تقَــالى

الشرح

سبق أن ذكرنا الأدلة من الكتاب والسنة على أن كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ، وأن الله سبحانه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وبناء على هذا فإن كل ما قدره الله تعالى أو قضاه واقع (حتمًا) أي: لازمًا كما قضاه، قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وقال رَسولُ الله ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإيمان بالقدر على درجتين:

أحدهما: الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجاده، ومن هو منهم من أهل الجنة،

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٥٠٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن هو منهم من أهل النار، وأعدَّ لهم الثواب والعقاب جزاءً لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاهُ وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

الدرجة الثانية: أن الله تعالى خلق أفعال عباده كلها من الكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، وشاءها منهم، فهذه الدرجة يثبتها أهل السنة والجماعة، وينكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية ونفاها غُلاتهم كمعبد الجهنيِّ، الذي سُئل ابن عمر عن مقالته، وكعمرو بن عبيد وغيره(١).

وقوله: «وليس واجبًا على العبد الرضا بكل مقضي...»:

وليس واجبًا على العبد المكلف الرضا، وهو سكون القلب وطمأنينته «بكل مقضي» وفيه تفصيل:

لأنه إما أن يكون مقضيًّا دينيًّا شرعيًّا، فالواجب على العبد ألا يختار في هذا النوع غير ما اختاره الله له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فاختيار العبد خلاف ذلك منافٍ لإيمانه ورضاه بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا.

وإما أن يكون كونيًّا قدريًّا: كالمصائب التي يبتلي بها العبد، فهذا لا

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص: ٦٥، ٦٦).

يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويكشفها وليس في ذلك منازعة لربوبيته، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر، قاله ابن مانع.

وقوله: «ولكن بالقضا لأنه من فعله تعالى»:

أي: يجب الرضا بالقضاء، «لأنه من فعله تعالى» فبين سبب وجوب الرضا بالقضاء أنه من فعله تعالى، وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل وحكمة، فالمخذول الذي يعتقد أن الخير في غير ما قضاه الله، وذلك لأن الله هو الحكيم.

قال الحليمي رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الحكيم: إنه الذي لا يقولُ ولا يفعلُ إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك؛ لأن أفعاله سديدة وصنعَه متقنٌ ولا يظهر الفعل المتقن السديدُ إلا من حكيم[(١)].

وقوله: «وذاكَ من فعلِ الذي تقالى»:

القِلَى لغة: البُغض، يُقال: قلاه يقليه قِلًى وقَلًى، إذا أبغضه[(٢)].

أي: وذلك المقضي من فعل الشخص الذي أتى بما يبغضه الله، وفعله الأشياء المبغوضة لله، لا يجوز الرضا بها إجماعًا، والرضا بالقدر الجاري على العبد باختياره وفعله كأنواع الظلم والفسوق مما يكرهه الله ويسخطه وينهي عنه ويعاقب عليه، لا يجوز الرضى به، ولله سبحانه في ظهور

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٥٥).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (ص: ٧٧٠).

المعاصي وترتب آثارها من الحكم ما يشهده أولو الأبصار.

وأما الرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد: كالفقر والمرض فمستحب، ومن أجل الأمور وأشرف أنواع العبودية، ولم يطالب به العموم لعجزهم ومشقتهم عليه.

وقيل: يجب، فتستوي النعمة والبلية عنده في الرضا بها، وهو من مقامات الصديقين، واختار شيخ الإسلام استحبابه، وقال: لم يجئ الأمر به كما جاء بالصبر وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

والرضا بالقدر الكوني الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه: من الصحة والغنى ونحو ذلك فأمر لازم بمقتضى الطبيعة وليس الرضا به عبودية، وعلى العبد أن يوافق ربه، فيبغض الذنوب ويمقتها؛ لأن الله يبغضها، ويرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجله...قاله ابن مانع.

فصل: في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها

قال صاحب النظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٧٩- ويفسُقُ المذنبُ بالكبيرة ... كذا إذا أَصَرَّ بالصغيرة

٨٠- لا يخرجُ المرءُ من الإيمان ... بموبقات الذنب والعصيان

٨١- وواجبٌ عليه أن يتُوبا ... من كُل ما جَرّ عليه حُوبَا

٨٢- ويقبلُ المولَى بمحض الفضلِ ... من غير عبدٍ كافرٍ منفصلِ

٨٣- ما لم يتُب من كُفرِه بضدِّهِ ... فيرتجعْ عن شِرْكِهِ وصدِّه

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الأبيات جملة من الأحكام، نبينها ههنا بشيء من التفصيل بأدلة الكتاب والسنة وأقوال أئمة العلم.

قوله: «ويفسُق المذنبُ بالكبيرة...»:

الفسق لغة: الفاء والسين والقاف كلمة واحدة، وهي الفِسقُ، وهو الخروج عن الطاعة[١].

قال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض بيانه وجوه الفسق:

وكله راجع في اللغة إلى الخروج، من قولهم: فسقت الرطبة عن القشر[٢].

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٩١).
(٢) الكليات (ص: ٥٨٤).

واصطلاحًا: الخروج عن الطاعة بارتكاب الذنب وإن قل، ولكن تعورف فيما إذا كان كبيرة، وأكثر ما يقال عن الفاسق لمن التزم حكم الشرع، وأخل بأحكامه، قاله المناوي(١).

والفسق في القرآن على وجوه:

١- **بمعنى الكفر**: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف]. وقال جل ذكره في شأن قوم فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف] ومن المعلوم أن قوم فرعون كانوا كفارًا.

٢- **الكذب**: قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦].

والآية نزلت في رجل مسلم، كذا أورد الإمام أحمد في مسنده من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي(٢).

وقال: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور].

٣- **الإثم**: نحو قوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٤- **السيئات**: كقوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٥٥٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٩)، والبخاري في «التاريخ الأوسط» (١/ ٩١)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩٥)، وهو حسن لشواهده.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى قوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ النهي عن معصية الله في إصابة الصيد، وفعل ما نهى الله المُحْرِم عن فعله في حال إحرامه[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ**...»[(٢)].

فقد يكون الفسوق كفرًا، وقد يكون إثمًا، فانتبه.

فقوله:

ويفسُق المذنب بالكبيرة كذا إذا أصَر بالصّغيرة

أي: أن المذنب المسلم يكون فاسقًا -أي يأثم- بارتكاب الكبائر من الذنوب، وأيضًا إذا أصر على الصغيرة يفسق، خلافًا للمرجئة فعندهم مرتكب الكبائر كامل الإيمان، وقد بسطت عقيدتهم والرد على شبههم في موضع آخر[(٣)].

مطلب: ما هو ضابط الكبيرة؟

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النساء].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٣٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧٦) ومسلم (٦٤).
(٣) راجع – إن شئت- كتابي «عقائد الفرق الضالة» وكتابي «الدرر البهية».
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[(١)].

اختلف العلماء في ضابط الكبيرة اختلافًا كثيرًا.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر فقد اختلفوا في ضبطها اختلافًا كثيرًا منتشرًا جدًّا.

فروي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: الْكَبَائِرُ كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللهُ تعالى بِنَارٍ، أَوْ غَضبٍ، أَوْ لَعْنَةٍ، أَوْ عَذَابٍ. ونحوه عن الحسن البصري.

وقال آخرون: هي ما أوعد الله عليها بنار أو حدٍّ في الدنيا.

وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في «البسيط»: والضابط الشامل المعنوي في ضبط الكبيرة، أن كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف وحذارِ ندمٍ، كالمتهاون بارتكابها، والمتجرئ عليها اعتيادًا، فما أشعرَ بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة، وما يحمل على فلتات النفس أو اللسان وفترة مراقبة التقوى، ولا ينفك عن تندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية، فهذا لا يمنع العدالة، وليس هو بكبيرة.

وقال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ **في «فتاويه الكبيرة»**: كل ذنب كبر وعظم عظمًا يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة ووصف بكونه عظيمًا على الإطلاق، قال: فهذا حد الكبيرة، ثم لها أمارات منها: إيجاب الحد، ومنها: الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب والسنة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠).

ومنها: وصف فاعلها بالفسق نصًّا، ومنها: اللعن، كلعن الله سبحانه وتعالى مَنْ غيَّر منار الأرض.

وقال الشيخ الإمام أبو محمد العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «القواعد»: إذا أردت معرفة الفرق بين الصغيرة والكبيرة، فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر، وإن ساوت أدنى مفاسد الكبائر أو ربت عليها فهي كبائر... إلى أن قال: وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأنها كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فعلى هذا كل ذنب علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به الوعيد أو الحد أو اللعن أو أكثر من مفسدته فهو كبيرة ثم قال: والأولى أن تضبط الكبيرة بما يشعر بتهاون مرتكبها في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها، والله أعلم[(١)].

قال الإمام أبو الحسن الواحدي المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره: الصحيح أن حد الكبيرة غير معروف، بل ورد الشرع بوصف أنواع من المعاصي بأنها كبائر، وأنواع بأنها صغائر، وأنواع لم توصف، وهي مشتملة على صغائر وكبائر، والحكمة في عدم بيانها أن يكون العبد ممتنعًا من جميعها مخافة أن يكون من الكبائر، قالوا: وهذا شبيه بإخفاء ليلة القدر، وساعة الجمعة، وساعة إجابة الدعاء من الليل، واسم الله الأعظم، ونحو ذلك مما أُخفي، والله أعلم[(٢)].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) المصدر السابق.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: فكل ذنب عظّم الشرع التوعد عليه بالعقاب وشدده، أو عظّم ضرره في الوجود كما ذكرنا فهو كبيرة، وما عداه صغيرة، فهذا يربط لك هذا الباب ويضبطه، والله أعلم [(١)].

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر جملة من أقوال أهل العلم لا تخرج على ما ذكرنا:

والصحيح - إن شاء الله تعالى - أن كل ذنب أطلق الشرع عليه أنه كبير أو عظيم، أو أخبر بشدة العقاب عليه، أو علق عليه حدًّا، أو شدد النَّكير عليه وغلّظه، وشهد بذلك كتابُ الله أو سنةٌ أو إجماعٌ فهو كبيرة[(٢)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء رحمهم الله: والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، وروي عن عمر وابن عباس وغيرهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

معناه: أن الكبيرة تُمحي بالاستغفار، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار[(٣)].

وقوله:

لا يخرجُ المرء من الإيمان   بموبقات الذنبِ والعصيانِ

يخبر صاحب النظم في هذا البيت أن المؤمن لا يخرج من دائرة الإيمان بارتكاب الموبقات وهي الكبائر، ردًّا على الخوارج والمعتزلة الذين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٦٥).
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢٨٤).
(٣) شرح النووي على مسلم (١/ ٣٦٤).

يخرجون مرتكب الكبيرة من الإيمان.

والفرق بين الخوارج والمعتزلة في هذه المسألة أن الخوارج يعتقدون أن من ارتكب كبيرة خرج من دائرة الإيمان ودخل في دائرة الكفر، فهم يكفرون مرتكب الكبيرة.

أما المعتزلة فيقولون: مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين لا هو مسلم ولا كافر، وعندهم يخلد في النار إن مات ولم يتب، وكلاهما مبتدع ضال خارج عن الصراط المستقيم الذي جاء به رسول الله ﷺ.

وقد بسطت هذه المسألة أكثر من مرة، وذكرت أدلة كل فريق، وكذا الشبهات التي أوردوها، والرد عليها، فلله الحمد والمنّة[(١)].

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة مسلم ولكنه فاسق مذنب إن مات بغير توبة فهو في المشيئة إن شاء الله عذبه ثم دخل الجنة، وإن شاء غفر له، وسيأتي ذكر الأدلة على ذلك قريبًا بإذن الله[(٢)].

وقوله:

وواجب عليه أن يتوبا من كل ما جرَّ عليه حُوبا

الحَوْبُ لغة: الإثم، والحوبة: حاجة تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم، والحوْباء، النفس المرتكبة للحوب، وهي النفس الأمارة[(٣)].

أي: أن التوبة واجبة على كل الناس، فيجب على مرتكب المعاصي أن

---

(١) راجع – إن شئت– كتابي: «عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرقة الناجية»، وكذا كتابي: «الدرر البهية».

(٢) عند شرح البيت الرابع والعشرين بعد المائة.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ١٤٨).

يتوب من كل ما حصل له به الإثم، وتحقيق ذلك بفعل الطاعات وترك المنكرات قبل أن يأتيه الموت.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء].

وقال جل ذكره: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم].

قوله:

ويقبلُ المولى بمحض الفضلِ ... من غير عبدٍ كافرٍ منفصلِ

اعلم أن قبول الله تعالى توبة العبد من باب الإحسان، فليس لأحد من الخلق حق على الله.

فالعبد إن لم يُوفَّق إلى التوبة بفضل الله لن يستطيع أبدًا ترك المعاصي وذلك راجع إلى مشيئته ومقتضى حكمته وسابق علمه بالعبد الذي يستحق التوبة ممن لا يستحق، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ﴾ [التوبة: ١١٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة، فإن تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا قبولًا وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته[1].

وقوله:

.... من غير عبدٍ كافر مُنفصل

ما لم يتُب من كُفره بضدِّه فيرتجعْ عن شركه وصدِّه

أي: غير كافر بالله ورسوله منفصل عن الدين إما بردة أو كفر أصلي، فلا تقبل توبته من الذنوب، ما لم يتب من كفره فيشهد الشهادتين، ويتصف من بعد رجوعه عن الكفر بضده، أي الإسلام فإن كان مرتدًّا بإنكار ما علم من الدين بالضرورة فيرجع عن إنكار ذلك، ويقر ويذعن، وإن كان شركًا فلا يقبل منه، ما لم يرجع عن شركه الذي كان متصفًا به، «وصده» أي: إعراضه عن الدين، وانقياده للشريعة، قاله ابن قاسم.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

ودليل قبول توبة جميع الناس بما فيهم الكافر: قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال].

وقال جل وعلا: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر].

وسبب نزول هذه الآية كما رواه البخاري، من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ [الفرقان: ٦٨] وَنَزَلَتْ ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر: ٥٣] [(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه... ثم ساق حديث ابن عباس المتقدم وغيره من الأدلة[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢، ٥٣).

مطلب: ما هي شروط التوبة؟

معنى التوبة: الرجوع من الذنب، قاله الجوهري[١].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

قال الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأحاديث في شأن التوبة والحث عليها وفي تكفيرها للذنوب كثيرة جدًّا لها مصنفات مستقلة، وحيث ذكرت من الآيات والأحاديث فإنما المراد بها التوبة النصوح[٢] وهي التي اجتمع فيها ثلاثة شروط.

الأول: الإقلاع عن الذنب.

والثاني: الندم على فعله.

والثالث: العزم على ألَّا يعود فيه.

فإن كان في ذلك ذنب حق آدمي لزم استحلاله منه إن أمكن، للحديث الذي قدمنا: «**مَن كَانَ عِنْدَه لأخِيهِ مَظْلمةٌ فَلْيَتَحَلَّل مِنهُ اليَوم، فإنَّه ليس ثَمَّ دينارٌ وَلَا دِرْهَمٌ**»[٣][٤].

هل تصح التوبة من ذنب دون آخر؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن أحمد، ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها؛ كالنووي وغيره

---

(١) الصحاح (ص: ١٣١).

(٢) ذكر القرطبي أن العلماء اختلفوا في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولًا- انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٩) وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٤) معارج القبول (٢/ ١٠٤٤).

والمسألة مشكلة، ولها غَوْر، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم... وساق الخلاف بين أهل العلم ثم قال:

والذي عندي في هذه المسألة، أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه فتصح.

كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلًا فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إن تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس أو تاب من تناول الحشيش، وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس، فهذا لا تصح توبته[1].

هل يشترط في صحة التوبة أن لا يعود إلى الذنب أبدًا أم ليس ذلك بشرط؟

للعلماء في هذه المسألة قولان:

الأول: يشترط في صحة التوبة عدم معاودة الذنب، فإذا بطلت توبته، عاد إليه إثم الذنب الأول.

الثاني: لا يشترط عدم العودة إلى الذنب، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العود إليه، فإذا ضعف عزمه وعاد إلى الذنب الذي قد تاب منه، لا تبطل التوبة التي مضت.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط وإنما تتوقف على الإقلاع عن الذنب والندم عليه، والعزم الجازم على ترك المعاودة.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران] والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة: فشرط في صحة كمالها ونفعها، لا شرط في صحة ما مضى.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا لله مبغوضًا له من وجهين أيضًا، بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر[(١)]، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أصله كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف]، أثبت لهم الإيمان، مع مقارنة الشرك[(٢)]، فإن كان هذا الشرك تكذيبًا لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله.

---

(١) يشير إلى الكفر الأصغر الذي لا يُخرج صاحبه من الإسلام كما في قوله ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» وحكمه كحكم الكفر الأصغر.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٥٣-٢٥٩) باختصار، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٠-١٩١)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٨١).

قال صاحب النظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٨٤- وَمَن يَمُتْ ولم يَتُب من الخَطَا   فــأمره مُفَـــوّضٌ لـــذِي العَطَـــا

٨٥- فَإِن يَشَأ يَعفُ وَإن شَاءَ انْتقَمَ   وَإِن يَشَـــأ أَعطَـــى وَأَجـــزَل الـــنِّعَمْ

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الأبيات أصلًا من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو أن من مات بغير توبة فهو في المشيئة إن شاء الله عذبه ثم دخل الجنة وإن شاء غفر له، ولم يخرج من دائرة الإسلام بكل ذنب- ما لم يستحل الذنب- وأدلة ذلك كثيرة نذكر منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويعتقد أهل السنة: أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة، صغائر وكبائر، فإنه لا يكفر بها، وإن خرج عن الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص فإن أمره إلى الله عز وجل: إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة، سالمًا غانمًا غير مبتلي بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه واكتسبه ثم استصحبه- إلى يوم القيامة- من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار[1]. انتهى كلام الشيخ.

---

(١) عقيد السلف وأصحاب الحديث (ص: ٢٧٦).

هذا الإمام – أبو عثمان الصابوني – من أئمة السلف وقد لقبه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بشيخ الإسلام(١) وإليك نقل إجماع أهل السنة في هذه المسألة.

عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**»(٢).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا شرحه للحديث:

وهذا صريح بأن ارتكاب الكبائر ليس كفرًا لأن الكفر لا يغفر لمن مات عليه بالنص والإجماع، وهو حُجة لأهل السنة على المكفرة بالذنوب وهم الخوارج وأهل البدع(٣).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لحديث أبي هُرَيْرَة أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٤):

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٩٢) ومسلم (١٧٠٩) وغيرهما.
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ١٤٢).
(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

وظاهر هذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة وغيرهم ممن يخرجون عن الإيمان بارتكاب الكبائر، غير أن أهل السنة يعارضوهم بظواهر أخرى أولى منها؛ كقوله ﷺ في حديث أبي ذر أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق(١)، وحديث عبادة بن الصامت... وساق الحديث المتقدم ثم قال ويعضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦](٢) انتهى.

ومن أظهر الأدلة التي يحتج بها على الخوارج والمعتزلة- الذين يقولون إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، وكذا المرجئة الذين يقولون لا يدخل مسلم النار، وإن مات على أكبر الكبائر؛ لأنه عندهم هو كامل الإيمان- حديث أَنَسِ بن مَالِك أن النبي ﷺ قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الخَيْرِ ذَرَّةً**»(٣).

وكذا حديث الشفاعة الطويل الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٧) ومسلم (٩٤) وغيرهما.

(٢) المفهم لأبي العباس القرطبي (١/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (٣٢٤/ ١٩٣).

«... فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ..»[1].

فالحديث فيه رد على الخوارج والمعتزلة، وفيه رد على غلاة المرجئة الذين ينفون دخول أي مسلم النار مهما بلغت ذنوبه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣).

فصل

في ذكر مَن قيل بعدم قبول إسلامه من طوائف الملحدين

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٨٦- وقيلَ في (الدُّروزِ) وَ(الزَّنادِقَهْ) وسائِرِ (الطَّوائِفِ الْمُنافِقَهْ)

٨٧- وَكُلُّ (داعٍ لابتِداعٍ) يُقتَلُ كَمَن تَكَرَّر نَكثُهُ لا يُقبَلُ

٨٨- لأَنَّهُ لَم يُبْدِ مِن إِيْمانِهِ إِلَّا الَّذي أَذاعَ مِن لِسانِهِ

الشرح

وقوله: «وقيل»:

قال ابن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو المذهب فقهًا «في» طوائف «الدروز» من الحمزاوية أتباع حمزة اللباد المدعو عندهم بهادي المستجيبين، وهم القائلون بإلهية الحاكم العبيدي، ومثلهم البابية القائلون بإلهية الباب وغيره من طواغيتهم، وهم أربع فرق:

الأولى: البابية الخُلص: أي الذين اتبعوا الباب فقط، وهو محمد بن علي الشيرازي، ولد سنة ١٢٣٥هـ ألف ومائتين وخمس وثلاثين، وكان تلميذًا لأحد تلامذة أحمد الأحسائي، وهو كاظم الرشتي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة، وجمع بين اعتقاد الإمامية والأصول الفلسفية على نمط جديد...

الثانية: البابية الأزلية: القائلون بخلاف تلميذ الباب ليحيى الملقب: بصبح أزل، لقبه به الباب.

الثالثة: البابية البهائية: القائلون بإلهية البهاء الميرزا حسين المازندراني، وهو أخو ليحيى المتقدم، وقد نُفي إلى عكا كما نُفي أخوه إلى قبرص، مات سنة ١٣٠٩هـ ألف وثلاث مائة وتسع سنين.

الرابعة: البابية العباسية: القائلون بإلهية عباس بن البهاء الذي قبله.

وإنما ألحقت البابية بالدروز؛ لأن الحكم يدور مع علته، وكلاهما قد ارتد عن الإسلام، وتأله المخلوق المربوب دون الخالق رب العباد فحكمهم حكم الدروز.

«والزنادقة»: جمع زنديق، وهو الذي يُظهر الإسلام ويخفي الكفر.

«وسائر» أي: بقية «الطوائف» جمع طائفة، وهي القطعة أو الواحد فصاعدًا «المنافقة» من النفاق وهو اختلاف السر والعلانية، وكان مَن أظهر الإسلام وأبطن خلافه يسمى منافقًا، وأما اليوم فيسمى زنديقًا، «وكل داعٍ لـ» انتحال «ابتداع» مُكفّر «يقتل» لعدم قبول توبته ظاهرًا.

ذكر القاضي وأصحابه من علماء المذهب رواية عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تقبل توبة داعية إلى بدعة مضلة، والصحيح: أنها تقبل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن الله تعالى قد بيّن في كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج]، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم هو يدعوهم إلى التوبة[١].

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١١٢).

قال العلامة الشيخ منصور البهوتي في حاشية المنتهي: قال المجد: الصحيح أن كل بدعة كفَّرنا فيها الداعية، فإنا نفسق المقلد فيها، كمن يقول بخلق القرآن، أو بأن ألفاظنا به مخلوقة، أو أن علم الله به مخلوق، أو أن أسماء الله مخلوقة، أو أنه لا يُرى في الآخرة، أو يسب الصحابة تدينًا، أو أن الإيمان مجرد الاعتقاد، وما أشبه ذلك.

فمن كان عالمًا بشيء من هذه البدع يدعو إليها، ويناظر عليها فهو محكوم بكفره، نص أحمد على ذلك صريحًا في مواضع واختلف عنه في تكفير القدرية بنفي خلق المعاصي على روايتين، وله في الخوارج كلام يقتضي في تكفيرهم روايتين. نقل حرب: لا يجوز شهادة صاحب بدعة.

قلت: وإنما قيد نفي القدرية بالمعاصي جريًا على المشهور لدى الجمهور.

والصحيح: أن القدرية ينفون خلق أفعال العباد مطلقًا، بل غلّظ شيخ الإسلام ابن تيمية حفيد المجد من خص النفي بالمعاصي فقط [(١)]. انتهى.

وقوله: «كَمن تكرر نكثه لا يُقبلُ»:

أي: كَمن تكرر نقضه للإسلام، بأن تكررت ردته، صرح المؤلف أنه لا يُقبل منه الإسلام.

وللعلماء في مسألة قبول من تكرر ردته قولان:

أحدهما: لا تُقبل، وحجتهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

(١) انظر: شرح السفارينية لجمع من العلماء (ص: ٤٨٤-٤٨٦).

سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ [النساء] وهذا اختيار طائفة من الحنابلة.

الثاني: تقبل توبته، لعموم الأدلة الدالة على قبول توبة جميع العباد- كفار ومنافقين- قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] وقد سبق بيان سبب نزول الآية وأنها نزلت في كفار أرادوا الإسلام وخافوا ذنوبهم لكثرتها، وهذا اختيار شيخ الإسلام وجمع من العلماء لقبول التوبة؛ لأن التائب راجع عن الكفر.

وقوله:

لأنه لم يبدِ من إيمانه إلا الذي أذاع من لسانهِ

أي: لأنه لم يظهر من إيمانه الذي زعم أنه دخل به الإسلام إلا قول اللسان الذي كان يقوله قبل توبته مع أنه يعتقد الكفر في باطنه، قال كلمة الإسلام بلسانه ليحمي نفسه مما يؤاخذ به، وهذا هو المنافق نفاقًا عقديًّا، يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

ومع ذلك إن تاب وأصلح وأخلص التوبة قبلت توبته، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

وعَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: كُنَّا فِي حَلْقَةِ عَبْدِ اللهِ فَجَاءَ حُذَيْفَةُ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَ النِّفَاقُ عَلَى قَوْمٍ خَيْرٍ مِنْكُمْ»، قَالَ الأَسْوَدُ: سُبْحَانَ اللهِ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، فَتَبَسَّمَ عَبْدُ اللهِ، وَجَلَسَ حُذَيْفَةُ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ فَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ،

فَرَمَانِي بِالحَصَا، فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: «عَجِبْتُ مِنْ ضَحِكِهِ، وَقَدْ عَرَفَ مَا قُلْتُ، لَقَدْ أُنْزِلَ النِّفَاقُ عَلَى قَوْمٍ كَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ ثُمَّ تَابُوا، فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ»(١).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: قوله: «لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم» أي: ابتلوا به لأنهم كانوا من طبقة الصحابة فهم خير من طبقة التابعين لكن الله ابتلاهم فارتدوا ونافقوا فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعادت له الخيرية، فكأنّ حذيفة حذر الذين خاطبهم وأشار لهم أن لا يغتروا فإن القلوب تتقلب، فحذرهم من الخروج من الإيمان؛ لأن الأعمال بالخاتمة.

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ صحة توبة الزنديق وقبولها على ما عليه الجمهور، فإنها مستثناة من المنافقين من قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥](٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ **- في معرض شرحه للآية -**: استثناء ممن نافق، ومن شرط التائب من النفاق أن يصلح في قوله وفعله، ويعتصم بالله، أي: يجعله ملجأ ومعاذًا ويخلص دينه لله، كما نصت عليه الآية، وإلا فليس بتائب(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٠٢).

(٢) فتح الباري (٨/ ١١٦).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٤٢٣).

قال صاحب النظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٨٩- كمُلحدٍ وساحر وساحرة وهم على نياتهم في الآخرة

٩٠- قلتُ وإن دلت دلائلُ الهدى كما جرى للعيلبوني اهتدى

٩١- فإنه أذاع من أسرارهم ما كان فيه الهتكُ عن أستارهم

٩٢- وكان للدين القويم ناصرًا فصار منا باطنًا وظاهرًا

٩٣- فكل زنديق وكُل مارق وجاحد ومُلحد مُنافق

٩٤- إذا استبانَ نُصحُه للدين فإنه يُقبَل عن يقين

الشرح

قوله: «كملحد»: معنى الإلحاد لغة: الميل والعدول عن الشيء... وفي حديث دفن النبي ﷺ: «**أَلْحِدُوا لِي لَحْدًا**»(١). اللحد: الشَّق الذي يُعمل في جانب القبر لموضع الميت، لأنه قد أُميل عن وسط القبر إلى جانبه، يقال: لحدت وألحدت(٢).

قال الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول: ينافي الإيمان ويبطله، والثاني: يوهن عراهُ ولا يبطلُه، ومن هذا النحو قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:

---

(١) قال سعد بن أبي وقاص في مرضه الذي هلك فيه: «الحدوا لي لحدًا» مسلم (٩٦٦/ ٩٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث (ص: ٨٢٩).

١٨٠].

والإلحاد في أسمائه على وجهين:

أحدهما: أن يوصف بما لا يصح وصفه به.

والثاني: أن يتأوَّل أوصافه على ما لا يليق به، والتحد إلى كذا: مال إليه، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٧﴾ [الكهف]. أي: التجاء أو موضع التجاء[(١)].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج]:

«والمراد بالإلحاد في الآية: أن يميل ويحيد عن دين الله الذي شرعه، ويعمّ ذلك كل ميل وحَيْدة عن الدين، ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا الكفر بالله، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرّمه وترك شيء مما أوجبه، ومن أعظم ذلك: انتهاك حرمات الله...»[(٢)].

والمعنى: أن الملحد والساحر والساحرة يقتلوا، أما السحر ففيه تفصيل نذكره ههنا.

قوله: «وساحر وساحرة»: السحر في اللغة: كل ما لطف مأخذه ودق[(٣)].

والسحر، مصدر قولهم: سحره يسحره أي: خدعه، والسحر: هو إخراج الباطل في صورة الحق، ويقال: هو الخديعة.

---

(١) المفردات (ص: ٤٩٥).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٩٤).

(٣) القاموس المحيط (ص: ٣٦٥) مادة (س-ح-ر).

والسحر: عمل تقرب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، وأصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وسحره بكلامه، استماله برقته وحسن تركيبه[١].

وفي الاصطلاح: هو عقد ورقي وكلام يتكلم به أو يكتبه الساحر أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه، أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة، فمنه ما يقتل، وما يمرض، وما يأخذ الرجل من امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين اثنين، قاله ابن قدامة[٢].

عمل السحر، وتعلمه وتعليمه:

عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع... وأن رسول الله ﷺ عده من السبع الموبقات، ومختصر ذلك أنه قد يكون كفرًا، وقد لا يكون كفرًا بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كَفَر، وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام[٣].

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: وتعليمه محرم محظور؛ لأن تعلمه داع إلى فعله والعمل به، وما دعا إلى المحظور كان محظورًا[٤].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: ويحرم تعلمه لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾[البقرة: ١٠٢]، فذمهم على تعليمه؛ ولأن

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٣٨) واللسان (٤/ ٥٠٩) والصحاح (٣/ ٦٧٩).
(٢) المغني (٨/ ١٠٥).
(٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٣٢).
(٤) الحاوي الكبير (١٣/ ٩٧).

تعلمه يدعو إلى فعله، وفعله محرم، فحرم ما يدعو إليه[١].

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتعلم السحر والعمل به حرام[٢].

أما حكم الساحر:

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة].

فللعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: أن الساحر يكفر بسحره ويكون مرتدًّا يجب قتله ولا تقبل توبته؛ لأنه زنديق يستتر بالكفر، وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة.

الثاني: الساحر لا يكفر ولكن يحبس ويعزر ويستتاب لعله يرجع، وهذا قول لأحمد.

الثالث: الساحر لا يكون كافرًا بالسحر إلا أن يكون ما يسحر به كفرًا فيقتل بالكفر كمن يسخر الشياطين ويعتقد أنها تفعل له ما يشاء، وهذا مذهب الشافعي وغيره.

---

(١) المجموع شرح المهذب (١٩/ ٢٤١).

(٢) الكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ٦٥).

أقوال الفقهاء في المسألة:

قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأصحابه: إن الساحر كافر بالله تعالى، قال مالك: هو كالزنديق إذا عمل السحر بنفسه قتل ولم يستتب، ومن لم يباشر عمل السحر وجعل من يعمله له، ففي الموازية يؤدب أدبًا شديدًا.

قال الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يقتل الساحر حتى يثبت أن ما يفعله هو من السحر الذي وصفه الله بأنه كفر [(١)].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اختلاف الفقهاء في حكم الساحر على ثلاثة مذاهب.

مذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الساحر لا يكون كافرًا بالسحر، ولا يجب به قتله، إلا أن يكون به كفرًا فيصير باعتقاد الكفر كافرًا يجب قتله بالكفر لا بالسحر [(٢)].

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله، سواء لمعتقد تحريمه أو إباحته، وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر. فإن حنبلًا روى عنه، قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرى يستتاب من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي في معنى المرتد، فإن تاب ورجع يعني يخلي سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، لعله يرجع، وهذا يدل على أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفر لقتله، وقوله في معنى المرتد يعني في الاستتابة... ولم يرد الشافعي عليه في القتل بمجرد السحر، وهو قول ابن المنذر، ورواية عن

---

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل (٦/ ٣٢٤).

(٢) الحاوي الكبير (١٣/ ١٦٥).

أحمد [١].

قال السيوطي رحمه الله: لا يكفر، ولا يقتل من يسحر بأدوية وتدخين، وسقى شيئًا يضر؛ لأن الأصل العصمة، ولم يثبت ما يزيلها (ويعزَّر) ساحر بذلك (بليغًا) لينكف هو ومن مثله (بحيث لا يبلغ به القتل) على الصحيح من المذهب[٢].

قال الشنقيطي رحمه الله: التحقيق في المسألة هو التفصيل، فإن كان السحر مما يُعظم فيه غير الله؛ كالكواكب والجن وغير ذلك، مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع.

ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة البقرة فإنه كفر بلا نزاع، كما دل عليه قوله تعالى... وذكر الآية المذكورة أول المسألة.

وإن كان السحر لا يقتضي الكفر؛ كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها، فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر، وهذا هو الحق إن شاء الله تعالى في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء[٣].

وهذا هو الراجح عندي: وهو ما ذهب إليه الشافعي وابن المنذر والنووي وطائفة من المالكية، وهو الصحيح من مذهب أحمد والله تعالى أعلم.

---

(١) المغني لابن قدامة (٨/ ١٠٥).
(٢) مطالب أولي النهى (٩/ ٩٨).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٠).

قوله: «وهم علي نياتهم في الآخِرة»:

أي: أن هـؤلاء الزنادقـة والـدروز والمنـافقين ونحـوهـم ممـن أظهـر الإسلام تقبل توبته عند جماهير العلماء[١]، كما تقبل توبة الكافر، فإن صدقوا في توبتهم في الظاهر والباطن نفعهم ذلك في الآخرة، وإن كانوا غير صادقين في الباطن لن تنفعهم توبة الظاهر في الآخرة.

وقوله:

قلـتُ وإن دلـت دلائـلُ الهـدى ... كمـا جـرى للعيلبـوني اهتـدى

فإنـه أَذاع مـن أسـرارهم ... مـا كـان فيـه الهتـكُ عـن أستارهم

وقد توسط الناظم في المسألة، حيث قال: «قلت: وإن دلت» من الشخص التائب «دلائل الهدى» وقرائن الأحوال على صدق توبته ورجوعه «كما جرى لـ» حسن «العيلبوني» نسبة إلى عيلبون بلدة في الشام- كانت لطائفة من الدروز ومسكنًا لهم- فتاب من إلحاده حيث أنه كان درزيًّا، و«اهتدى» وأنقذه الله من الضلال «فإنه» أي: العيلبوني «أذاع» أي: أظهر «من أسرارهم» أي: من أسرار الدروز «ما» أي: شيئًا «كان فيه» أي: في ذلك الشيء المذاع «الهتك» أي: الكشف «عن أستارهم» التي كانوا يكتمونها من الوقوع على المحارم؛ كالبنات والأخوات، وأكل الخنزير، ورفض العبادات، وإنكار الشرائع، واعتقادهم أن كل ما حرمته الشريعة فهو مباح لهم.

---

(١) وقد سبقت المسألة في شرح البيت السابع والثمانين.

وقوله:

وكـــان للـــدين القـــويم ناصـــرًا   فصـــار منـــا باطنًـــا وظـــاهرًا

«**وكـان**» أي: العيلبـوني «للـدين القـويم» والهـدى المسـتقيم «ناصـرًا» باتباعه «فصار منا» أهل الحق «باطنًا» أي: في الباطن، «وظاهرًا» فهـو مسـلم مقبول الإسلام.

وكان العيلبوني شاعرًا لبيبًا، أخذ من علماء مصر ودمشق وجاور بها، ثـم ارتحل إلى عكا ومات بها سنة ألف وخمس وثمانين رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله:

فكـــل زنـــديق وكُـــل مـــارق   وجاحـــد ومُلحـــد مُنـــافق

«**فكل زنـديق**» لا يتـدين بـدين، و«كـل مـارق» مـن أهـل البـدع، «و» كـل «جاحد» من درزي ودهري وغيرهما، «و» كل «ملحد» في آيات الله، ومنكـر لشيء مما ثبت بالضرورة من الشريعة.

«**منافق**» أي: ذو نفاق.

وقوله:

إذا اســـتبانَ نُصـــحُه للـــدين   فإنـــه يُقبَـــل عـــن يقـــين

«**إذا**» تـاب ممـا هـو عليـه، و«اسـتبان» أي: بـان وظهـر صـحة إيمانـه و«نصحه للدين» القويم، «فإنه» أي: هذا التائـب «يقبـل» منـه ذلـك الرجـوع والتوبة «عن يقين» وهو الحكم الجازم المطابق للواقع، وسنده قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [البقرة: ١٦٠] الآية.

قاله ابن مانع.

الخلاصة:

أن كل من استبان توبته- من ملحد أو زنديق أو ساحر أو كافر- وصار مسلمًا في الظاهر، ودلت القرائن على أنه لا يبطن الكفر، تقبل توبته، لعموم الأدلة الدالة على قبول توبة الكافر كما سبق بيانه.

مسألة: حكم من سب الله -تعالى- أو استهزأ بالله، ومن سب الرسول ﷺ، هل تقبل توبته؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة].

أجمعت الأمة على أن من سب الله تعالى أو رسوله فقد كفر ويجب قتله.

قال الإمام إسحاق بن راهويه رحمه الله: أجمع المسلمون على أن من سب الله ورسوله ﷺ أو دفع شيئًا مما أنزل الله عز وجل أو قتل نبيًّا من أنبياء الله عز وجل أنه كافر بذلك، وإن كان مقرًّا بكل ما أنزل الله.

قال الخطابي رحمه الله: لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله[1].

قال ابن تيمية رحمه الله: وتحرير القول فيه: أن السابّ إن كان مسلمًا فإنه يكفر ويُقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم[2].

وقال أيضًا رحمه الله: إن سب الله أو رسوله كفر ظاهرًا وباطنًا، سواء كان

(١) الصارم المسلول لابن تيمية (ص: ١١، ١٢).

(٢) المصدر السابق.

السابُّ يعتقد أن ذلك محرمٌ أو كان مستحلًّا له، أو كان ذاهلًا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل [١].

وهل تقبل توبة الساب؟

السّاب لله تعالى إما أن يكون مسلمًا أو كافرًا.

أما الكافر: فقد أجمع العلماء على أن الكافر إن سب الله تعالى ثم تاب فإن توبته تقبل ويسقط عنه القتل، وحُجتهم في ذلك: أن الكفار سبوا الله تعالى ولم يأمر سبحانه بقتلهم، وسنذكر أدلة ذلك.

أما توبة المسلم: فإن الناس مجمعون على أن من سب الله تعالى من المسلمين يقتل، وإنما اختلفوا في توبته[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن سب الله تعالى فإن كان مسلمًا وجب قتله بالإجماع؛ لأنه بذلك كافر مرتد، وأسوأ من الكافر، فإن الكافر يعظم الرب ويعتقد أن ما هو عليه من الدين الباطل ليس باستهزاء بالله ولا مسبة له.

ثم اختلف أصحابنا وغيرهم في قبول توبته، بمعنى أنه هل يستتاب كالمرتد ويسقط عنه القتل إذا أظهر التوبة من ذلك بعد رفعه إلى السلطان وثبوت الحد عليه؟ على قولين: أحدهما أنه بمنزلة سابِّ الرسول، فيه الروايتان في سابِّ الرسول، هذه طريقة أبي الخطاب وأكثر من احتذى حذوه من المتأخرين، وهو الذي يدل عليه كلام الإمام أحمد حيث قال: كل من ذكر شيئًا يعرض بذكر الرب تبارك وتعالى فعليه القتل، مسلمًا كان

(١) الصارم المسلول (ص: ٣٨٤).

(٢) المصدر السابق.

أو كافرًا، وهذا مذهب أهل المدينة، فأطلق وجوب القتل عليه ولم يذكر استتابته وذكر أنه قول أهل المدينة ومن وجب عليه القتل يسقط بالتوبة، وقول أهل المدينة المشهور أنه لا يسقط القتل بتوبته، ولو لم يرد هذا لم يخصه بأهل المدينة، فإن الناس مجمعون على أن من سب الله تعالى من المسلمين يقتل وإنما اختلفوا في توبته.

فلما أُخذ بقول أهل المدينة في المسلم كما أخذ بقولهم في الذمي علم أنه قصد محل الخلاف بإظهار التوبة بعد القدرة عليه كما ذكرناه في سابّ الرسول.

وأما الرواية الثانية: فإن عبد الله قال: سُئل أبي عن رجل قال: «يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك»؟ قال أبي: هذا مرتد عن الإسلام، قلت لأبي: تضرب عنقه؟ قال: نعم تضرب عنقه، فجعله من المرتدين.

والرواية الأولى: قول الليث بن سعد، وقول مالك، وروى ابن القاسم عنه قال: من سب الله تعالى من المسلمين قتل، ولم يستتب، إلا أن يكون افترى على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتاب، وإن لم يظهره لم يستتب، وهذا قول ابن القاسم، ومطرف، وعبد الملك، وجماهير المالكية.

والثاني: أنه يستتاب وتقبل توبته بمنزلة المرتد المحض، وهذا قول القاضي أبي يعلي، والشريف أبي جعفر، وأبي علي بن البنَّاء، وابن عقيل، مع قولهم: إن من سب الرسول لا يستتاب، وهذا قول طائفة من المدنيين: منهم محمد بن مسلمة، والمخزومي، وابن أبي حازم، قالوا: لا يقتل المسلم بالسب حتى يستتاب وكذلك اليهودي والنصراني، فإن تابوا قُبل منهم، وإن لم يتوبوا قتلوا، ولابد من الاستتابة، وذلك كله كالردة وهو الذي

ذكره العراقيون من المالكية.

وكذلك ذكر أصحاب الشافعي ﵁: قالوا: سبّ الله ردة، فإذا تاب قُبلت توبته، وفرقوا بينه وبين سب الرسول ﷺ على أحد الوجهين، وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة.

وأما من استتاب السّاب لله ولرسوله، فمأخذه أن ذلك من أنواع الردة.

ومن فرّق بين سب الله وسب الرسول قالوا: سب الله تعالى كفر محض، وهو حق لله وتوبة من لم يصدر منه إلا مجرد الكفر الأصلي أو الطارئ مقبولة مسقطة للقتل بالإجماع.

ويدل على ذلك أن النصارى يسبون الله بقولهم: هو ثالث ثلاثة، وبقولهم: إن له ولدًا كما أخبر النبي ﷺ عن الله عز وجل أنه قال: «**شَتَمَنِي ابْنُ آدمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلك، وَكَذبَنِي ابْنُ آدمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذلك، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُه: إنَّ لِي وَلَدًا وَأَنَا الله الأَحدُ الصَّمَدُ**»[(١)] وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤] وهو سبحانه قد عُلم منه أنه يسقط حقه عن التائب، فإن الرجل لو أتى من الكفر والمعاصي بملء الأرض ثم تاب تاب الله عليه، وهو سبحانه لا تلحقه بالسّب غضاضة ولا معرة، وإنما يعود ضرر السب على قائله، وحرمته في قلوب العباد أعظم من أن يهتكها جرأة الساب..»[(٢)].

وأما التوبة من سب النبي ﷺ: فقد أجمع العلماء على وجوب قتل من

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٣) وغيره من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) الصارم المسلول (٤٠٧، ٤٠٨).

سب النبي ﷺ سواء كان مسلمًا أو كافرًا، واختلفوا في قبول توبته، فالجمهور على أنها تقبل ولا يسقط عنه حدّ القتل فيقتل حدًّا؛ لأن الحدود لا تسقط بالتوبة.

قال القاضي أبو محمد بن نصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والفرق بينه وبين من سب الله تعالى على مشهور القول باستتابته أن النبي ﷺ بشر، والبشر جنس تلحقه المعرة إلا من أكرمه الله بنبوته، والبارئ تعالى منزه عن جميع المعايب قطعًا، وليس من جنس تلحق المعرةُ بجنسه، لا حق فيه لغيره من الآدميين، فقبلت توبته، ومن سب النبي ﷺ تعلق فيه حق الآدمي، فكان كالمرتد يقتل حين ارتداده أو يقذف، فإن توبته لا تسقط عنه حد القتل والقذف(١).

قال أبو الحسن القابسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أقر بالسبّ وتاب منه وأظهر التوبة قُتل بالسب؛ لأنه هو حدُّه(٢).

وقال ابن سحنون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من شتم النبي ﷺ من الموحدين ثم تاب عن ذلك لم تُزِل توبتُه عنه القتل(٣).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد قدمنا ما هو سبّ وأذى في حقه ﷺ وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك وقائله أو تخيير الإمام في قتله أو صلبه..

وبعد؛ فاعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء قتله حدًّا لا كفرًا إن أظهر التوبة منه، ولهذا لا تقبل عندهم توبته...

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص: ٤٥٧).

(٢) الشفا (ص: ٤٥٦).

(٣) المصدر السابق.

وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا من قبل نفسه؛ لأنه حدٌّ وجب لا تُسقطه التوبة كسائر الحدود(١).

الخلاصة:

أن من سب الله تعالى أو رسوله فقد كفر، ووجب قتله إن لم يتب، سواء كان مسلمًا أو كافرًا، وهذا مما أجمع عليه أهل العلم.

أما الكافر إذا سب الله ثم تاب سقط عنه حد القتل بالتوبة، وإن كان مسلمًا فالراجح أن تقبل توبته ولا يقتل.

وأما من سب الرسول ﷺ فقد كفر، ويجب قتله بالإجماع، فإن تاب قُبلت توبته عند أكثر أهل العلم، ولا يسقط عنه القتل بالتوبة، بل يقتل حدًّا وإن تاب.

---

(١) المصدر السابق.

فصل: في الكلام عن الإيمان

قال الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩٥- إيمانُنا قولٌ وقصدٌ وعملْ تزيدُه التقوى وينقص بالزَّلَلْ

الشرح

الإيمان لغة: أمن: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان.

أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها: سكون القلب والآخر: التصديق، والمعنيان كما قلنا متدانيان [(١)].

قال الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: أمن به إيمانًا: صدَّقه، والإيمان: الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة [(٢)].

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: الإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذب به قوم [(٣)].

وشرعًا: الإقرار والتصديق بالقلب، وعمل الجوارح، وعمل اللسان.

قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلموا رحمنا الله تعالى وإياكم، أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح.

ثم اعلموا: أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق، إلا أن يكون معه

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ١٣٣-١٣٥).

(٢) القاموس المحيط (ص: ١٠٦٠).

(٣) اللسان (١/ ١٠٧).

عمل الجوارح، فإن كملت فيه هذه الخصال الثلاثة كان مؤمنًا[١].

الأدلة على أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: حقيقةُ الإيمانِ مركبةٌ من قولٍ وعملٍ.

والقولُ قسمان: قولُ القلبِ وهو الاعتقادُ، وقولُ اللسانِ وهو التكلمُ بكلمةِ الإسلامِ.

والعملُ قسمان: عملُ القلبِ وهو نيَّتُه وإخلاصُه، وعملُ الجوارحِ.

فإذا زالت هذه الأربعةُ زالَ الإيمانُ بكمالِه، وإذا زالَ تصديقُ القلبِ لم تنفعْ بقيةُ الأجزاءِ، فإنَّ تصديقَ القلبِ شرطٌ في اعتقادِها وكونِها نافعةً.

وإذا زالَ عملُ القلبِ مع اعتقادِ الصدقِ، فهذا موضعُ المعركةِ بينَ المرجئةِ وأهلِ السُّنَّةِ. فأهلُ السُّنَّةِ مجمعون على زوالِ الإيمانِ وأنَّه لا ينفعُ التصديقُ مع انتفاءِ عملِ القلبِ وهو محبتُه وانقيادُه، كما لم ينفعْ إبليسَ وفرعونَ وقومَه واليهودَ والمشركين الذين كانوا يعتقدون صِدقَ الرسولِ بل ويقرُّون به سرًّا وجهرًا، ويقولون: ليس بكاذبٍ ولكنْ لا نتَّبعُه ولا نؤمنُ به.

وإذا كان الإيمانُ يزولُ بزوالِ عملِ القلبِ، فغيرُ مستنكرٍ أنْ يزولَ بزوالِ أعظمِ أعمالِ الجوارحِ، ولا سيَّما إذا كان ملزومًا لعدمِ محبةِ القلبِ وانقيادِه الذي هو ملزومٌ لعدمِ التصديقِ الجازمِ كما تقدَّم تقريرُه، فإنَّه يلزمُ من عدمِ طاعةِ القلبِ عدمُ طاعةِ الجوارحِ، إذ لو أطاعَ القلبُ وانقادَ أطاعت الجوارحُ وانقادتْ، ويلزمُ من عدمِ طاعتِه وانقيادِه عدمُ التصديقِ المستلزمُ للطاعةِ، وهو حقيقةُ الإيمانِ، فإنَّ الإيمانَ ليس مجردَ التصديقِ (كما تقدَّمَ

(١) الشريعة (٢/ ٦١١).

بيانُه) وإنَّما هو التصديقُ المستلزمُ للطاعةِ والانقيادِ[١]. انتهى

فمن قال بلسانِه ولمْ يصدِّقْ قلبُه، فهو كافرٌ أو منافقٌ نفاقًا عَقَدِيًّا[٢] يخرجُه من الملَّةِ.

قال جلَّ ذكرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة]. أي: يقولون ذلكَ قولًا ليس وراءَه شيءٌ آخرُ[٣] كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون].

قال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المنافقون) جمعُ منافقٍ وهو: من يُظهرُ الإيمانَ ويُسرُّ الكفرَ... وأصلُ الشهادةِ: أنْ يواطئَ اللسانُ القلبَ، هذا بالنطقِ وذلك بالاعتقادِ، فكذَّبهم اللهُ وفضحَهم بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ أي: لم تواطئْ قلوبُهم ألسنتَهم على تصديقِك[٤].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن عَرَفَ بقلبِه فحسب وتركَ قولَ اللسانِ وعملَ القلبِ وعملَ الجوارحِ بالكليةِ فهو كافرٌ ككفرِ فرعونَ واليهودِ؛ لأنَّ فرعونَ كان على يقينٍ أنَّ ما جاءَ به موسى عليه السلامُ ليس سحرًا ومع ذلك لم

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص٤٤).

(٢) النفاق نوعان: نفاق عقدي يخرج صاحبه من الملة، ونفاق عملي لا يخرج صاحبه من الملة.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦).

(٤) أضواء البيان (٨/ ١٨٨).

يتبعْه فلم تنفعْه معرفةُ القلبِ، واليهودُ كانوا يعلمونَ صدقَ النبيِّ عليه السلامُ ولم يتَّبعُوه فلم تنفعْهم هذه المعرفةُ بل هي حجةٌ عليهم، قال اللهُ تعالى في كفرِ فرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

أي: تيقَّنوا أنَّها من عندِ اللهِ وأنَّها ليست سحرًا، ولكنَّهم كفروا بها وتكبَّرُوا أنْ يؤمنُوا بموسى، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا معاندين، و«ظلمًا وعلوًّا» منصوبان على نعتِ مصدرٍ محذوفٍ، أي: وجحدُوا بها جحُودًا ظلمًا وعلوًّا[(١)].

وقال سبحانَه في اليهودِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال جلَّ ذكرُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يخبرُ تعالى أنَّ علماءَ أهلِ الكتابِ يعرفون صحةَ ما جاءَهم به الرسولُ عليه السلامُ كما يعرِفُ أحدُهم ولدَه، والعربُ كانت تضربُ في صحَّةِ الشيءِ بهذا[(٢)].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعرفونه» في موضعِ الحالِ، أي: يعرفون نبوَّتَه وصدقَ رسالتِه، والضميرُ عائدٌ على محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ، قاله مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما[(٣)].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ١٧٤).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦٧).

عَنْ عُثْمَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله عليه الصلاةُ والسلامُ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ في معرضِ شرحِه للحديثِ: وفي قوله ﷺ: «**وهو يعلمُ**» إشارةٌ إلى الردِّ على من قال من غلاةِ المرجئةِ: إنَّ مُظْهِرَ الشهادتين يدخلُ الجنةَ وإنْ لم يعتقدْ ذلك بقلبِه. وقد قُيِّدَ ذلك في حديثٍ آخرَ بقوله ﷺ: «**غيرَ شاكٍّ فيهما**» وهذا يؤكدُ ما قلنا(٢).

قال القاضي رَحِمَهُ اللهُ: وقد يحتجُّ من يرَى أنَّ مجردَ معرفةِ القلبِ نافعةٌ دونَ النطقِ بالشهادتين لاقتصارِه على العلمِ.

ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ: أنَّ المعرفةَ مرتبطةٌ بالشهادتين لا تنفعُ إحداهما ولا تنْجِي من النارِ دونَ الأخرَى(٣).

قال البربهاريُّ رَحِمَهُ اللهُ: والإيمانُ بأنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، وعملٌ وقولٌ، ونيَّةٌ وإصابةٌ، يزيدُ وينقصُ، يزيدُ ما شاءَ اللهُ، وينقصُ حتى لا يبقَى منه شيءٌ(٤).

ونذكرُ هاهنا الأدلةَ من الكتابَ والسُّنَّةِ على أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦) وغيره.
(٢) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٥٧).
(٣) المصدر السابق.
(٤) شرح السنة (ص: ٥٢).

أولاً: الدليلُ على أنَّ الإيمانَ قولٌ:

اعلمْ أنَّ القولَ يشملُ قولَ اللسانِ وقولَ القلبِ، لا يصحُّ أحدُهما بغيرِ الآخرِ كما سبقَ بيانُه.

١- دليلُ قولِ اللسانِ:

قال اللهُ تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران].

وقال جلَّ ذكرُه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات].

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ - وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ: غَيْرَكَ - قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ»[(١)].

عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَنِ الوَفْدُ أَوْ مَنِ القَوْمُ؟» قَالُوا: رَبِيعَةُ

(١) أخرجه مسلم (٦٢-٣٨) وغيره.

فَقَالَ: «**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ أَوْ بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**» قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، نَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ. فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ**» وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ وَالحَنْتَمِ وَالمُزَفَّتِ. قَالَ شُعْبَةُ: رُبَّمَا قَالَ: «**النَّقِيرِ**» وَرُبَّمَا قَالَ: «**المُقَيَّرِ**» قَالَ: «**احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ**»(١)(٢).

فعدَّ النبيُّ ﷺ النطقَ بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ - وهو قولٌ - إيمانًا، فدلَّ ذلك على أنَّ قولَ اللسانِ داخلٌ في مسمَّى الإيمانِ.

وقال النبيُّ ﷺ في حديثِ شعبِ الإيمانِ: «**الإيمانُ بِضْعٌ وَسبعونَ أَو بِضْعٌ وستُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضلُها قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠)، ومسلم (١٧- ٢٣).

(٢) فائدة: الإشكال في كونه ﷺ قال: «**آمركم بأربع**» والمذكور في أكثر الروايات خمس، واختلف العلماء في الجواب عن هذا على أقوال أظهرها: ما قاله ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح صحيح البخاري، قال: أمرهم بالأربع التي وعدهم بها ثم زادهم خامسة، يعني: أداء الخمس، لأنهم كانوا مجاورين لكفار مضر فكانوا أهل جهاد وغنائم، وذكر الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح نحو هذا. مسلم بشرح النووي (١/ ٢١٩) وفتح الباري (١/ ١٦١).

الطَّرِيقِ. وَالحَياءُ شُعبةٌ مِنَ الإيمَانِ»[(١)].

أعْلَى شُعَبِ الإيمانِ قولُ لا إلهَ إلا اللهُ كما جاءَ في الحديثِ. فدلَّ ذلك على أنَّ قولَ اللسانِ داخلٌ في مسمَّى الإيمانِ.

٢- دليلُ قول القلبِ:

«فأمَّا قولُ القلبِ: فهو التصديقُ الجازمُ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ، ويدخلُ فيه الإيمانُ بكلِّ ما جاءَ به رسولُ اللهِ ﷺ.

ثمَّ الناسُ في هذا على أقسامٍ: منهم من صدَّقَ به جملةً ولم يعرف التفصيلَ، ومنهم من صدَّقَ جملةً وتفصيلًا»[(٢)]. انتهى.

الدليلُ على ذلك:

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِن أَحَدٍ يَشْهَدُ أنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنّ مُحمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إلَّا حرَّمه اللهُ عَلَى النَّارِ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٩) باختصار، ومسلم (٥٨-٣٥) واللفظ لمسلم.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧١).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) واللفظ للبخاري.

وفي روايةٍ: «أشْهَدُ أنّ لا إلهَ إلا اللهُ وأنّي رَسُولُ اللهِ، لا يَلقَى اللهَ بهِمَا عَبدٌ غَيرُ شاكٍّ فيهمَا إلّا دَخلَ الجَنَّةَ»(١).

قال أبو العباسِ رَحِمَهُ اللهُ: ومعنى صدقِ القلبِ: تصديقُه الجازمُ بحيثُ لا يخطرُ له نقيضُ ما صدَّقَ به(٢).

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ...»(٣).

ثانيًا: دليلُ أنَّ الإيمانَ عملٌ:

والعملُ يشملُ عملَ القلبِ وعملَ الجوارحِ:

١- دليلُ عملِ القلبِ:

أعمالُ القلوبِ كثيرةٌ جدًّا، أعظمُها حبُّ اللهِ وتعظيمُه وحبُّ الرسولِ ﷺ وتوقيرُه، ومنها خشيةُ اللهِ والإنابةُ إليه والإخلاصُ له والتوكلُ عليه إلى غيرِ ذلك، وقد جاءتْ أعمالُ القلوبِ في القرآنِ والسُّنَّةِ مجملةً ومفصلةً.

أمَّا على وجهِ الإجمالِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٤ – ٢٧).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢٤)، وأبو داود (٤٨٨٠)، وأبو يعلى (٧٤٢٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٤٧)، وفي «الشعب» (٦٧٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

ﭐلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة]. وكلُّ ما ذكرَ في الآيةِ من أعمالِ القلوبِ إجمالًا.

وقال جلَّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

فدلَّ الحديثُ على أنَّ إنكارَ المنكرِ بالقلبِ من أعمالِ القلوبِ.

وعن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»(٢).

وقال رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ جبريلَ عليه السلامُ لمَّا قال له: فأخبرْني عن الإيمانِ. قال: «أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢- دليلُ عملِ الجوارحِ:

الأدلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأمةِ على أنَّ عملَ الجوارحِ من الإيمانِ كثيرةٌ جدًّا، نذكرُ منها:

قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف]، وقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل].

وقولَه جلَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الكهف: ٣٠-٣١].

وقولَه تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه].

وقولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

وقولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال].

وقولَه تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم].

قال الآجريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلمُوا – رحِمَنا اللهُ وإياكم – يا أهلَ القرآنِ، ويا أهلَ العلمِ، ويا أهلَ السُّنَنِ والآثارِ، ويا معشرَ من فقَّههم اللهُ تعالى في الدينِ بعلمِ

الحلالِ والحرامِ، إنَّكم إنْ تدبَّرتم القرآنَ كما أمرَكم اللهُ تعالى علِمتم أنَّ اللهَ تعالى أوجبَ على المؤمنين بعدَ إيمانِهم به وبرسولِه: العملَ، وأنَّه تعالى لم يُثْنِ على المؤمنين بأنَّه قد رضيَ عنهم وأنَّهم قد رضُوا عنه وأثابَهم على ذلك الدخولَ إلى الجنَّةِ والنجاةَ من النارِ إلا بالإيمانِ والعملِ الصالحِ، وقَرَنَ مع الإيمانِ العملَ الصالحَ، لم يدخلْهم الجنَّةَ بالإيمانِ وحدَه، حتى ضمَّ إليه العملَ الصالحَ الذي قد وفَّقَهم له، فصارَ الإيمانُ لا يتمُّ لأحدٍ حتى يكونَ مصدقًا بقلبِه، وناطقًا بلسانِه، وعاملًا بجوارحِه لا يخفَى، ومن تدبرَ القرآنَ وتصفحه وجدَه كما ذكرتُ.

واعلمُوا - رحِمَنا اللهُ تعالى وإياكم - أنِّي قد تصفحتُ القرآنَ فوجدتُ فيه ما ذكرتُه في ستةٍ وخمسين موضعًا من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالى لم يُدخل المؤمنينَ الجنَّةَ بالإيمانِ وحدَه، بل أدخلَهم الجنَّةَ برحمتِه إياهم وبمَا وفَّقهم له من الإيمانِ به والعملِ الصالحِ، وهذا ردٌّ على من قال: الإيمانُ المعرفةُ، وردٌّ على من قال: المعرفةُ والقولُ وإنْ لم يعملْ[1]، نعوذُ باللهِ من قائلِ هذا... ثم ذكرَ جملةً من الآياتِ التي تدلُّ على أنَّ عملَ الجوارحِ من الإيمانِ[2].

وقد دلَّت السُّنَّة على أنَّ الإيمانَ عملٌ:

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ**»[3].

---

(١) يشير إلى عقيدة المرجئة وهي من الفرق الضالة وسيأتي الكلام عليها في موضعه بإذن الله.

(٢) الشريعة (ص: ٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، وأحمد (٥/ ٣٤٢) وغيرهم، من

وقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحَيهِما من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ؛ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ صَلَّى - أَوْ صَلَّاهَا - صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ. قَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾[١].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ اتَّفقَ العلماءُ على أنَّها نزلتْ فيمن ماتَ وهو يصلِّي إلى بيتِ المقدسِ، كما ثبتَ في البخاريِّ من حديثِ البراءِ.

ورَوى ابنُ وهبٍ وابنُ القاسمِ وابنُ عبدِ الحكمِ عن أشهبَ عن مالكٍ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾ قال: صلاتَكم[٢].

قال البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدَ أنْ ساقَ حديثَ البراءِ المتقدمَ: وفي هذا دلالةٌ على أنَّه سمَّى صلاتَهم إلى بيتِ المقدسِ إيمانًا، وإذا ثبتَ ذلك في الصلاةِ ثبتَ ذلك في سائرِ الطاعاتِ، وقد سمَّى رسولُ اللهِ ﷺ الطهورَ إيمانًا، فقالَ

=
حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٦) ومسلم (٥٢٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦٢).

في حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ: «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ»[(١)(٢)].

وفي الصحيحَين عن ابنِ عباسٍ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لوفدِ عبدِ القَيْسِ: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانِ بِاللهِ»، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ، فَقَالَ: «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَأَنَّ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ: الدُّبَّاءِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُقَيَّرِ» زَادَ خَلَفٌ فِي رِوَايَتِهِ: «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(٣)]، وَعَقَدَ وَاحِدَةً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[(٤)].

ثالثًا: دليل أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ:

قدَّمْنا الأدلةَ من الكتابِ والسُّنَّةِ على أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ على ما ذكرنَا من تفصيلٍ، ونذكرُ هاهنا الأدلةَ من الكتابِ والسُّنَّةِ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ والتقصيرِ في فعلِ الطاعاتِ.

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

وقال سبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد (ص: ١٩٤).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ للبخاري.

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح: ٤].

وقال: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وغيرُ ذلك من الآياتِ الدالةِ على زيادةِ الإيمانِ.

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا[(١)].

وعن حَنْظلةَ الأُسَيْديِّ (وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ) قال: لقِيَني أبو بكرٍ فقالَ: كيفَ أنتَ يا حنظلةُ؟ قالَ: قلتُ: نافقَ حنظلةُ. قال: سبحانَ اللهِ! ما تقولُ؟ قالَ: قلتُ: نكونُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنا بالنارِ والجنَّةِ حتَّى كأنَّا رَأْيَ عينٍ، فإذا خَرَجْنا مِن عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، عافَسْنا[(٢)] الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعاتِ[(٣)] فنسِينا كثيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٦١)، والخلال في السنة (٧٩٩، ١٥٩٣)، وابن بطة في الإبانة (١١٣٦)، والبيهقي في الشعب (٥١)، واللالكائي (٥/ ١٧).

(٢) عافسنا: عالجنا وحاولنا، وفي الصحاح: المعافسة: المعالجة، يعني أنهم إذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ اشتغلوا بهذه الأمور، وتركوا تلك الحالة الشريفة التي كانوا يجدونها عند سماع موعظة رسول الله ﷺ ومشاهدته – المفهم (٧/ ٦٧).

(٣) ضيعةّ الرجل: حرفته وصناعته ومعاشه وكسبه – لسان العرب (٥/ ٥٤٨) مادة (ضيع).

تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدي وفي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ المَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وَفي طُرُقِكُمْ، ولَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعةً وَسَاعَةً**»(١) ثلاث مرات.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ... قالَ: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ**» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٣).

قال محمدُ بنُ عليٍّ رَحِمَهُ اللهُ: هذا الإسلامُ ودوَّرَ دائرةً في وسطِها دائرة أخرَى، وهذا الإيمانُ -الذي في وسطِها- مقصورٌ في الإسلامِ، يقولُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤) ومسلم (٨٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...» وساقَ الحديثَ كما تقدمَ، قال: يخرجُ من الإيمانِ إلى الإسلامِ ولا يخرجُ من الإسلامِ، فإذا تابَ تابَ اللهُ عليه، ويرجعُ إلى الإيمانِ[(١)].

قال ابنُ بطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: وهذا القولُ من أبي جعفرٍ محمدِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أوضحِ الدلائلِ وأفصحِها على زيادةِ الإيمانِ ونقصانِه، وذلك أنَّ الإيمانَ يزيدُ بالطاعاتِ فيحصنُه الإيمانُ، وينقصُ بالمعاصي فيحرقُ الإيمانَ، ويكونُ غيرَ خارجٍ من الإسلامِ[(٢)]، وذلك أن الإسلامَ لا يجوزُ أنْ يقالَ فيه يزيدُ وينقصُ[(٣)].

قال الآجريُّ رَحِمَهُ اللهُ: قد رُويَ عن جماعةٍ ممن تقدموا أنَّهم قالوا: إذا زَنَى نُزِعَ منه الإيمانُ، فإن تابَ ردَّه اللهُ إليه. كلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ[(٤)].

قال أبو عثمان الصابونيُّ رَحِمَهُ اللهُ: مذهبُ أهلِ الحديثِ: أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ومعرفةٌ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ[(٥)].

قال عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبلٍ رَحِمَهُ اللهُ: سمعتُ أبي رَحِمَهُ اللهُ وسُئلَ عن الإرجاءِ؟ فقال: نحنُ نقولُ: الإيمانُ قولٌ وعملٌ يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ

---

(١) الإبانة لابن بطة (١/ ٤١١).

(٢) وستأتي الأدلة على أن مرتكبي الكبائر - ما لم يستحلها - لا يخرج من الملة ولا يخلد في النار.

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (١/ ٤١١).

(٤) الشريعة (ص: ٩٠).

(٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ٢٦٤).

بالمعصيةِ، إذا زنَى وشربَ الخمرَ نقصَ إيمانُه[١].

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد حكَى غيرُ واحدٍ إجماعَ أهلَ السُّنَّةِ والحديثِ على أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ. قال أبو عمر ابنُ عبدِ البرِ في «التمهيد»: أجمعَ أهلُ الفقهِ والحديثِ على أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، ولا عملَ إلا بنيةٍ، والإيمانُ عندَهم يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ، والطاعاتُ كلُّها عندَهم إيمانٌ إلَّا ما ذكرَ عن أبي حنيفةَ وأصحابِه، فإنَّهم ذهبُوا إلى أنَّ الطاعةَ لا تُسمَّى إيمانًا، قالوا: إنَّما الإيمانُ التصديقُ والإقرارُ، ومنهم من زادَ المعرفةَ وذكرَ ما احتجُّوا به... إلى أنْ قال: وأمَّا سائرُ الفقهاءِ من أهلِ الرأي والآثارِ بالحجازِ والعراقِ والشامِ ومصرَ، منهم مالكُ بنُ أنسٍ، والليثُ بنُ سعدٍ، وسفيانُ الثوريُّ، والأوزاعيُّ، والشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وإسحاقُ بنُ راهويهِ، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلامٍ، وداودُ بنُ عليٍّ، والطبريُّ، ومن سلكَ سبيلَهم قالوا:

الإيمانُ قولٌ وعملٌ، قولُ اللسانِ وهو الإقرارُ واعتقادُ القلبِ وعملُ الجوارحِ مع الإخلاصِ بالنيَّةِ الصادقةِ.

قالوا: وكلُّ ما يطاعُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- به من فريضةٍ ونافلةٍ فهو من الإيمانِ، والإيمانُ يزيدُ بالطاعاتِ وينقصُ بالمعاصِي، وأهلُ الذنوبِ عندَهم مؤمنون غيرُ مستكملي الإيمانِ من أجلِ ذنوبِهم، وإنَّما صاروا ناقصِي الإيمانِ بارتكابِهم الكبائرَ، ألا ترى قولَ النبيِّ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ**»[٢] الحديث، يريدُ مستكملَ الإيمانِ ولم يردْ به نفيَ جميعِ الإيمانِ

---

(١) السنة (ص: ٢٦٤)، حديث رقم (٥٨٥).

(٢) متفق عليه: تقدم تخريجه.

عن فاعلِ ذلك؟[١].

الخلاصة:

أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ، وأنَّ الأعمالَ من الإيمانِ، وهذا إجماعٌ من الصحابةِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ.

قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللهُ: والمشهورُ عن السلفِ وأهلِ الحديثِ، أنَّ الإيمانَ: قولٌ وعملٌ ونيةٌ، وأنَّ الأعمالَ كلَّها داخلةٌ في مسمَّى الإيمانِ.

وحكَى الشافعيُّ على ذلك إجماعَ الصحابةِ والتابعينَ ومن بعدَهم ممن أدركَهم، وأنكرَ السلفُ على من أخرجَ الأعمالَ عن الإيمانِ إنكارًا شديدًا، وممَّن أنكرَ ذلك على قائلِه، وجعلَه قولًا مُحدَثًا: سعيدُ بنُ جبيرٍ، وميمونُ بنُ مهرانَ، وقتادةُ، وأيوبُ السختيانِيُّ، وإبراهيمُ النخعيُّ، والزهريُّ، ويحيى بنُ أبي كثيرٍ، وغيرُهم[٢].

قال الثوريُّ رَحِمَهُ اللهُ: هو رأيٌ محدثٌ، أدركنا الناسَ على غيرِه[٣].

وقال الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: كان منْ مضَى من السَّلفِ لا يفرقونَ بينَ الإيمانِ والأعمالِ[٤].

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ اللهُ إلى عَديِّ بنِ عديٍّ: إنَّ للإيمانِ فرائضَ وشرائعَ وحدودًا وسننًا، فمن استكملَها استكملَ الإيمانَ، ومن لم

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٢٩).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٦١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر.

يستكملْها لم يستكملِ الإيمانَ[١].

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرضِ كلامِه عن أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ: وما نُقِلَ عن السَّلفِ صرَّحَ به عبدُ الرزَّاقِ في مصنَّفِه عن سفيانِ الثوريِّ، ومالكِ بنِ أنسٍ، والأوزاعيِّ، وابنِ جريجٍ، ومعمرٍ، وغيرِهم، وهؤلاءِ فقهاءُ الأمصارِ في عصرِهم.

وكذا نقلَ اللالكائيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» عن الشافعيِّ، وأحمدَ بنِ حنبلٍ، وإسحاقَ بنِ راهويهِ، وأبي القاسمِ وغيرِهم من الأئمةِ، وروى بسندِه الصحيحِ عن البخاريِّ قال: لقيتُ أكثرَ من ألفِ رجلٍ من العلماءِ بالأمصارِ، فما رأيتُ أحدًا منهم يختلفُ في أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، ويزيدُ وينقصُ.

وأطنبَ ابنُ أبي حاتمٍ واللالكائيُّ في نقلِ ذلك بالأسانيدِ عن جمعٍ كثيرٍ من الصحابةِ والتابعين وكلِّ من يدورُ عليه الإجماعُ من الصحابةِ والتابعينَ، وحكاه فضيلُ بنُ عياضٍ ووكيعٌ عن أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[٢].

---

(١) فتح الباري (١/ ٦٠) كتاب الإيمان.

(٢) الفتح (١/ ٦١-٦٢).

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩٦- ونحــنُ في إيمانِنَـا نَسـتْثنى مـن غيـر شـكٍّ فَاسْـتَمعْ واسْـتَبِنِ

الشرح

معنى الاستثناءِ في الإيمانِ: هو أنْ يقولَ الرجلُ: أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ[1].

أو يقولَ: «آمنتُ باللهِ» أو «أرجُو» أو نحوَ ذلك من الصيغِ.

حكمُه:

اختُلِفَ في هذه المسألةِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأولُ: أنَّ الاستثناءَ واجبٌ، حتى في الأشياءِ التي لا شكَّ فيها، وحجتُهم في ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقولُ اللهِ تعالى بالدخولِ الآمنِ ليس فيه شكٌّ.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم].

وقولُ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ وقفَ على المقابرِ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤمنينَ وإنّا إنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقونَ**»[2]، والموتُ ليسَ فيه شكٌّ ومع هذا استثنى رسولُ اللهِ ﷺ بقولِه: «**إنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقونَ**».

قالوا: لأنَّ الإيمانَ المطلقَ يتضمَّنَ فعلَ كلِّ ما أمرَ اللهُ به عبدَه وتركَ كلِّ ما نهاهُ عنه، فإذا قالَ الرجلُ: أنا مؤمنٌ، فقد شهدَ لنفسِه أنَّه من القائمينَ بجميعِ ما أُمروا به وتركِ كلِّ ما نُهوا عنه وفي هذا تزكيةٌ للنفسِ قد نهَى اللهُ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عنها، وهذا قولُ من ذهبَ إلى وجوبِ الاستثناءِ من السَّلفِ(١)، منهم اللالكائيُّ(٢) والقاضي عبد الوهاب المالكي في عيونِ المسائلِ(٣) وعبدُ الرحمنِ بن مهديٍّ وابنُ بطَّةَ(٤)، وغيرُهم.

القولُ الثاني: أنَّ الاستثناءَ حرامٌ، وحجتُهم أنَّ الإيمانَ شيءٌ واحدٌ، وهؤلاءِ هم المرجئةُ والجهميةُ؛ لأنَّ الإيمانَ عندَهم قولٌ بلا عملٍ والاستثناءُ فيه يعدُّ شكًّا، وأجابوا على الاستثناءِ الذي في قولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ بأنَّه يعودُ على الأمنِ والخوفِ، فأما الدخولُ فلا شكَّ فيه، وقيل: لتدخُلُنَّ جميعُكم أو بعضُكم؛ لأنَّه علمَ أنَّ بعضَهم يموتُ.

وممن ذهبَ إلى هذا أيضًا الماتريديةُ(٥) والأحنافُ.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وأبو حنيفةَ وأصحابُه لا يجوِّزون الاستثناءَ في الإيمانِ بكونِ الأعمالِ منه ويذمُّون المرجئةَ، والمرجئةُ عندَهم الذين لا يوجبون الفرائضَ ولا اجتنابَ المحارمِ؛ بل يكتفون بالإيمانِ، وقد علَّلَ تحريمَ الاستثناءَ فيه بأنَّه لا يصحُّ تعليقُه على الشرطِ؛ لأنَّ المعلقَ على الشرطِ لا يوجدُ إلا عندَ وجودِه كما قالوا في قولِه: أنتِ طالقٌ إنْ شاءَ اللهُ. فإذا عُلِّقَ الإيمانُ بالشرطِ كسائرِ المعلقاتِ بالشرطِ لا يحصلُ إلا عندَ

---

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص: ٣٣٥).
(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٢٤٥).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٦).
(٤) الإبانة (١/ ٤٢٣).
(٥) انظر: التوحيد للماتريدي (ص: ٣٨٨)، وتأويلات أهل السنة له أيضًا (ص: ٢٦٥).

حصولِ الشرطِ.

قالوا: وشرطُ المشيئةِ الذي يترجَّاهُ القائلُ لا يتحققُ حصولُه إلى يوم القيامةِ فإذا عُلِّقَ العزمُ بالفعلِ على التصديقِ والإقرارِ فقد ظهرت المشيئةُ وصحَّ العقدُ فلا معنى للاستثناءِ؛ ولأن الاستثناءَ عقيبَ الكلامِ يرفعُ الكلامَ، فلا يبقى الإقرارُ بالإيمانِ والعقدِ مؤمنًا، وربَّما يتوهمُ هذا القائلُ القارنُ بالاستثناءِ على الإيمانِ بقاءَ التصديقِ وذلك يزيلُه.

«قلت»: فتعليلُهم في المسألةِ إنَّما يتوجهُ فيمن يعلِّقُ إنشاءَ الإيمانِ على المشيئةِ كالذي يريدُ الدخول في الإسلامِ فيقالُ له: آمِنْ. فيقولُ: أنَا أُومن إنْ شاءَ اللهُ أو آمنتُ إنْ شاءَ اللهُ أو أسلمتُ إنْ شاءَ اللهُ أو أشهدُ إنْ شاءَ اللهُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ إنْ شاءَ اللهُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ.

والذين استثْنَوْا من السَّلفِ والخلفِ لم يقصدُوا في الإنشاءِ وإنَّما كان استثناؤُهم في إخبارِه عمَّا قد حصلَ له من الإيمانِ فاستثْنَوْا إمَّا أنَّ الإيمانَ المطلَقَ يقتضِي دخولَ الجنَّةِ وهم لا يعلمُونَ الخاتمةَ كأنَّه إذا قيلَ للرجلِ: أنتَ مؤمنٌ. قيل له: أنتَ عندَ اللهِ مؤمنٌ من أهلِ الجنَّةِ فيقولُ: أنا كذلك إنْ شاءَ اللهُ. أو لأنَّهم لا يعرفونَ أنَّهم أتَوْا بكمالِ الإيمانِ الواجبِ.

ولهذا كانَ من جوابِ بعضِهم إذا قيلَ له أنتَ مؤمنٌ: آمنتُ باللهِ وملائكتِه وكتبِه فيجزمُ بهذا ولا يعلِّقُه، أو يقولُ: إنْ كنتَ تريدُ الإيمانَ الذي يعصمُ دمِي ومالِي فأنَا مؤمنٌ، وإنْ كنتَ تريدُ قولَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال]، وقولَه: ﴿إِنَّمَا

ﭐلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ [الحجرات] فأنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ وأمَّا الإنشاءُ فلم يستثنِ فيه أحدٌ ولا شُرِعَ الاستثناءُ فيه؛ بل كلُّ من آمنَ وأسلمَ آمنَ وأسلمَ جزمًا بلا تعليقٍ.

فتبيَّنَ أنَّ النزاعَ في المسألةِ قد يكونُ لفظيًّا فإنَّ الذي حرَّمَهُ هؤلاءِ غيرُ الذي استحسنَهُ وأمرَ بِهِ أولئكَ ومنْ جزمَ جزمَ بما في قلبِه من الحالِ وهذا حقٌّ لا ينافِي تعليقَ الكمالِ والعاقبةِ ولكنَّ هؤلاءِ عندَهم الأعمالُ ليستْ من الإيمانِ فصارَ الإيمانُ هو الإسلامَ عندَ أولئك. والمشهورُ عندَ أهلِ الحديثِ أنَّه لا يستثنَى في الإسلامِ، وهو المشهورُ عن أحمدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رُوِيَ عنه فيه الاستثناءُ كما قد بُسِطَ هذا في شرحِ حديثِ جبريلَ وغيرِه من نصوصِ الإيمانِ التي في الكتابِ والسُّنَّةِ.

ولو قال لامرأتِه: أنتِ طالقٌ إنْ شاءَ اللهُ؛ ففيهِ نزاعٌ مشهورٌ وقد رجَّحنا التفصيلَ؛ وهو أنَّ الكلامَ يرادُ به شيئان: يرادُ به إيقاعُ الطلاقِ تارةً ويرادُ به منعُ إيقاعه تارةً؛ فإنْ كانَ مرادُه أنتِ طالقٌ بهذا اللفظِ فقولُه: إن شاءَ اللهُ مثلُ قولِه بمشيئةِ اللهِ وقد شاءَ اللهُ الطلاقَ حينَ أتى بالتطليقِ فيقعُ، وإنْ كانَ قد عَلَّقَ لئلا يقعَ أو علَّقَه على مشيئةٍ توجدُ بعدَ هذا لم يقعْ به الطلاقُ حتى يطلِّقَ بعدَ هذا فإنَّه حينئذٍ شاءَ اللهُ أنْ تطلَّقَ.

وقولُ من قالَ المشيئةُ تنجزُهُ ليس كما قال، بل نحن نعلمُ قطعًا أنَّ الطلاقَ لا يقعُ إلَّا إذا طُلِّقت المرأةُ بأنْ يطلِّقَها الزوجُ أو من يقومُ مقامَه من وليٍّ أو وكيلٍ فإذا لم يوجدْ تطليقٌ لم يقعْ طلاقٌ قطُّ، فإذا قالَ: أنتِ طالقٌ إنْ شاءَ اللهُ، وقصدَ حقيقةَ التعليقِ، لم يقعْ إلا بتطليقٍ بعدَ ذلك، وكذلك إذا

قصدَ تعليقَه لئلا يقعَ الآنَ. وأمَّا إنْ قصدَ إيقاعَه الآنَ وعلَّقَه بالمشيئةِ توكيدًا وتحقيقًا فهذا يقعُ به الطلاقُ.

وما أعرفُ أحدًا أنشأَ الإيمانَ فعلَّقه على المشيئةِ، فإذا علَّقه فإنْ كان مقصودُه: أنا مؤمنٌ إن شاءَ اللهُ، أنا أومنُ بعدَ ذلك، فهذا لم يصرْ مؤمنًا مثلَ الذي يقالُ له: هل تصيرُ من أهلِ دينِ الإسلامِ، فقالَ: أصيرُ إن شاءَ اللهُ، فهذا لم يُسلمْ بل هو باقٍ على الكفرِ. وإنْ كانَ قصدُه: أنِّي قد آمنتُ وإيماني بمشيئةِ اللهِ، صارَ مؤمنًا لكنَّ إطلاقَ اللفظِ يحتملُ هذا وهذا، فلا يجوزُ إطلاقُ مثلِ هذا اللفظِ في الإنشاءِ، وأيضًا فإنَّ الأصلَ أنَّه إنَّما يُعلَّقُ بالمشيئةِ ما كان مستقبلًا، فأمَّا الماضي والحاضرُ فلا يُعلَّقُ بالمشيئةِ، والذين استثْنَوْا لم يستثْنُوا في الإنشاءِ كما تقدَّمَ، كيف وقد أُمِروا أنْ يقولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فأخبرَ أنَّهم آمنُوا فوقعَ الإيمانُ منهم قطعًا بلا استثناءٍ. وعلى كلِّ أحدٍ أنْ يقولَ: آمنَّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا كما أمرَ اللهُ بلا استثناءٍ، وهذا متفَقٌ عليه بين المسلمينَ ما استثْنَى أحدٌ من السلفِ قطُّ في مثلِ هذا وإنَّما الكلامُ إذا أخبرَ عن نفسِه بأنَّه مؤمنٌ كما يخبرُ عن نفسِه بأنَّه برٌّ تقيٌّ فقولُ القائلِ له: أنتَ مؤمنٌ، هو عندَهم كقولِه: هل أنتَ برٌّ تقيٌّ؟ فإذا قالَ: أنا برٌّ تقيٌّ، فقد زكَّى نفسَه. فيقولُ: إنْ شاءَ اللهُ وأرجو أنْ أكونَ كذلك وذلك أنَّ الإيمانَ التامَّ يتعقبُهُ قبولُ اللهِ له وجزاؤُه عليه وكتابةُ المَلَكِ له، فالاستثناءُ يعودُ إلى ذلك لا إلى ما عَلِمَه هو من نفسِه وحصلَ واستقرَّ؛ فإنَّ هذا لا يصحُّ تعليقُه بالمشيئةِ؛ بل يقالُ: هذا حاصلٌ بمشيئةِ اللهِ وفضلِه

وإحسانِه، وقولُه فيه إنْ شاءَ اللهُ بمعنى إذْ شاءَ اللهُ، وذلك تحقيقٌ لا تعليقٌ.

والرجلُ قد يقولُ: واللهِ ليكونَنَّ كذا إنْ شاءَ اللهُ، وهو جازمٌ بأنَّه يكونُ، فالمعلَّقُ هو الفعلُ كقولِه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ واللهُ عالمٌ بأنَّهم سيدخلونه، وقد يقولُ الآدميُّ لأفعلنَ كذا إنْ شاءَ اللهُ وهو لا يجزمُ بأنَّه يقعُ لكنْ يرجوه فيقولُ: يكونُ إنْ شاءَ اللهُ، ثم عزمُهُ عليه قد يكونُ جازمًا ولكنْ لا يجزمُ بوقوعِ المعزومِ عليه، وقد يكونُ العزمُ مترددًا معلَّقًا بالمشيئةِ أيضًا، ولكنْ متى كان المعزومُ عليه معلَّقًا لزِمَ تعليقُ بقاءِ العزمِ، فإنَّه بتقديرِ أنَّ تعليقَ العزمِ ابتداءً أو دوامًا في مثلِ ذلك؛ ولهذا لم يحنثْ المطلِّقُ المعلِّقُ، وحرفُ «إنْ» لا يُبقِي العزمَ، فلا بدَّ إذا دخلَ على الماضي صارَ مستقبلًا، تقولُ: إنْ جاءَ زيدٌ كان كذلك ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وإذا أُريدَ الماضي دخلَ حرفُ «إنْ» كقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١] فيفرَّقُ بينَ قولِه: أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ، وبينَ قولِه: إنْ كان اللهُ شاءَ إيماني. وكذلك إذا كان مقصودُه: إنِّي لا أعلمُ بماذا يُختَمُ لي، كما قيل لابنِ مسعودٍ: إنَّ فلانًا يشهدُ أنَّه مؤمنٌ. قال: فليشهدْ أنَّه من أهلِ الجنَّةِ، فهذا مرادُه إذا شهدَ أنَّه مؤمنٌ عندَ اللهِ يموتُ على الإيمانِ، وكذلك إنْ كان مقصودُه: إنَّ إيماني حاصلٌ بمشيئةِ اللهِ. ومن لم يستثنِ قال: أنَا لا أشكُّ في إيمانِ قلبي، فلا جناحَ عليه إذا لم يزكِّ نفسَه ويقطعْ بأنَّه عاملٌ كمَا أُمِرَ، وقد تقبلَّ اللهُ عملَه، وإنْ لم يقلْ إنَّ إيمانَه كإيمانِ جبريلَ وأبي بكرٍ وعمرَ ونحوِ ذلك من أقوالِ المرجئةِ[1]. وهو قولُ المعتزلةِ كذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١-٤٧).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقالت المعتزلةُ: لا يجوزُ الاستثناءُ فيه بل هو شكٌّ»[١].

القولُ الثالثُ: يجوزُ الاستثناءُ ويجوزُ تركُه، فإنْ أرادَ بالاستثناءِ تَرْكَ تزكية النفسِ والخوفَ من ألّا يكونَ قد استكملَ الإيمانَ فهو جائزٌ، وأمَّا من أرادَ بالاستثناءِ الشكَّ في إيمانِه فلا يجوزُ، وهذا مذهبُ جماهيرِ أهلِ السُّنَّةِ؛ لأنَّ الاستثناءَ جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ.

قال ابنُ أبي العزِّ الحنفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمَّا من يجوِّزُ الاستثناءَ وتركَهُ، فهم أسعدُ بالدليلِ من الفريقين وخيرُ الأمورِ أوسطُها، فإنْ أرادَ المستثني الشكَّ في أصلِ إيمانِه مُنع من الاستثناءِ، وهذا مما لا خلافَ فيه، وإنْ أرادَ أنَّه مؤمنٌ من المؤمنين الذين وصفهم اللهُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال].

وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

فالاستثناءُ حينئذٍ جائزٌ، وكذلك من استثنَى وأرادَ عدمَ علمِه بالعاقبةِ، وكذلك من استثنَى تعليقًا للأمرِ بمشيئةِ اللهِ، لا شكًّا في إيمانِه، وهذا القولُ في القوةِ كما ترى[٢].

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٦٦٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٣٦-٣٣٧).

قال الآجريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: من صفةِ أهلِ الحقِّ، ممن ذكرْنَا من أهلِ العلمِ: الاستثناءُ في الإيمانِ، لا على جهةِ الشكِّ - نعوذُ باللهِ من الشكِّ في الإيمانِ - ولكن خوفَ التزكيةِ لأنفسِهم من الاستكمالِ للإيمانِ، لا يدري أهو ممَّنْ يستحقُّ حقيقةَ الإيمانِ أم لا؟ وذلك أنَّ أهلَ العلمِ من أهلِ الحقِّ إذا سُئلوا: أمؤمنٌ أنت؟ قال: آمنتُ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ والجنَّةِ والنَّارِ. وأشباهِ هذا، والناطقُ بهذا والمصدِّقُ به بقلبِه مؤمنٌ، وإنَّما الاستثناءُ في الإيمانِ لا يدري أهو ممَّن يستوجبُ ما نعتَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - به المؤمنين من حقيقةِ الإيمانِ أم لا؟

وهذا طريقُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسانٍ، عندَهم أنَّ الاستثناءَ في الأعمالِ لا يكونُ في القولِ والتصديقِ بالقلبِ وإنَّما الاستثناءُ في الأعمالِ الموجبةِ لحقيقةِ الإيمانِ، والناسُ عندهم على الظاهرِ مؤمنون به يتوارثون، وبه ويتناكحون، وبه تجري أحكامُ ملَّةِ الإسلامِ، ولكنَّ الاستثناءَ منهم على حسبِ ما بَيَّناه لك وبيَّنه العلماءُ من قبلِنا[(١)].

قال ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمأثورُ عن الصحابةِ وأئمةِ التابعين وجمهورِ السلفِ، وهو مذهبُ أهلِ الحديثِ، وهو المنسوبُ إلى أهلِ السُّنَّةِ: أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ، وأنَّه يجوزُ الاستثناءُ فيه»[(٢)].

الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ على جوازِ الاستثناءِ في الإيمانِ:

قول اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ

(١) الشريعة (ص: ١١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، وانظر: الفتاوى (٧/ ٤٤٨).

ﭐلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

وقوله جلَّ ذكره: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف].

وأمَّا السُّنَّةُ: فقولُه ﷺ عندَ دخولِ المقبرةِ: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤمنينَ وَإِنّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ»(١).

وقال ﷺ: «وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي»(٢).

وفي الصحيحين عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، وَأَرَدْتُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٨-٣٣٥).

وفي روايةٍ: «فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللهِ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - أَوِ الْمَلَكُ -: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٩)، ومسلم (١٦٥٤).

ثم قال صاحب النظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٩٧ - نُتابع الأخيارَ مِن أهلِ الأثرْ ونَقْتَفي الآثارَ لا أَهْلَ الأَشَرْ

٩٨- ولا تَقُل إيمانُنا مخلوقُ ولا قديمٌ هَكَذا مَطلُوقُ

٩٩- فإنه يشملُ للصَّلاةِ ونحوِهَا مِن سَائِرِ الطَّاعَاتِ

١٠٠- ففعلُنا نحوَ الركوعِ مُحدَثُ وكلُّ قرآنٍ قديمٌ فابحَثُوا

الشرح

قوله «الأخيار»: معنى الخيار لغة: الخِيارُ: بالكسر، خلاف الأشرار، وهو أيضًا الاسمُ من الاختيار... ورجل خَيِّرٌ وخَيْرٌ: مثلُ هيِّنٍ وهَيْنٍ، وكذا امرأةٌ خيِّرٌ وخيْرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ جمع خَيْرٍ وهي الفاضلة من كل شيء، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾[(١)] أي: أننا نتبع الأخيار وهم الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان؛ لقول رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ »[(٢)].

وأئمة «أهل الأثر» الذين هم على نهج رسول الله ﷺ.

وقوله: «ونَقْتَفي الآثار لا أهْل الأشَر»:

أي: نتبع الآثار المأثورة عن الله وعن رسوله ﷺ، لا نتابع أهل الأشر، أي: البطر من كل متحذلق من الجهمية، والمرجئة، والكرامية، وسائر المبتدعة فبيننا وبينهم من الفرق كما بين الحركة والسكون، قاله ابن مانع.

---

(١) مختار الصحاح (ص: ٧٨).

(٢) **متفق عليه**: تقدم تخريجه.

وقوله: «لا تقل إيمانُنا مخلوق..»:

أي لا تقل - أيها الأثري المقتفي أثر السلف الصالح المتمسكون بنصوص الكتاب والسنة- إيماننا مخلوق؛ لأن اللفظ مشترك يحتمل الحق والباطل، فإيماننا يشمل قول اللسان وعمل الجوارح وعمل القلب، ولا شك أن هذه الأفعال مخلوقة، وقد سبق استيفاء المسألة، لكن قول لا إله إلا الله من كلام الله وهو غير مخلوق، وهذه المسألة تكلم بها الناس بعد مقالات الجهمية وزعمهم أن القرآن مخلوق.

وبناء على ذلك لا يجوز أن نتكلم بهذه المقالات أصلًا؛ لأن السلف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم لم يتكلموا بها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما الإيمان هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟

الجواب: أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن، هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت فيها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة صارت طائفة يقولون: إن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ فصاروا يقولون: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم، بل يدخلون في كلامهم نفس كلام الله الذي نقرأ بأصواتنا وحركاتنا، وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة، فرد الإمام أحمد على الطائفتين، وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع.

وتكلم الناس حينئذ في الإيمان، فقالت طائفة: الإيمان مخلوق، وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل قول: لا إله إلا الله، فصار مقتضى قولهم أن نفس الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها فبدَّع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله**»[(١)] أفيكون قول: لا إله إلا الله مخلوقًا.

ومراده أن من قال: هي مخلوقة مطلقًا، كان مقتضى قوله أن الله لم يتكلم بهذه الكلمة، كما أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه: أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله، وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله... وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله تعالى، وإن كان مسموعًا من المبلغ عنه... إلى أن قال: وهذه الأقوال كلها مبتدعة مخترعة لم يقل السلف شيئًا منها، كلها باطلة شرعًا وعقلًا...[(٢)].

وقوله: «ولا قديم هكذا مطلُوق...»:

أي: لا تقل: إيماننا مخلوق ولا غير مخلوق، ولا تقل: قديم؛ لأن أفعال العباد مخلوقة وليست قديمة.

وقوله:

فإنه يشملُ للصَّلاةِ ونحوِهَا مِن سَائِرِ الطَّاعَاتِ

ففعلُنا نحوَ الركوعِ مُحدَثُ ....

ومنها الصلاة والركوع وسائر الأعمال، بل قل كلمة الإيمان مطلقة بغير

(١) أخرجه البخاري (٩)، وأحمد في المسند (٨٩١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٤، ٦٥٦).

قيود.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد بالإيمان؟ أتريد به شيئًا من صفات الله وكلامه كقوله: «لا إله إلا الله» وإيمانه الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق، أو تريد شيئًا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة.

ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدي وبان السبيل.

والواجب على الخلق أنه ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات، استفصلوا فيه قول القائل، فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله، أو نفى ما أثبته الله، فقد لبس دين الحق بالباطل [(١)].

وقوله: «وكل قرآن قديم فابحثوا»:

أي: أن كل ما كان من القرآن فهو كلام الله غير مخلوق، وقد سبق استيفاء المسألة والرد على شبهات أهل البدع، «فابحثوا» أي: فتش عن دقائق المعاني، فعلى كل مسلم عاقل ألا يقبل كلام أحد قبل أن يعرف منهجه ودليله في المسألة، فالعالم يستدل له لا يستدل به، أي أن العالم

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٣، ٦٦٤).

الذي معه دليل من الكتاب والسنة نأخذ بقوله ونقول هو معه دليل فيستدل له على صحة قوله بما عنده من أدلة صحيحة ولا يستدل به.

أي: لا نقول العالم فلان قال كذا، فنأخذ بقوله وإن كان دليله مرجوحًا، فهذه حمية يجب على طالب العلم تركها، فالعالم يستدل له، لا يستدل به، فانتبه.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١٠١- ووكَّلَ الله من الكرامِ اثْنين حافظين للأنامِ

١٠٢- فيكتبانِ كلَّ أفعالِ الورى كما أتى في النصِ من غيرِ امْترا

الشرح

قوله: «ووكل الله من الكرام اثنين حافظين للأنام»: الوكيل، لغةً: الحافظ(١)، أي: من الإيمان الواجب على العبد أن يعلم أن الله تعالى وكَّل من الملائكة الكرام اثنين حافظين لأعمال وأقوال العباد.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإن عليكم رقباء حافظين يحفظون أعمالكم، ويحصونها عليكم: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ يقول: كرامًا على الله كاتبين يكتبون أعمالكم(٢).

قوله: «فيكتبان كلَّ أفعال الورى ... كما أتى في النصِ من غيرِ امْترا»:

أي أن الملكين يكتبان كل ما يصدر عن الإنسان، واحد عن يمينه، وآخر عن شماله، وهذا «كما أتى في النص» أي: في الكتاب من غير «امترا» أي من غير شك.

قال جل ذكره: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ

(١) اللسان (٩/ ٣٩٢) مادة (وكل).
(٢) جامع البيان (١٥/ ١١٠).

﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق].

تنبيه:

رقيب عتيد: صفتان للملكين، أي أن كلًّا من الملكين رقيب على أعمال العباد؛ أي يرقبها، وعتيد لذلك، أي: معتد لرقابة أعمال وأقوال العباد ليكتبها، فهاتان صفتان للملكين، لا اسمان لهما كما يظن البعض.

قال الحسن ومجاهد وقتادة رحمهم الله: «المتلقيان» ملكان يتلقيان عملك: أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك، قال الحسن: إذا مت طويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ١٤﴾ [الإسراء].

وقال مجاهد: وكل الله بالإنسان -مع علمه بأحواله- ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله[1] ويكتبان أثره إلزامًا للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧﴾ [ق]. وقال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا أذنب العبد قال: لا تعجل لعلّه يستغفر الله، وروي معناه من حديث أَبِي أُمَامَةَ، قال: قال النبي ﷺ: «كَاتِبُ

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

الْحَسَنَاتِ عَنْ يَمِينِ الرَّجُلِ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَاتِبُ الْحَسَنَاتِ أَمِيرٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ: دَعْهُ حَتَّى يُسَبِّحَ أَوْ يَسْتَغْفِرَ»(١).

والمراد بالقعيد ههنا الملازم الثابت لا ضد القائم(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما يلفظ) أي: ابن آدم (من قول) أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: إلا ولها من يرقبُها، مُعتد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب؟

على قولين: وظاهر الآية الأول، لعموم قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

وعن بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه الروياني في مسنده (١٢١٥)، وأعله الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/ ٢٥٨، ٢٥٩) بإسماعيل بن عياش، وانظر: السلسلة الضعيفة (٢٢٣٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٣-١٤) باختصار وتصرف يسير.

سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)(٢)].

مبحث عن عالم الملائكة[(٣)]:

الملائكة عالم من عوالم الغيب، والإيمان بهم ركن من أركان الإيمان يجب على العبد الإيمان به، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

وفي حديث جبريل عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال ﷺ: «أَنْ تُؤمِنَ بالله وَمَلائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وَأَن تُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ»[(٤)].

وقد أثنى الله تعالى على عباده الذين يؤمنون بالغيب، وعدَّ الإيمان بالغيب أول صفات المتقين، قال جل وعلا: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة] ونذكر في هذا المبحث أمور تتعلق بالملائكة.

التعريف بالملائكة وصفاتهم وأعدادهم وقدراتهم:

معنى الملَك في اللغة: الميم واللام والكاف: أصل صحيح يدل على قوة

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩)، وأخرجه بنحوه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٨).

(٣) استفدت بعض النقاط في هذا المبحث من كتاب «عالم الملائكة» للدكتور عمر الأشقر.

(٤) **صحيح**: تقدم تخريجه.

في الشيء وصحة(١).

قال الليث رَحِمَهُ اللَّهُ: الملَكُ واحد الملائكة، إنما هو تخفيف المَلأَك واجتمعوا على حذف همْزِهِ، وهو مفعلٌ من الألُوك.

قال الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ: أصله مَألَكٌ بتقديم الهمزة من الألُوك: وهي الرسالة. قال ابن منظور: ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل: ملكٌ، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا: ملائكة(٢).

وفي الشرع: هم عباد الله المكرمون، طاعتهم لله مطلقة، لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته، ولا يملون ولا يفترون، خلقهم الله من نور، فهم ليسوا إناثًا ولا بنات الله- تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيرًا- وليس لهم من خصائص الربوبية ولا الألوهية شيء، بل هم عباد من عباد الله عز وجل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال جل في علاه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٣٥٢) مادة (ملك).

(٢) لسان العرب (٨/ ٣٦٥).

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنبياء].

وقال جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف].

ما ذكرناه هو الإيمان بالملائكة على وجه الإجمال وهو الواجب على كل مسلم، ونذكر ههنا مزيدًا من التفصيل لعالم الملائكة ليزداد العبد المؤمن إيمانًا.

صفات الملائكة الخلقية:

الملائكة خلق عظيم، خلقهم الله تعالى من نور، وخلق لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ومنهم من له ستمائة جناح، فنؤمن أن لهم أجسامًا ولا نعلم كيفيتها، فلم يرد نص بذلك.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر].

وفي حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ، ولَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ»[(١)].

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

لم يعط الله تعالى القدرة لبشر على رؤية الملائكة على حقيقتها إلا رسول الله ﷺ، فقد أعطاه الله تعالى القدرة على رؤية الملائكة في صورتها الحقيقية الملائكية، فقد رأى جبريل عليه السلام في صورته الملائكية مرتين.

قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير].

يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح[(١)].

والمرة الثانية: في رحلة الإسراء والمعراج، عندما عرج به إلى السموات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم].

وعن مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي، وَلَا تُعْجِلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم]؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»**[(٢)].

ومن صفاتهم أنه يتمثلون في صورة بشر ولا يأكلون ولا يشربون:

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧/ ١٧٧).

قد أعطاهم الله تبارك وتعالى هذه القدرة، وهذا ثابت في الكتاب وصحيح السنة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: والمراد بقوله: «رُوحنا» جبريل، ويدل لذلك قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ تمثّله لها بشرًا سويًّا المذكور في الآية يدل على أنه ملك وليس بآدمي، وهذا المدلول صرّح به تعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥](١). انتهى.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود].

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ من الملائكة، قال السّدي: بعث الله الملائكة لتهلك قوم لوط، أقبلت تمشي في صورة رجال شباب حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٨٧).

(٢) جامع البيان (٨/ ٨٩-٩٤) باختصار.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ذكره: ولما جاءت ملائكتنا لوطًا ساءه مجيئهم وهو «فعل» من السوء، وضاق بهم بمجيئهم ذرعًا، يقول: وضاقت نفسه غمًّا بمجيئهم، وذلك أنه لم يكن يعلم أنهم رسل الله في حال ما ساءه مجيئهم، وعلم من قومه ما هم عليه من إيتائهم الفاحشة وخاف عليهم(١).

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عُمَر بْنِ الْخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**»

---

(١) المصدر السابق.

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ»(١).

وعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «... رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةٌ». وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ رُمْحٍ: «دَحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ»(٢).

وقصة الثلاثة من بني إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا في صورة رجل(٣).

وقال جل ذكره عن المشركين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكأنهم أرادوا منه صفة الملائكة أن يكون متلبسًا بها، فإن الملائكة صُمّد لا يأكلون ولا يشربون، والبشر لهم أجواف يأكلون ويشربون(٤).

من صفاتهم الخَلقية: أن لهم أجسامًا عظيمة ولهم قوة:

قال سبحانه وتعالى في وصف جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والرسول الكريم جبريل، قاله الحسن وقتادة والضحاك، والمعنى ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ عن الله ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله، وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام، ثم عداه عنه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ليعلم أهل التحقيق في التصديق أن الكلام لله عز وجل،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١/ ٨) واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٧).

(٣) انظر: صحيح البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٨٤).

فروي عن ابن عباس قال: من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه(١).

وقد تقدم حديث ابْنُ مَسْعُودٍ، وفيه: «أنه ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ ولَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ»(٢).

وعن جَابِرٍ رضي الله عنه أنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ**»(٣).

أعداد الملائكة:

لا يعلم عدد الملائكة إلا الله جل في علاه، قال عز وجل ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فأعداد الملائكة كثيرة جدًّا، وقد دل على ذلك ما جاء في السنة أيضًا، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ الذي أخبر فيه رسول الله ﷺ عن رحلة الإسراء والمعراج مع جبريل عليه السلام ،وفيه: «... **ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٢٩).

(٢) متفق عليه: تقدم تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١ / ٨٠): رواه أبو داود (٤٧٢٧) ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥١)، وصحيح الجامع (٨٥٤).

هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»(١).

وعن عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٢).

أسماء وأعمال الملائكة التي ورد فيها نص من الكتاب أو السنة:

تقدم أن أعداد الملائكة كثيرة جدًّا ولا يعلمها إلا الله تعالى، وأما أسماء الملائكة فلا نعلم منها إلا ما جاء به نص وهم قليلون، وأما أعمالهم فقد دلت نصوص الكتاب والسنة أن كل صنف من أصناف الملائكة موكل بعمل، فمنهم من وكّل بالوحي، ومنهم من وكّل بالسحاب والمطر، ومنهم من وكّل بالجبال، ومنهم من وكّل بحفظ الإنسان، ومنهم من وكّل بقبض الأرواح إلى غير ذلك، فالملائكة أعظم وأقوى وأشد جنود الله تعالى، ونذكر ههنا أسماء الملائكة التي جاء فيها نص، وكذا بعض أصناف الملائكة والأعمال التي وكّلوا بها.

جبريل عليه السلام:

أشرف الملائكة، وهو الذي وكّله الله تعالى بالوحي.

الوحي لغة: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكّل ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وحَيْتُ إليه الكلام وأوحَيْتُ ووحى وحيًا.. وأوحى إليه: ألهَمه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وفيه ﴿بِأَنَّ

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (٢٥٩/ ١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي: إليها، فمعنى هذا أمرها[(١)].

وشرعًا: الإعلام بالشرع، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي: الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء].

وقال جل ذكره: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف، وهذا ما لا نزاع فيه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ أي القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل[(٣)].

عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**»[(٤)].

---

(١) اللسان (٩/ ٢٤٣) مادة (وحي).
(٢) الفتح (١/ ١٤، ١٥).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٢-٣٧٣).
(٤) أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٨٧/ ٢٣٣٣).

ميكائيل عليه السلام:

من أشرف الملائكة وقد ذكره الله تعالى في كتابه العزيز مع الملائكة وجبريل في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة] وميكائيل هو الموكل بالمطر والنبات.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عطفهما على الملائكة لشرفهما، فجبريل ملك عظيم وقد تقدم ذكره، وأما ميكائيل فموكّل بالمطر والنبات، وهو ذو مكانة عند ربه عز وجل، ومن أشرف الملائكة المقربين(١). انتهى.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ. فسألوا عن أشياء إلى أن قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «**جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ**»، قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، لَكَانَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ(٢).

إسرافيل عليه السلام:

الموكّل بالنفخ في الصور، وليس بمصرَّح باسمه في القرآن، وقد جاء

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٤)، والترمذي (٣١١٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠٧٢) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٢).

اسمه في بعض الأحاديث، والصور: قرن ينفخ فيه فيصعق جميع الخلق إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فيقوم الناس للحساب، على الخلاف بين أهل العلم هل هما نفختان أو ثلاثة؟ وسيأتي بيان ذلك[(١)].

قال الله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل].

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنه قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»[(٢)].

وعن أَبِي سَعِيدٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا».

وفي رواية: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ،

---

(١) باب الإيمان باليوم الآخر إن شاء الله.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، وأبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٠)، والدارمي (٢٨٠١)، وابن حبان (٧٣١٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٨٠) و«صحيح الجامع» (٣٨٦٣).

وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ»[١].

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ - تعني رسول الله ﷺ- افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[٢].

وقال رسُولُ الله ﷺ لعليٍّ ولأبي بكر يوم بدر: «**مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ، وَمَعَ الْآخَرِ مِيكَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ**» أو قَالَ: «**يَشْهَدُ الصَّفَّ**»[٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: الأمم مجمعون على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام[٤].

خزنة النار: مالك والزبانية:

الموكلون بالنار وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، وخازنها مالك،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٧)، والترمذي (٢٤٣١/ ٣٢٤٣)، والحميدي (٧٥٤)، وابن حبان (٨٢٣)، وأبو يعلي (١٠٨٤)، والحاكم (٤/ ٦٠٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٤٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف»(٦/ ٣٥١)، (٧/ ٣٥٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢١٧)، وأبو يعلي (٣٤٠)، والبزار (٧٢٩)، والحاكم (٣/ ٧٢،٤٤)، وصححه ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٣٢٤١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٤).

وهو مقدم على جميع الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر][1].

وقال جل ذكره: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي خزنة جهنم لأخذه وعقوبته[2].

وعن شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»[3].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: -في حديث طويل وفيه-: «... **فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا**

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ٦٣، ٦٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ»[(١)].

وعن سَمُرَة بْنُ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رؤية رآها النبي ﷺ وفيها قال: «... فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ، كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا» قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟... قَالَا: فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ»[(٢)].

هاروت وماروت:

قال جل وعلا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة].

من الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السلف، وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات[(٣)].

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: وما كفر سليمان قط ولا سحر، ولكن الشياطين كفروا بسحرهم، وأنهم يُعلِّمونه الناس... ويعلمون الناس

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٦١، ٦٢).

ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما كان الملكان يعلمان أحدًا حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية.

فإن قيل: كيف أنزل الله تعالى الباطل والكفر؟

قلنا: كل خير أو شر أو طاعة أو معصية أو إيمان أو كفر مُنَزَّل من عند الله تعالى، قال النبي ﷺ في الصحيح: «**سُبْحَانَ اللهِ، مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ** - يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ لِكَيْ يُصَلِّينَ - **رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ**»(١).

فأخبر عليه السلام عن نزول الفتن على الخلق(٢).

قال ابن جرير بعد أن ذكر خلاف أهل العلم في تفسير الآية: فإذا فسدت هذه الوجوه التي دللنا على فسادها، تبين أن معنى «ما» التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بمعنى «الذي» وأن هاروت وماروت مترجم بهما عن الملكين، ولذلك فتحت أواخر أسمائهما؛ لأنهما في موضع خفض على الردّ على الملكين ولكنهما لما كانا لا يجرّان فتحت أواخر أسمائهما.

فإن التبس على ذي غباء ما قلنا، فقال: وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟ قيل له: إن الله جل ثناؤه عرّف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، فالسحر مما قد نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٩).
(٢) أحكام القرآن (١/ ٥٩، ٦٠).

أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه وعن السحر فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما، ويكون الملكان في تعليمهما من علّما ذلك لله مطيعين(١).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحانًا وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر(٢).

منكر ونكير:

هما ملكان أسودان أزرقان موكلان بسؤال العبد إذا وضع في قبره، جاء ذلك عن نبينا ﷺ، وسيأتي بيان سؤال القبر في بابه إن شاء الله.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ:**

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٦٣٧، ٦٣٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١).

سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»(١).

ذكر أسماء بعض الملائكة التي لم يُصرح بذكر أسمائهم في القرآن أو السنة:

اعلم أن بعض الملائكة لهم أعمال معلومة ولهم أسماء معلومة، وبعضهم لهم أعمال معلومة ولا نعلم أسماءهم، والبعض لا نعلم أعمالهم ولا أسماءهم، ونؤمن بذلك ونعلم أن ذلك مقتضى حكمة الله تعالى ومشيئته، ونذكر ههنا بعض أعمال الملائكة التي لم يأت ذكر أسمائهم في القرآن أو السنة:

ملك الموت وأعوانه:

هو الملك الموكّل بقبض أرواح بني آدم ومعه أعوان، وهذا ثابت بأدلة الكتاب والسنة، وليس بمصرح باسمه، وأما ما انتشر عند العامة أن الذي يقبض الأرواح اسمه «عزرائيل» فهذا ليس عليه دليل صحيح من الكتاب أو السنة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان في الموارد (٨٧٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (٢١٣٩)، والآجري في الشريعة (٩١٣)، وقال الألباني: «إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات؛ رجال مسلم، وفيه ابن إسحاق؛ وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر» السلسلة الصحيحة (١٣٩١).

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال].

وعن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا: عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ- إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ،

وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ...» الحديث(١).

وفي حديث قاتل التسعة والتسعين نفسًا وفيه: «.. فَاخْتَصَمَت فِيهِ مَلَائِكَةُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٧، ٢٩٦،٢٩٥،٢٨٨)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والنسائي (٢٠٥٨)، والترمذي (١٠٧١)، والحاكم (١/ ٣٧-٤٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦)، و«أحكام الجنائز» (١٩٨-٢٠٢).

الرَّحْمَة ومَلَائِكَةُ العَذَاب»[(١)].

الملك الموكل بنفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه:

عن عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ»[(٢)].

الملائكة المعقبات:

قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي ملائكة يتعاقبون عليه؛ حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير وشر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار؛ فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قُدَّامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلًا، حافظان وكاتبان... وساق حديث «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

مَلائِكَةٌ» كما تقدم.

وروي عن بعض أهل العلم: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(١).

وقوله: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، وهذا رأي الأكثرين، وقال بعضهم: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ بأمر الله(٢).

الملائكة حملة العرش:

وهم ثمانية ولا يعلم عظم خلقهم إلا الله تبارك وتعالى، ومع هذا هم يستغفرون للمؤمنين والتائبين ويدعون لهم، فانظروا إلى فضل وكرم ورحمة الله بعباده الموحدين.

قال جل ذكره: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٣).

ملائكة تلتمس حلق الذكر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ» قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» قَالَ: «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟» قَالُوا: «يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ» قَالَ: «فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟» قَالَ: «فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا» قَالَ: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً» قَالَ: «فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً» قَالَ: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» قَالَ: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ». قَالَ: «هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، واللفظ للبخاري.

عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

ملائكة تصلي على المؤمنين:

قال جل ذكره: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وعن الْبَرَاء بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْأُولَى**»(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ، تَقُولُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، وَأَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ**»(٣).

وعن عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي عَلَيَّ، إِلَّا صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ**»(٤).

وقد سبق بيان أن الصلاة من الله تعالى على العبد هي: الثناء عليه في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة على العبد: الدعاء له (٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٩٦)، والدارمي (١٢٦٤)، والنسائي (٨١٠)، وابن ماجه (٩٩٧)، وابن خزيمة (١٥٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وانظر: «صحيح الجامع » (١ / ٣٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٩) ومسلم (٦٤٩/ ٢٧٣).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٤٦،٤٤٥)، وابن ماجه (٩٠٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٤٤)، وصحيح ابن ماجه.

(٥) راجع شرح البيت الرابع.

وإذا عمدت إلى الكتاب والسنة لجمع أعمال الملائكة التي أُخبرنا بها لطال المرام، وقد قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ» قال أبو ذر: «لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ»(١).

وفي حديث المعراج: قال رسولُ الله ﷺ: «فَرُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٨)، والترمذي (٢٣١٢)، وأحمد (٥/ ١٧٣)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٨٣، ٧٨٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٥٩، ١٠٦٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفهرس

الفهرس

مقدمة... ٥
ترجمة العلامة محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ٩
متن العقيدة السفارينية ١٩
ثناء صاحب النظم على الله تعالى ورسوله، وثناؤه على الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.. ٤٥
الفرق بين الحمد والشكر... ٤٧
هل القديمُ من أسماء الله تعالى؟ ٤٩
هل الباقي من أسماء الله تعالى؟...................................... ٥٣
الفرق بين القدرة والقوة ٥٨
الأحكام التعبدية.. ٦٩
الأحكامُ المعقولة المعنى... ٦٩
وأيهما أقوى في التعبد، الامتثال للحكم التعبدي، أو للحكم المعقول المعنى؟.. ٦٩
كيفية الصلاة والسلام على النبي ﷺ؟ ٧٢
مسألة: كيف طلب النبي له من الصلاة مثل ما لإبراهيم عليه السلام، وهو أفضل منه؟ ٧٢
هل يجوز الصلاة على غير الأنبياء؟.................................. ٧٣

ما الحكمة في تأكيد السلام على النبي ﷺ دون الصلاة عليه؟.......... ٧٩
نُكتة بديعة ٨٠
من أدلة اصطفاء الله تعالى للنبي ﷺ من الكتاب والسنة ٨٣
هل المصطفى من أسماء النبي ﷺ؟ وما هي أسماء النبي ﷺ؟ ٨٥
مسألة هل بين النبي والرسول مغايرة، وهل بينهما فرق؟ ٨٦
هل زوجات النبي ﷺ يدخُلن في آله؟................................. ٩٩
مراتبُ التعلم ستة، وحرمان العلم بستة ١٠٤
ركنا كلمة التوحيد، وهما الإثبات والنفي ١٠٧
بما تنال الإمامة في الدين؟.. ١٢٢
مقدمة: في ترجيح مذهب السلف على مذهب الخلف والفرقة الناجية على سائر الفرق ١٣١
مسألة: هل قولُ الصحابي حُجّة؟................................. ١٣٨
مسألة: كيف نعلم أننا الفرقة الناجية؟............................ ١٤٣
أقسام التعطيل ١٤٧
مسألة: اعلم أنّ النفي المَحضَ ليس كمالًا؛ فلا بُد من إثبات كمال الضد ١٦١
منهجُ القرآن إثباتُ صفات الكمال لله تعالى على وجه التفصيل، ونفي صفات النقص عن الله تعالى على وجه الإجمال ١٦٢

الباب الأول: في معرفة الله تعالى

أنواع الصفات، وما نصف به الله تعالى منها ٢٠٣
من أصول اعتقاد أهل السنة أن صفات الله تعالى توقيفية ٢٠٧
المبحث الأول: أسماء الله تعالى كُلّها حُسنى ٢٠٨
المبحث الثاني: أسماء الله سبحانه وتعالى أعلام وأوصاف ٢٠٩
المبحث الثالث: أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد ٢١١
فائدة ٢١٣
المبحث الرابع: أسماء الله تعالى توقيفية ٢١٤
تنبيه ٢١٦
المبحث الخامس: باب الأسماء أضيق من باب الصفات ٢١٧
المبحث السادس: أسماء الله تعالى لها ثلاث دلالات ٢١٨
مباحث في صفة الكلام ٢٢٠
المبحث الأول: الكلام من صفات الله تعالى، وذكر الأدلة من الكتاب والسنة، وأقوال الأئمة في ذلك ٢١٨
أقوال أهل السنة بأن الله تعالى يتكلم بصوت يُسمَع ٢٢٤
المبحث الثاني: القرآن كلام الله غير مخلوق ٢٢٥
المبحث الثالث: شبهات المعتزلة والجهمية في مسألة خلق القرآن، والرد عليها ٢٢٩
المبحث الرابع: إبطال دعوى أن الكلام معنى قائم بذات الله ٢٣٦

أولاً: الإرادة الدينية الشرعية ٢٤١
ثانيًا: الإرادة الكونية القدَرية ٢٤٢
مسألة: الفرق بين المحبة والرضا، والمشيئة والإرادة ٢٤٣
الأول: مذهب الجبرية القدَرية ٢٤٣
الثاني: مذهب القدَرية النُّفاة ٢٤٣
الثالث: مذهب أهل السنة والجماعة ٢٤٣
مسألة: هل القرآنُ كُلّه مُحكم؟ ٢٥٧
مسألة: هل القرآنُ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ؟ ٢٦١
فصل: في ذكر الصفات التي يثبتها لله أئمةُ السلف دون غيرهم من الخلف وأهل الكلام ٢٦٤
ذكر الآيات التي جاء فيها الاستواء على العرش ٢٦٧
ذكرُ أقوال بعض السلف في إثبات صفة الاستواء ٢٦٨
أقوالُ السلف في معنى الاستواء ٢٧٠
مسألة: إبطالُ تأويل استوى بمعنى استولى ٢٧١
فائدة جليلة ٢٧٣
مسألة: الردُّ على مَن تأول اليد على أنها القوة أو النعمة ٢٨٦
فائدة ٢٩١
مبحث: هل في اللغة العربية مجاز؟ وهل يصح أن يُقال: إن في القرآن مجازًا؟ ٢٩٨
معنى المجاز عند مَن قال: إنّ في اللغة مَجازًا ٣٠٤

حُجة مَن قال: إنّ في القرآن مجازًا، والردُّ عليهم ٣٠٥
ومن حُجَجهم أيضًا ٣٠٥
الخلاصة في مسألة المجاز.................................... ٣٠٨
ثمرات الولاية الخاصة ٣١٧
ومن ثمرات الولاية ٣١٨
خاتمة في ذكر أهمية الاعتصام بالقرآن والسنة للنجاة من الضلال ... ٣١٨
فصل: في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد وفي جوازه وعدمه ٣٢٠
الخلاصة.................................... ٣٢٣
مسألة: هل بين أهل السنة والجماعة خلاف في مسائل الاعتقاد؟ ٣٢٦

الباب الثاني: في الأفعال المخلوقة

فائدة ٣٥٧
درء التعارض بين الإيمان بأن الأرزاق والآجال مقدرة ومكتوبة، وبين الأخذ بالأسباب ٣٦١
تأويل حديث: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ...».................... ٣٦٤

الباب الثالث: في الأحكام

أنواع العبادة.................................... ٣٧٠
أقسام العبادة ٣٧١

حاجة العبد إلى العبادة ٣٧٢
فصل: في الكلام عن القضاء والقدر ٣٧٤
فصل: في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها ٣٧٨
مسألة: ما هو ضابط الكبيرة؟ ٣٨٠
مسألة: ما هي شروط التوبة؟ ٣٨٨
هل تصح التوبة من ذنب دون آخر؟ ٣٨٨
هل يشترط في صحة التوبة أن لا يعود إلى الذنب أبدًا أم ليس ذلك بشرط؟ ٣٨٩
فصل: في ذكر مَن قيل بعدم قبول إسلامه من طوائف الملحدين ٣٩٥
عمل السحر، وتعلمه وتعليمه ٤٠٢
أما حكم الساحر ٤٠٣
أقوال الفقهاء في المسألة ٤٠٤
الخلاصة ٤٠٨
مسألة: حكم من سب الله تعالى أو استهزأ بالله، ومن سب الرسول ﷺ، هل تقبل توبته؟ ٤٠٨
وهل تقبل توبة الساب؟ ٤٠٩
الخلاصة ٤١٣
فصل: في الكلام عن الإيمان ٤١٤
أولًا: الدليلُ على أنَّ الإيمانَ قولٌ ٤١٩

١ - دليلُ قولِ اللسانِ ٤١٩
٢ - دليلُ قولِ القلبِ ٤٢١
ثانيًا: دليلُ أنَّ الإيمانَ عملٌ ٤٢٢
١ - دليلُ عملِ القلبِ ٤٢٢
٢ - دليلُ عملِ الجوارحِ ٤٢٤
وقد دلَّتِ السُّنَّةُ على أنَّ الإيمانَ عملٌ ٤٢٥
ثالثًا: دليلُ أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ ٤٢٧
الخلاصة ٤٣٠
الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ على جوازِ الاستثناءِ في الإيمانِ ٤٤١
مبحث عن عالم الملائكة ٤٥٢
التعريف بالملائكة وصفاتهم و أعدادهم وقدراتهم ٤٥٢
صفات الملائكة الخَلقية ٤٥٤
أعداد الملائكة ٤٥٩
أسماء وأعمال الملائكة التي ورد فيها نص من الكتاب أو السنة ٤٦٠
ذكر أسماء بعض الملائكة التي لم يُصرَّح بذكر أسمائهم في القرآن أو السنة ٤٦٧
ملك الموت وأعوانه ٤٦٩
الملك الموكل بنفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه ٤٧٢
الملائكة المعقبات ٤٧٢

الملائكة حملة العرش ٤٧٣
ملائكة تلتمس حلق الذكر ٤٧٤
ملائكة تصلي على المؤمنين ٤٧٥
الفهرس ٤٧٧